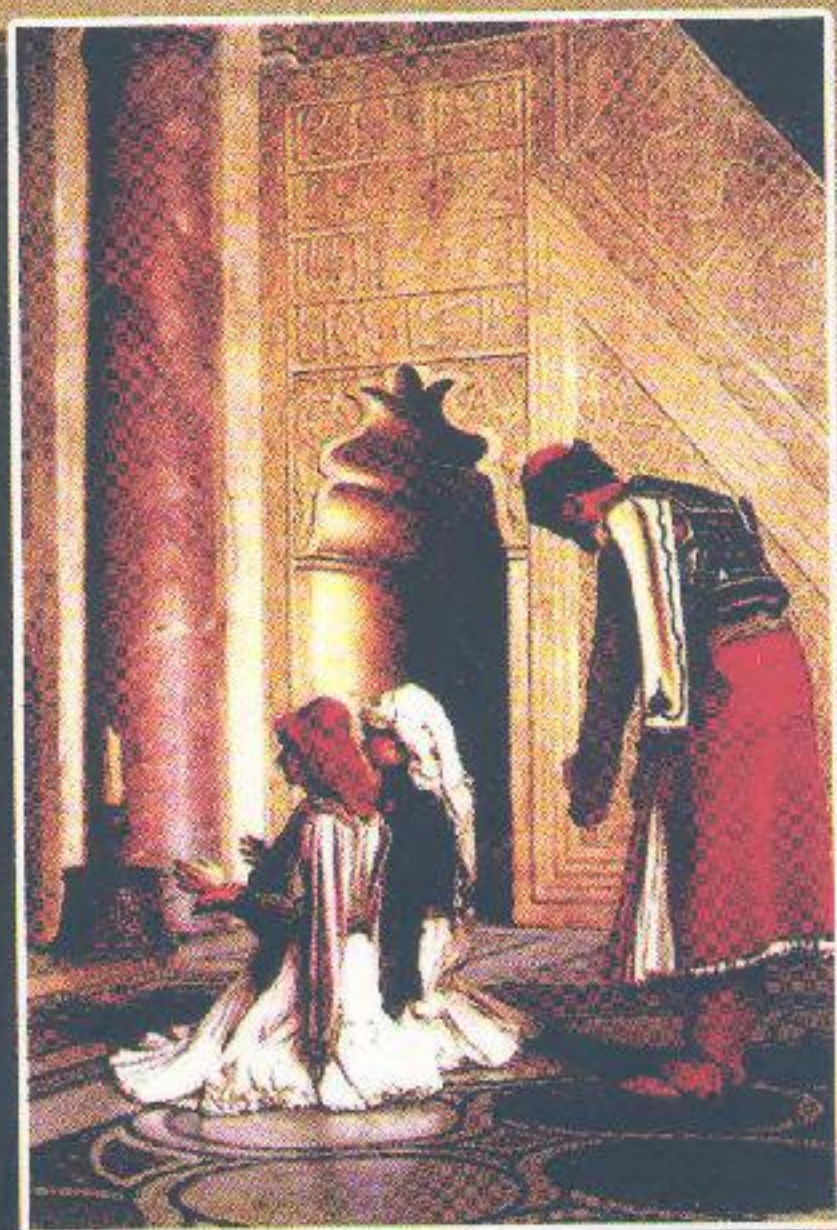




دكتور قاسم عبده قاسم

المسلمون و أوروبا

التطور التاريخي لصورة الآخر



المسلمون وأوروبا

التطور التاريخي لصورة الآخر

دكتور

قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

—EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة	المستشارون
<p>قاسم : قاسم عبده المسلمون وأوربا : التطور التاريخي لصورة الآخر / قاسم عبده قاسم - ط ١ - الجيزة : دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٨ ٢٤٠ ص : ٢٠ سم تدمك ٥ ٢٣٦ ٣٢٢ ٩٧٧ ١- الاسلام والعلاقات الخارجية أ. العنوان ٢١٤ ، ٣٢٧</p>	<p>د . أحمد إبراهيم الهواري د . شوقي عبد القوى حبيب د . قاسم عبده قاسم المشرف العام : د . قاسم عبده قاسم المدير التنفيذي : شريف قاسم مدير الإنتاج : جمال عابد تصميم الغلاف : عمرو قاسم</p>

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المرويطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٢٨٧١٦٩٢

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Elkharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar-Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

حوار الحضارات ، أم صدام الحضارات ؟ حوار أديان أم حوار ثقافات ؟

أسئلة تثور في الأجواء السياسية والثقافية في عالم اليوم الذي تشتعل فيه الحروب والمنازعات في كل أركان الدنيا، تبحث عن الإجابة المناسبة وسط ضجيج الأيديولوجيا الجديدة التي تحاول السيطرة على العالم من خلال رفع شعارات العولة ، وصراع الحضارات ، ومحاربة الإرهاب الإسلامي ... وما إلى ذلك .

ولأننا نؤمن بوحدة الحضارة الإنسانية ، التي امتدت حلقاتها منذ بداية البداية في رحلة الإنسان ، التي لم تتم بعد، عبر الزمان، فإننا نقدم هذه الدراسة الأولية ، بشقيها ، عن صورة الآخر لدى كل من الأوروبيين والمسلمين في تطورها التاريخي حتى نهاية العصور الوسطى (القرن السادس عشر الميلادي تقريبا) ومفهوم «التسامح» وتطوره التاريخي أيضا في الفترة نفسها .

فالحضارة الإنسانية التي نحيا في ظلها اليوم تدين بالكثير لإنجازات الحضارات السابقة زمنياً من ناحية، كما أن جميع الحضارات كانت تدين للحضارات السابقة عليها من ناحية أخرى؛ وهو ما يعنى أن جميع البشر ينهلون من منبع واحد وإن تغيرت مواقعه الجغرافية . فالحضارات القديمة

(المصرية- وحضارة العراق القديمة- وحضارة الصين وحضارة الهند القديمة) أثرت بشكل أو بآخر في الحضارات التي جاءت بعدها (مثل اليونانية ، والهلينستية والرومانية) التي تركت بصماتها على الحضارة العربية الإسلامية التي استفادت أيضا من موروثة الفرس والسوريان والهنود والصين؛ فضلا عن الحضارات الأقدم عمراً . وحين بدأت أوربا تنفض عن نفسها غبار التخلف الذي عانت منه في العصور الوسطى، اتجهت إلى الحضارة العربية الإسلامية تنهل من معينها حتى قوى عودها، وصارت الحضارة العالمية بإنجازاتها التي كفلت لها التفوق والسيادة والريادة في عالمنا المعاصر لاسيما بعد أن تعززت بشقها الأمريكى.

خلاصة القول إن هناك وحدة حضارية حقيقية تجمع البشر ؛ وأن مصلحتهم الحقيقية تكمن فى إدراك هذه الحقيقة، ونبذ صيحات الحرب التي يطلقها الرأسماليون المتوحشون الذين يريدون السيطرة على العالم؛ موارد الطاقة ، والأسواق ، والعمالة الرخيصة ، ويمهدون لهذا بدعاوى إيديولوجية باطلة عن صدام الحضارات ، أو الأديان ، أو الثقافات . وفى ظنى أن العالم بدأ ينقسم إلى قسمين رئيسيين ؛ بغض النظر عن الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية واللغوية والعرقية: دعاة الحرب وقارعو طبول الصدام والصراع من أجل أطماعهم الرأسمالية الجشعة ، والبشر العاديين الذين يريدون العيش فى سلام تظله الأخوة الإنسانية. وقد تجلى هذا واضحا فى أثناء الحرب على العراق ، وفى مظاهر مقاومة الحرب والعملة والتسلح ... وغيرها .

وهذه الدراسة تحاول أن تلقى أضواء كاشفة على جانب من الموضوع ؛
 إذ تتناول في شق منها موقف المسيحيين الشرقيين عامة من حركة الفتوح
 الإسلامية، والتعامل مع الدين الإسلامي والمسلمين، وفي هذا السياق
 حرصنا على أن نضع نصوصاً كاملة، أو شبه كاملة، لكي نقف على ملامح
 الصورة التي كانت لدى الذين كتبوا آنذاك. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه
 النصوص تعبر عن آراء رجال الكنيسة ولا أظنها تعبر عن النفسية
 الجمعية والتصورات العامة لدى الناس العاديين الذين لانحلك من المصادر
 والأدلة ما يرشدنا إلى موقفهم الحقيقي. وفي الشق الثاني من هذه
 الدراسة نتناول التطور التاريخي لصورة الآخر في كل من أوروبا والعالم
 المسلم. فثمة علاقة متعددة الجوانب بين العالم الإسلامي وأوروبا تغيرت على
 مرّ القرون حسب الظروف وتركزت بصمات على صورة «الآخر» لدى كل
 منهما. ومن ناحية ثالثة، فإن الدراسة تحاول أن تبرز الاختلاف بين مفهوم
 «التسامح» في الثقافة الغربية عموماً ، وفي الثقافة العربية الإسلامية قديماً
 وحديثاً ، موضحة كيف أن لاختلاف مفهوم التسامح على هذا النحو قد ترك
 تأثيراً واضحاً على صورة الآخر في كل من الثقافتين ، وكيف أنه ما يزال
 يحكم موقف كل منهما من الآخر في أيامنا هذه أيضاً .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

٦ أكتوبر - مايو ٢٠٠٨م

القسم الأول

المسيحيون والفتوح الإسلامية

بيزنطة وشرق المتوسط

مقدمة

فى البداية كانوا مجموعة من الفرسان يملأهم البسيطة ، على خيولهم النحيلة ، خرجوا من شبه الجزيرة العربية بأسلحتهم التى كان السيف أهمها ، يحدوهم إيمان قوى ، وتميزهم صلابة نادرة. ولم تكن أعدادهم كبيرة ، ولم تكن جيوشهم جرارة ؛ ولكنهم فى غضون قرن من الزمان كانوا قد هزموا القوتين العظميين فى عالمهم المعاصر، ويات الوجود السياسى لدولة المسلمين من الحقائق الكبرى فى دنيا القرن الثامن الميلادى . وفيما بين النصف الأول من القرن السابع الميلادى ومنصف القرن الثامن الميلادى كانت حدود «دار الإسلام» تمتد من الصين شرقا حتى جبل طارق ومياه الأطلنطى غربا ، ومن مناطق الاستبس وبحر مرمرة والبحر المتوسط شمالاً حتى شبه القارة الهندية فى آسيا والصحراء الكبرى فى أفريقيا جنوباً .

والمدى أن الجيوش التى أنجزت الفتوح الإسلامية لم تكن تزيد من عشرة آلاف مقاتل فى غالب الأحيان ، ولم تصل إلى أكثر من عشرين ألفا سوى فى أحيان نادرة. والأكثر إثارة للدهشة أن معظم هذه «الفتوح» تمت «صلحا» ؛ أى بطريقة سلمية فى كثير من الأحيان. وكان القتال محدوداً ، وحول المدن والقلاع، على الرغم من أن الفتوح الإسلامية ضمت مساحات شاسعة . وفى أماكن عديدة تولت الجيوش التى تكونت من أبناء البلاد المفتوحة مهمة «فتح» بلاد أخرى على نحو ما حدث فى المغرب والأندلس ، وما حدث فى فتوح الشرق وبلاد ما وراء النهر والسند.

ولم يحدث في تاريخ البشرية أن تم فتح مثل هذه المناطق الشاسعة في مثل هذه الفترة الوجيزة ، ولم يحدث أن بقيت نتائج أية فتوح على مدى القرون حتى الآن مثلما هو الحال في نتائج حركة الفتوح الإسلامية. هذه الظاهرة التاريخية الفذة كانت وراء كثير من الأسئلة المدهشة التي طرحها المؤرخون والباحثون في جميع العصور حول الفتوح الإسلامية.

هذا السؤال الذي يحمل طعم المدهشة طرحه على نفسه راهب نسطوري في نيره المنعزل في المنطقة الجبلية بشمال شرق تركيا الحالية، بالقرب من مجرى نهر دجلة سريع الجريان. لقد سأل الراهب يوحنا بارينكايب نفسه، وهو يكتب تاريخاً مختصراً للعالم بعد خمسة عقود من بدء حركة الفتوح الإسلامية التي قضت في غضون سنوات قليلة على الامبراطورية الساسانية وانتزعت الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط من الإمبراطورية البيزنطية. سأل وأجاب سأل السؤال المدهش وأجاب الإجابة المريحة : «لا يجوز لنا أن نفكر في قدوم أبناء هاجر (المسلمين) على أنه أمر عادي، بل إنه نتيجة عمل الرب، فقد كان الرب قد أعدهم من قبل لتكريم النصارى ... والآن عاد هؤلاء بأمر الرب، واستولوا على كلتي المملكتين (الفارسية والبيزنطية) كما هو واضح، لا بالحرب والقتال وإنما بأسلوب بسيط، مثل استخراج جمرة من النار، ودون استخدام أسلحة قتال أو أساليب بشرية. لقد وضع الرب النصر في أيديهم بشكل يدل على أن ما حدث منهم يمكن أن يكون أمراً مقضياً ... وإلا ، فكيف يمكن لقوم عراة ، يمتطون خيولهم دونما درع أو ترس ، أن

ينتصروا بدون العون الإلهي ؟ لقد دعاهم الرب من أطراف العالم لكي يتم تكميره على أيديهم...».

هكذا وجد الراهب النسطوري في تسعينيات القرن السابع الميلادي الإجابة المريحة على دهشته التي اتخذت شكل السؤال ؛ لقد كان الأمر برمته تدبيراً من الرب. ولكن السؤال الذي طرحه منذ أربعة عشر قرناً ما يزال يكبح في طلب الإجابة حتى الآن؛ لأسباب تتعلق بالحاضر، وتتصل بالمستقبل ، فقد غيرت الفتوح الإسلامية وجه الدنيا ، مرة وإلى الأبد. وما تزال آثار ما جرى في تلك العقود القليلة من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الميلادي توجه حياة ملايين البشر في عالم اليوم. ولاشك في أن رؤية مسيحي ذلك الزمان للإسلام وحركة الفتوح الإسلامية كانت أساس الرؤية المسيحية ، الشرقية والغربية، للمسلمين على مدى القرون التالية. وربما يكون هذا ما يضاف على هذه الدراسة المشروعية العلمية الواجبة.

لقد كان السؤال / الدهشة ، والإجابة المريحة التي تنسب ما حدث إلى الإرادة الربانية، على نحو ما كتب الراهب النسطوري في القرن السابع الميلادي ، بمثابة القاسم المشترك في كتابات نصارى الدولة البيزنطية ومنطقة شرق المتوسط في أعقاب حركة الفتوح الإسلامية. وكانت تلك الإجابة ترضى هؤلاء الكتاب الذين كان معظمهم مستعدين للتعامل مع المسلمين، ويرفضون التفاهم مع أتباع المذاهب المسيحية المخالفة ويرون فيهم سبباً جوهرياً من أسباب غضب الرب الذي سلط عليهم المسلمين عقاباً لهم على هرطقتهم وخطاياهم.

وقد نقل المسيحيون في غرب أوروبا الكثير من ملامح الصورة التي رسمها الكتاب البيزنطيون للإسلام والمسلمين ؛ ولكن الغربيين لأسباب تاريخية عديدة، زادوا من ملامح الصورة البشعة والرؤية الهستيرية التي رسموها للإسلام والمسلمين. وقد تناولات هذا الموضوع في دراسة أخرى. وفي العصور الحديثة حاول المؤرخون والباحثون الغربيون أن يتوصلوا إلى الإجابة المريحة علمياً على السؤال الذي أقلق ذلك الراهب النسطوري في ديريه الجبلى المنعزل منذ عدة قرون ، بيد أن الكتابات الغربية ، هي معظمها تبس «بعينة» و«خارجية» وهي تتناول أى جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، أو التاريخ الإسلامى. ذلك أن هذه الكتابات الغربية تفتقر في معظم الأحيان إلى الفهم الداخلى للفكر والثقافة الإسلامية، وتفشل في أحيان كثيرة في الاعتراف بدور الدوافع غير المادية فى حركة الناس والمجتمعات داخل الإطار الإسلامى العام. ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الغربيين محكومون بتراثهم الفكرى والثقافى، وخيرتهم التاريخية بالمسلمين؛ وهي خبرة مستمدة من علاقات متبادلة بين المسلمين وأوروبا الغربية على مدى ما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان وتراوحت ما بين العداوة الصريحة ، والصراع العسكرى، والتنافس الاقتصادى، والتعاون والتفاعل المتبادل على كافة المستويات. وفضلاً عن ذلك، فإن الباحثين الغربيين ليسوا من المؤمنين بالإسلام بطبيعة الحال ، وهو ما يجعلهم غير قادرين على تصور قوة الدوافع الإيمانية فى سلوك المسلمين التاريخى ويجعل رؤيتهم للأمور والأحداث التاريخية «خارجية» فى أفضل الأحوال . وليس من العدل، على أية حال، أن نطلب من الباحث الغربى أن

يخلع جلده الثقافي، ويتنازل عن تراثه المعرفي وخبرته التاريخية لكي يكتب ما يريحنا أو يرضينا .

وليس معنى هذا أن هذه الكتابات الغربية «منحازة» ، ولكن بعضها يبدو منحازاً ضد الإسلام والمسلمين على الرغم من التميز العلمي والقدرة البحثية لأصحابها . حقاً ، هناك كتابات منحازة بشكل واضح لكنها تخرج من نطاق البحث العلمي إلى مجال الدعاية السياسية والمواقف التي تحمل عداء إيديولوجيا ضد الإسلام والمسلمين .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تهتم برصد مواقف المؤرخين والكتاب المسيحيين الشرقيين ورؤيتهم للإسلام والمسلمين زمن حركة الفتوح الإسلامية فقد كان من الضروري أن نشير بسرعة إلى كتابات الباحثين الغربيين في الموضوع نفسه من حيث الكيفية لا من الناحية الكمية . ومن ناحية أخرى فإننا هنا نحاول طرح وجهة نظر الكتاب المسيحيين الشرقيين في إطارها التاريخي الموضوعي، وسوف تكون النصوص التي تحمل ريدود أفعال النخبة المسيحية في العالم البيزنطي وعالم شرق المتوسط غداة الفتوح الإسلامية في هذه المناطق وسيلتنا لمحاولة فهم الأسس التي شكلت طبيعة العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذا الجزء من العالم. ومن ثم، فإن النصارى من أتباع الكنائس الشرقية المختلفة هم الذين تهتم هذه الدراسة برصد مواقفهم . وهنا ستكون هناك بعض الفروق بين رؤية المسيحيين الذين دخلوا تحت الحكم الإسلامي والمسيحيين الذين بقوا في الأراضي البيزنطية.

وإذا كان المجال الجغرافى للمدراسة يشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وصولاً إلى الجزيرة وأعالى العراق، إلى جانب أراضى الدولة البيزنطية، فإن المدى الزمنى سيكون محصوراً فيما بين بداية حركة الفتوح الإسلامية فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى ومنتصف القرن الثامن الميلادى .

وعندما ظهر الإسلام لم يكن العالم المسيحى موحداً ، وإنما كان غارقاً فى نزاعات مذهبية مزقته بدرجة كبيرة، ويرجع السبب فى ذلك إلى التطورات التاريخية التى جعلت المسيحية ديانة سرية فى بادئ الأمر حتى حظيت بمبدأ حرية العقيدة على يدى قنسطنطين الكبير وشريكه فى حكم الإمبراطورية «ليكينىوس». وبعدها بدأ بحث مشكلة طبيعة السيد المسيح ، والعلاقات داخل الثالوث المقدس؛ وهو ما أدى هذا الانقسام داخل المسيحية.

(١)

المشهد المسيحي قبيل الفتوح الإسلامية

فعندما ظهرت المسيحية للمرة الأولى داخل الامبراطورية الرومانية، لم تعرها السلطات اهتماماً كبيراً، وربما تصور البعض أنها مذهب يهودى جديد من المذاهب المنشقة . وقد أثبت البحث التاريخى أن الأساطير اللاحقة وسير القديسين قد بالغت كثيراً فى أعداد الشهداء المسيحيين؛ إذ كان اضطهاد المسيحيين محدوداً ، ويحدث فى نطاق محلي محدود غالباً ، وعلى الرغم من أن الدولة الرومانية لم تعترف فى هذا الدور الباكر بالمسيحية ديانة مشروعة ؛ فإنها كانت متسامحة - بشكل عام - إزاء المسيحيين ولم تكن تتدخل فى شئونهم كثيراً . وفى هذا الدور كان رؤساء الجماعات المسيحية فى كل مكان يحاولون الحفاظ على كيان جماعاتهم ، ولم يكن الجدل حول طبيعة السيد المسيح، أو الثالوث المقدس ، قد خرج إلى العلن.

ثم تغير موقف السلطات الإمبراطورية من المسيحيين بشكل جذرى فى عهد الإمبراطور الرومانى نيكديانوس (٢٨٤-٣٠٦م) الذى حاول ترميم بناء الامبراطورية المتداعى وإقامة نظام سياسى جديد، ولكنه اصطدم بالكنيسة التى رفض أتباعها مبدأ عبادة الامبراطور، ونجح الوثنيون فى بلاطه فى حمله على شن حملة اضطهادات قاسية ضد المسيحيين . وعلى مدى عشر

سنوات بذلت الحكومة الرومانية جهوداً منظمة للقضاء على المسيحية، وكان مسيحيو مصر والشام من أكثر رعايا الامبراطورية معاناة من هذه الاضطهادات . ثم اعتزل بقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٦م وعلى عروشها عدد من الرجال يدعى كل منهم أنه صاحب الحق في العرش الإمبراطوري. وفي خضم الحروب الأهلية التي نجمت عن ذلك أعلن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (إمبراطور الغرب) وشريكه ليكينيوس (إمبراطور الشرق) مبدأ حرية العقيدة، وصارت المسيحية ديانة مرخصة بمقتضى ذلك الخطاب الذي أرسله إلى حاكم الشرق، والذي يعرف عادة باسم «مرسوم ميلانو» عام ٣١٣م . وفي سنة ٣٢٤م هزم قنسطنطين حليف الأمس ليكينيوس لينفرد بحكم الإمبراطورية.

وحين خرجت الجماعات المسيحية إلى العلن بدأ النقاش حول طبيعة الإله الذي تجسد بشراً حسب اعتقادهم، وكانت للمواريث الثقافية المختلفة للمسيحيين في الشرق والغرب تأثيراتها على صياغة المذاهب المسيحية المختلفة منذ البداية. ومنذ البداية أيضاً، تلقت المسيحية مساعدات قيمة من الإمبراطور قنسطنطين الكبير. وقد تولى بنفسه رئاسة أول المجمع الكنسية، وهو مجمع نيقية الذي عقد سنة ٣٢٥م لمناقشة طبيعة المسيح والعلاقة بين أقانيم الثالوث المقدس . ومناقشة المشكلة الأريوسية . وقد كان هذا المجمع بداية الإنشقاقات التي قسمت العالم المسيحي إلى طوائف مذهبية متعددة ، كما كان بداية الإنشقاق الديني بين الشرق والغرب. فقد انقسم العالم المسيحي آنذاك ما بين الأريوسية والاثناسيوسية ، وأدان المجمع المذهب الأريوسي (الذي قال إن الإله الابن مخلوق بواسطة الإله

الأب ولذلك فإنه دونه في المشيئة والقدرة) واعتبره نوعاً من الإيمان يتعدد الآلهة . ثم حدثت تطورات سياسية ولاهوتية كثيرة في الشرق والغرب، كان أبرزها أن الإمبراطور البيزنطي ثيوديسيوس الكبير اعتبر أن المسيحية الدين الرسمي للدولة. وعندما عُقد مجمع خلقدونية الكنسي سنة ٤٥١م أدت نتائجه إلى انفصال المزيد من الكنائس المسيحية؛ فقد تبنى هذا المجمع رؤية البابا الكاثوليكي ليو الثالث (٤٤٠-٤٦١م) للثالوث المقدس مما أثار غضب الكنيسة المصرية وكنائس الشام التي اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة (الإلهية) للسيد المسيح.

وقد أدى هذا الانشقاق المذهبي بين كنائس مصر والشام من جهة، وكنيسة الدولة البيزنطية من جهة ثانية ، إلى اضطهادات دموية ، واسعة النطاق عانى منها أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) على المستوى الاجتماعي والسياسي والديني. وعندما اعتلى الإمبراطور جستنيان الأول عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٢٧-٥٦٥م) كانت جمهرة السكان في مصر والشام يدينون بالمذهب المونوفيزيتي. وكان جستنيان عالماً باللاهوت إلى جانب كونه إمبراطوراً ، ولكن طموحاته الاستردادية التي كانت تهدف إلى إعادة ضم المناطق التي احتلها الجرمان إلى الكيان الإمبراطوري وإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ، جعلته في وضع حرج للغاية . فقد كان لابد له من استرداد إيطاليا من الأوستروقوط لأن الإمبراطورية الرومانية بدون روما ستكون بلا معنى ، ولأن روما موجودة في إيطاليا ، ولأن البابا موجود في روما، ولأن البابا كاثوليكي . وكان لابد من استرضاء البابا حتى لا يفشل مشروع الإمبراطور الاستردادي .

وكانت النتيجة أن شن الامبراطور جستنيان حملة اضطهادات قاسية ضد أتباع مذهب الطبيعة الواحدة استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه . ولم يكن رجال الكنيسة البيزنطية راضين عن سياسة التقارب التي اتبعها الامبراطور مع روما . وعلى الرغم من أن مشروع جستنيان الاستردادى كلف الامبراطورية ثمنًا غاليًا على المستوى السياسى والاقتصادى؛ فضلاً عن نفقاته العسكرية، فقد كانت نتيجته إخفاقاً تاماً على الصعيد الخارجى وعلى الصعيد الداخلى أيضاً . بيد أن ما يهمنا هنا أن السخط ساد في أنحاء مصر وشرق المتوسط عامة؛ وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن زاد نفور سكان هذه المناطق من السلطة والكنيسة البيزنطية على حد سواء، وياتوا يرون في الإمبراطورية البيزنطية وحشاً لا يستحق الإنقاذ .

وفى الوقت نفسه كان قسطنطين الأول مشروع جستنيان الاستردادى قد جعل الغرب يتخلى تماماً عن فكرة التبعية للإمبراطور القابع بعيداً في مقره الحصين في القسطنطينية، وكان عليه أن يبحث عن زعاماته من بين أبنائه . ولم يكن هناك من هو مؤهل لهذه الزعامة سوى الكنيسة الكاثوليكية . فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦م وقسطنطين الأول مشروع جستنيان الاستردادى في النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، انتقلت زعامة الغرب الأوروبى من الدولة الرومانية إلى البابوية في روما على أساس ما عُرف في تلك الفترة باسم «المذهب البطررسى» الذى يزعم أن المسيح جعل القديس بطرس نائبه على الأرض؛ ومن ثم فإن كل من يجلس على عرش القديس بطرس في روما من بعده يكون بدوره نائباً للرب على الأرض . أى أن بابا روما صاحب سلطة الحل والعقد على الأرض بوصفه نائب الرب.

وبطبيعة الحال، لم يلق هذا الرأي قبولاً من الكنائس الأخرى. وعندما بدأت حركة الفتوح الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، كانت هناك خمس كنائس ، أو خمس طوائف مسيحية، تزعم كل منها أنها الطائفة «القويمة» : ففي شمال أفريقيا، الموطن الأصلي لأوغسطين المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، كانت الكنيسة تابعة لكرسى روما. وفي القسطنطينية نفسها كانت الكنيسة الملكانية (الروم الأرثوذكس) تحاول فرض تفوقها على الكنائس الأخرى في أراضى الامبراطورية البيزنطية، وهى الكنائس التى تدين بمذهب الطبيعة الواحدة في مصر والشام، أما الكنيسة النسطورية التى كان مؤسسها وأتباعها قد طردوا من الأراضى البيزنطية، فقد كان أتباعها في العراق ومنهم الراهب يوحنا بارينكاى الذى تحدثنا عنه من قبل . وكان السريان الأرثوذكس من أهم الطوائف المسيحية التى تعاملت مع المسلمين، بعد الفتوح ، بشكل مباشر . وقد حاول الإمبراطور هرقل الأول ، الذى كان عليه عبء مواجهة الجيوش الإسلامية، أن يفرض على الكنائس فى إمبراطوريته صيغة توفيقية (المونوليثية)، واجأ إلى استخدام القوة لفرض هذه الصيغة . وكانت النتيجة، بطبيعة الحال ، أن سخل أتباع الكنائس الأخرى فى صراع مذهبي عنيف دموى ضد السلطة الإمبراطورية ومذهبها .

كانت هذه ، بشكل عام ، ملامح صورة العالم المسيحي عشية حركة الفتوح الإسلامية . فقد كان هناك ميراث ضخم من المرارة والشك المتبادل بين أتباع الكنائس المسيحية. وكانت الطوائف التى تتبع مذهب كنيسة الدولة تحظى بمساندتها بطبيعة الحال، وعلى الجانب الآخر كانت الكنائس

المخالفة تلقى الاضطهادات الدموية العنيفة، وتعانى من مصادرة أملاكها ، وقتل أتباعها (مثلما حدث لشقيق بنيامين بطريرك الأقباط في مصر).

ومن الطبيعي أن تكون رؤية المؤرخين المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام والمسلمين زمن الفتوح الإسلامية ملونة بآلوان صورة العالم المسيحي آنذاك. لاسيما في الجزء الشرقي من هذا العالم. ومن المهم أن نلاحظ أيضا أنهم جميعاً كانوا من رجال الكنيسة. صحيح أن كتاباتهم كانت سلبية بتأثير خسارتهم التي تمثلت في تحول أتباعهم إلى الدين الإسلامي بشكل متزايد خلال القرنين التاليين لظهور الإسلام: بيد أننا ينبغي أن نضع في اعتبارنا أمرين غاية في الأهمية: أولهما ، أن غالبية هؤلاء الكتاب الذين كانوا من رجال الكنيسة المسيحية كما أسلفنا وكانتوا يخاطبون أقرانهم من رجال الكنيسة، كتبوا في مصطلحات مسيحية لتاريخية . وقد كانت الإنحيازات الدينية العاطفية سمة غالبة على كتاباتهم . كما أنهم فشلوا في التعرف على حقيقة الإسلام والفكر الإسلامي، أو عزفوا عن معرفته ، وكان قصدهم تشويه صورته أمام أتباعهم وحجب الحقيقة عنهم . وثانيهما، أن معرفة هؤلاء الكتاب بالحقائق الواقعية في عالم المسلمين الداخلي كانت محدودة وضئيلة من ناحية ، كما أن خطابهم كان دينياً ولم يكن رصداً لحقائق تاريخية في كثير من الأحيان.

ومع هذه التحفظات تبقى النصوص التي كتبها أولئك الكتاب المسيحيون عن الإسلام والمسلمين تحمل أصداء الحقيقة ، وبعض ملامح الصورة التاريخية، وربما يساعدنا تحليل النصوص ومحاولة فهمها على فهم النفسية العامة للنخبة المسيحية، على الأقل، إبان الفترة التي جرت

فيها وقائع الاحتكاكات والاتصالات الأولى بين المسلمين والمسيحيين في هذه المنطقة. ذلك أن اقتصرات المسلمين السريعة المذهلة على الجبهة الساسانية وعلى الجبهة البيزنطية في آن معاً ، والتي أدت إلى الاختفاء التاريخي لامبراطورية الساسانيين وانتزاع معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في حوض المتوسط، وتشيتيت جيوش بيزنطة ، أثارت في عقول بعض المعاصرين تساؤلات مهمة حول مصير الإمبراطورية، والعون الرباني بل وصحة العقيدة المسيحية نفسها. ومن المناسب أن نقسم هذه النصوص تقسيماً يتماشى مع وجود كاتبها المكاني ؛ سواء في المناطق التي كانت ما تزال خاضعة للبيزنطيين ، أو في المناطق التي فتحها المسلمون، مع مراعاة أن نجمع ما كتبه أبناء كل طائفة مسيحية على حدة.

لقد كانت النصوص البيزنطية، أو التي كتبها المؤرخون ورجال الكنيسة البيزنطية، تختلف في نغمتها عن تلك النصوص التي كتبها الأرثوذكس من السُريان، أو الأقباط ، وعن النصوص التي كتبها الأرمن ، ولكن تلك النصوص القليلة التي حفظها الزمن منذ ثلاثينيات القرن السابع الميلادي، تكاد تتفق جميعاً على تفسير الهزائم التي حلت بالبيزنطيين أمام جيوش المسلمين على أنها عقاب من الرب بسبب خطايا أتباع المذاهب المسيحية الأخرى، بل إن عدداً كبيراً من هذه الكتابات تلقى باللوم على هرقل وسياساته الكنسية والعسكرية في هذه الهزائم ، ولا ترى في المسلمين سوى أداة الرب في إنزال هذا العقاب بالمسيحيين.

(٢)

البيزنطيون

وأقدم الكتابات البيزنطية التي وصلتنا من ثلاثينيات القرن السابع الميلادي هي تلك العظة الكنسية التي كتبها «صفرونيوس» أسقف بيت المقدس. وكان هذا الراهب من أهل دمشق حيث تعلم في صباه الفلسفة اليونانية والبلاغة ، ثم سافر إلى الاسكندرية من سنة ٥٧٨م حتى سنة ٥٨٣م، حيث واصل دراسته في ظل التوجه الأخير للتعليم الكلاسيكي. ويعد أن أتم دراسته عاد إلى فلسطين حيث صار راهباً في دير سان ثيودوسيوس بالقرب من القدس . وبعد الغزو الفارسي لفلسطين هرب «صفرونيوس» إلى روما سنة ٦١٥م، كما أمضى بعض الوقت في شمال أفريقيا ليعود إلى القدس بعد أن استعادها الإمبراطور هرقل من الفرس، ثم تمت رسامته بطريرك على مدينة بيت المقدس منذ سنة ٦٢٣م.

وبهذه الصفة واجه «صفرونيوس» المسلمين، وتفاوض مع عمر بن الخطاب على تسليم المدينة، وشهد بنفسه من سلوك الخليفة والمسلمين ما يتناقض مع كلماته المذعورة التي كتبها في موعظة عيد الميلاد سنة ٦٣٤م، ولكنه كان ما يزال على ثقة من أن الإمبراطور هرقل سوف يقدم لنجدة البلاد، ويتمكن من «... كسر غرور البرابرة جميعاً ، وخاصة السراكنة (المسلمين) الذين ظهروا الآن ضللتنا على غير انتظار نتيجة خطايانا،

فخربوا كل شيء بخطة قاسية وحشية، وفي وقاحة لاتعرف بيتاً ، ولارب لها...» ففي عيد الميلاد لم يتمكن رجال الكنيسة في القدس من السير بموكبهم الديني إلى بيت لحم حسيما جرت العادة خوفاً من المسلمين، كما يقول صفرونيوس : «... ومثلما حدث ذات مرة من قبل جيش من الفلسطينيين ، استولى جيش السراكة الذين لايعرفون الرب على مدينة بيت لحم المقدسة، وتمعوا مرورنا إلى هناك، وهددونا بالذبح والنعار إذا ما ضايرنا هذه المدينة المقدسة...» ومع هذا كله كان صفرونيوس ما يزال على تفاؤله على الرغم من أن المسلمين منعوهم من الاقتراب من بيت لحم «... فإذا تبنا ، وكفرنا عن خطايانا، فإننا سوف نضحك على زوال أعدائنا المسلمين، وفي فترة زمنية وجيزة سنشهد بمارهم وهلاكهم التام. لأن سيوفهم السعوية سوف تتغرس في قلوبهم ، كما أن قسيهم سوف تنكسر ، أما سهامهم فستبقى ملتصقة بهم، وسوف يفتحون الطريق أمامنا إلى بيت لحم...».

ولكن تفاؤل صفرونيوس تخلى عن مكانه لاذعر حقيقي عندما كتب مواعظته سنة ٦٢٧م مشيراً إلى أن الهزائم البيزنطية كانت نتيجة غضب الرب بسبب خطايا البيزنطيين وإهمالهم : «لماذا يتم شن الحروب علينا ؟ لماذا تقضاعف حملات البرابرة ؟ لماذا تقوم جماعات العرب ضدنا ؟ لماذا يتزايد الخراب والصوصية ؟ لماذا تسيل الدماء يوماً انقطاع ؟ لماذا تلتهم جوارح السماء أجساد البشر؟ لماذا يتعرض الصليب للسخرية ؟ لماذا يهين البرابرة المسيح نفسه ، وهو الواهب لكل الأمور الحسنة ، ومانع النور لنا؟» ومثل يوحنا بارينكاى، وجد صفرونيوس لنفسه الإجابة المريحة على

أسئلته الحيرى المذعورة : «... ما كان لهؤلاء المنسجين أن يحققوا ذلك، أو يقووا على فعل مثل هذه الأمور، أو التفرغ بها، لولا أننا نحن بآئفسنا ننسنا المقدسات ، وأسأنا بذلك إلى المسيح الذى وهبنا النعم فجلبنا على أنفسنا هذه النعمة...». ومرة أخرى كان رأى صفرونيوس مثل رأى الراهب النسطورى أن المسلمين (السراكنة) كانوا أداة الرب لعقاب النصارى جزاء خطاياهم وآثامهم «... فقد يمروا كل شئ فى عنق واندفاع حيوانى ، بجرأة شريرة أثمة...».

وكان هناك رجل كنيسة آخر معاصراً لصفرونيوس ، وهو صديقه مكسيموس المعترف الذى كان قد قابله فى شمال أفريقيا أثناء فترة هروبه من الغزو الفارسى لفلسطين، سنة ٦١٥م. وكانت العبارات التى وصف بها مكسيموس هذا إنتصارات المسلمين على جيوش الإمبراطورية البيزنطية عبارات مذعورة من قبيل وصفه لما حدث بأنه أمر «خطير» و«رهيب» «ومخيف» ، «ويبعث على الرثاء».

ومما يلفت النظر أن ما كتبه هذان الراهبان كان تعبيراً عن الذعر الذى انتاب كلاهما وهو يشهد العالم الذى ينتمى إليه يتلاشى فى غياهب المجهول على حين يتشكل عالم جديد لا يعرف أى منهما شيئاً عنه . كما أن ما كتباه لم يحمل أية صورة «تاريخية» لما حدث وإنما كان رثاء «دينيا» وعاطفياً للعالم الذى عاشا فى رحابه . لقد كان ذلك العالم المسيحى فى حوض البحر المتوسط بمذهبه الأرثوذكسى، ولغته اليونانية الطنانية، ينكسر وتتبعثر أشلاؤه تحت وطأة الفتوح الإسلامية؛ فلم يلبث صفرونيوس أن

سلم مدينة القدس بنفسه إلى الخليفة عمر بن الخطاب . ولم يكن أمامه
بديل سوى التفاوض مع المسلمين، وأصر على تسليم المدينة إلى الخليفة
نفسه .

ومن المهم أن نشير إلى أن فتح مدينة القدس كانت له قيمة رمزية
و دينية، ولم تكن له قيمة عسكرية كبيرة؛ فضلاً عن أنه كان «فتحاً سلمياً» ؛
فلم يكن ثمة قتال ولكن القدس فتحت صلحاً . والقدس ذات أهمية فائقة
بالنسبة للمسيحيين لارتباطها بقصة المسيح على الأرض، كما أنها ذات
أهمية عظمى بالنسبة للمسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين من
ناحية ، ولارتباطها بقصة الإسراء الإعجازية التي ورد ذكرها في القرآن
الكريم من ناحية أخرى. كما أن قبة الصخرة التي ترتبط بقصة الإسراء
والمعراج تعتبر ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة في
الحجاز.

وتحكي المصادر التاريخية العربية أنه بعد أن تم الاتفاق على تسليم
القدس «صلحاً» أعطى الخليفة عمر بن الخطاب الأمان لأهل القدس، وفي
هذا العهد الذي نسب للخليفة العظيم تم وضع أسس التعامل بين المسلمين
والتنصارى فيما يعرف باسم «العهد العمرى». وقد أورد الطبري نص ذلك
العهد على النحو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان؛ أعطاهم
أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكتائبهم وصلبانهم ، وسقيمتها ويزينها وسائر

ملتها، أنه لا تسكن كثائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على نينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوص (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصليبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر ستة خمس عشرة.

وليست هناك وسيلة ، أو مصدر تاريخى ، حتى الآن يمكننا من معرفة ما إذا كان هذا هو النص الحقيقى لعهد عمر أم لا . ولكن الثابت على أية حال ، ويفض النظر عن النصوص، أن الخليفة قد أعطى عهداً بالأمان لسكان القدس من النصارى، وقد تكررت عهود الأمان التى أعطاها الفاتحون المسلمون لأهل البلاد التى فتحت صلحاً . ولكن هذا العهد

يكتسب أهمية خاصة لأنه كان قائماً على سلطة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب؛ وهي سلطة لا يمكن لأحد أن يشكك فيها بطبيعة الحال. وقد ظلت هذه الوثيقة ، بصياغاتها المختلفة التي اصطلح المؤرخون والفقهاء على تسميتها «الشروط العُمرية» فيما بعد ، تحكم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بشكل أو بآخر طوال القرون التالية.

وعلى أية حال، كان سلوك صفرونيوس بطريرك بيت المقدس تجاه الخليفة عمر بن الخطاب والمسلمين ودياً بطريقة تثير الدهشة من أفكاره التي عبرت عنها عذاته العدائية وتظهره السوداوية تجاه المسلمين؛ فقد كتب أنهم قوم بلا رب ، ونعاصي عن حقيقة أنهم أصحاب دين جديد ومع ذلك تعامل معهم بمودة ربما كانت نوعاً من التفاق والمداينة تحت وطأة الظروف العسكرية والسياسية غير المواتية.

ويبدو أن المؤرخ والراهب البيزنطي ثيوفانيس Theophanes ، الذي كتب في مطلع القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، كان يعرف شيئاً عن أحوال الإسلام والمسلمين . ويغض النظر عن إنكاره

لنبوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، واقتراحاته التي كساها ثوب التاريخ، فإنه كان يعرف الخطوط العريضة لسيرة النبي؛ فقد كتب في مؤرخته عن سنة ٦٢٩م - ٦٣٠م : «... في هذه السنة مات محمد ، زعيم السراكنة، وندبهم المزيف، بعد أن حل محله في الرئاسة أبوبكر. وفي بداية ظهوره ظن اليهود الضالون أنه هو المسيح الذي ينتظرونه ، لدرجة أن بعض قاداتهم انضموا إليه، وقبلوا بليانته وتخلوا عن ديانة موسى الذي

رأى الرب . وكان الذين فعلوا هذا عشرة عنداً ، وقد بقوا معه حتى اغتياله ، ولكنه عندما رأوه يتكل لحم الجمل أتركوا أنه ليس من حسبوه مخلصهم... وقد علمه أولئك الرجال الأشرار أموراً محظورة موجهة ضدنا نحن المسيحيين ، وظلوا معه...»

ومن الواضح تماماً أن ثيوفانيس كان يعرف قدرًا كبيراً من حقيقة الدين الإسلامي وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأحداث التاريخ الإسلامي ، ولكنه كان أيضاً يستثير عداوة من يكتب لهم ضد الإسلام والمسلمين بما يطرحه من أكاذيب وتهم باطلة . وليس من المتصور أن يكون هذا الراهب المتعلم جاهلاً بحقيقة أن النبي جاء بدين جديد ، وأن هذا الدين لم يكن سوى ضلالة خدعت اليهود . ولكن الراجح أن ثيوفانيس كان يتجاهل ما بات معروفا بالضرورة في زمانه عن حقائق الإسلام بعد أن زادت أعداد المسلمين بحيث صاروا أغلبية سكان شرق المتوسط . بل إنه يقحم اليهود في الصورة التي يرسمها بقلمه لكي يزيد من حدة العداة للإسلام ، ويواصل الراهب البيزنطي كلامه :

« ... وأرى من الضروري أن أقدم تقريراً عن أصل هذا الرجل؛ فقد كان ينتمي إلى قبيلة كبيرة واسعة الانتشار ، هي قبيلة اسماعيل من نسل إبراهيم ، لأن نزار من نسل اسماعيل هو الأب الذي يعترفون به أباً لهم جميعاً ، وقد أنجب ولدين هما مضر وربيعة ، ومن أبناء مضر قريش (كوراسوس) ... وسكنوا صحراء مدين حيث كانوا يرعون أغنامهم ويعيشون في الخيام ... ولأن محمداً كان معديماً ویتيماً ، قرر الالتحاق بخدمة امرأة ثرية اسمها خبيجة ليتولى تجارتها في مصر وفلسطين

يقوافل الجمال ، ثم اتخذها زوجة واستولى على أملاكها . وكان كلما جاء إلى فلسطين يجتمع بالنصارى واليهود ويسألهم عن مسائل روحية معينة . وكان مصاباً بالصرع ، وحزنت زوجته ، واستمر يخدعها بقوله إنه يرى ملاكاً اسمه جبريل ، ويقول لها إننى لا أتحمل رؤيته فيغفى على . وكان لها صديق محروم من الكنيسة بسبب عقيدته الخاطئة ، فحكى له كل شيء ، وأراد أن يرضيها فقال لها إنه يقول الحق . وعندما سمعت ما قاله الراهب الزائف كانت أول من آمن بمحمد وأخبرت بقية نساء القبيلة إنه نبي . وهكذا انتشر الخبر من النساء إلى الرجال وأولهم أبوبكر الذى تركه خليفة له . وقد سادت هذه الهرطقة فى إقليم إثريوس بالحرب فى نهاية المطاف : فى البداية سرّاً على مدى عشر سنوات ، ثم بالحرب على مدى عشر سنوات أخرى ، وعلمنا على امتداد تسع سنوات . وقد هلم رعاياه أن من يقتل عدواً ، أو يقتله عدو ، يذهب إلى القديس ؛ وقال إن هذا القديس يهنا فيه المرء بالطعام والشراب ومضاجعة النساء ، ويه نهر من الخمر ، ونهر من العسل ، ونهر من اللبن ، كما أن النساء فيه لسن مثل النساء فى هذه الدنيا ولكنهن مختلفات والجماع يستمر فترة طويلة ، وذكر أموراً أخرى كثيرة مليئة بالخرافة والبلاهة ؛ كما قال إنه ينبغى على الرجال أيضاً أن يتعاطفوا ويتراحموا فيما بينهم ، وعليهم مساعدة الذين اخطأوا .

هكذا عبر ثيوفانس الراهب البيزنطى عن التصورات التى حكمت رجال الكنيسة البيزنطية ، كما كشف عن انحيازاتهم بعد مرور أكثر من

قرن ونصف قرن على ظهور الإسلام. فقد كان ذلك الراهب الذي عاش معظم حياته في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (مات سنة ٨١٨م) يحاول إبعاد رعايا كنيسه عن معرفة الإسلام بما كتبه عن النبي وعن الإسلام. وعلى الرغم من أن ما كتبه يشي بمعرفته الجيدة بالإسلام وبسيرة النبي، فإنه لم يتورع عن التشويه العمدي. ولكن هذا الراهب، من ناحية أخرى، يختلف بشكل واضح عن صفرونيوس أسقف بيت المقدس وصديقه مكسيموس المعترف اللذين عاشا في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وحاصرا ظهور الإسلام وحركة الفتوح الإسلامية المبكرة؛ فقد كان هذان الإثنان يتعيان عالمهما التي عاشا في رحابه، وكان يتلاشى أمام ناظريهما. ولكن ثيوفانيس كان يعيش في عالم مختلف كان الوجود الإسلامي أحد معالمه الأساسية على المستوى السياسي والعسكري والاجتماعي. وكان المسلمون آنذاك (تحت حكم الدولة العباسية) جارا قويا غنيا ومهابا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التي كان ذلك الراهب من رعاياها؛ ومن جاءت كتابات ثيوفانيس عن الإسلام والمسلمين، على الرغم من لهجتها العدائية، أقرب ما تكون إلى لغة الاعتراف بالأمر الواقع والتعايش معه. والدليل على هذا يتجسد في حقيقة أن ثيوفانيس يبدأ ذكر حوادث كل سنة من سنوات مؤرخته، بنكر إسم الإمبراطور القائم على عرش الإمبراطورية البيزنطية، ثم إسم الخليفة المسلم (زعيم العرب) يليه اسم أسقف القسطنطينية الموجود.

ومن الواضح أن ثيوفانيس اعتمد في كتابة تاريخ الفترة السابقة على عصره على مصادر عربية أو سريانية تمت ترجمتها إلى اللغة اليونانية،

وربما يكون قد اعتمد أيضا على التراث الشفوي المتداول عن الفترة
الباكرة في تاريخ المسلمين وحركة الفتوح الإسلامية ؛ وهو أمر يمكن أن
نفهمه بشكل مريح إذا ما وضعنا في اعتبارنا كيفية تأليف كتاب الطبرى
الهم ، وكتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم عن فتوح مصر والمغرب ، وغيرهما
، وعلى أية حال ، كان ثيوفانيس يعكس موقف رجال الكنيسة البيزنطية
الذين ساعدهم انتشار الدين الإسلامى على حساب كنائسهم من ناحية ، ولم
يتقبلوا فكرة انهيار سلطة كنيستهم على الكنائس التى دخلت فى رحاب
الدولة الإسلامية من ناحية ثانية ، فضلا عن الإحباط الذى نالهم من جراء
تقلص مساحة دولتهم من ناحية ثالثة. بيد أن كتاباته بشكل عام معتدلة
نفسيا ، ولم تكن تحمل ذلك الطابع الهيستيري الذى نجده فى كتابات
الأوربيين الغربيين عن الإسلام والمسلمين .

وتكشف كتاباته عن معرفة جيدة وإطلاع واسع على أخبار الدولة
العربية الإسلامية ؛ فهو يتحدث عن خالد بن الوليد ، مثلا ، بقوله : «... كان
منهم أمير اسمه خالد يسمى سيف الله...» فى إشارة إلى اللقب الذى
أطلقه الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك القائد الفذ. وتبدو فى رواية
ثيوفانيس أصداء رواية أوردها الطبرى عن حوار جرى بين خالد بن الوليد
والقائد الأرمنى المدعو «جرجة» (جوريا) قبيل معركة اليرموك مباشرة «...
قال إن الله عز وجل بعث فينا نبيه، صلى الله عليه وسلم ، فبعثنا فتفردنا
عنه... ثم إن الله أخذ بقلوبنا وتواصيتا فهدانا به، فتابعناه ، فقال أنت
سيف من سيوف الله سلّ على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فسميت سيف
الله بذاك ، فلما من أشد المسلمين على المشركين...».

وهو يتابع أخبار المسلمين بشكل مستمر ومتواصل منذ خلافة أبي بكر الصديق الذي يسميه «أيوخاروس» وعمر بن الخطاب الذي يسميه «أوفاروس» . ويحدثنا عن تسليم بيت المقدس ولكنه يحكى أن الخليفة دخل المدينة المقدسة بثياب بسيطة من وبر الجمال ، وعندما عرض عليه صفرونيوس ثياباً فاخرة أبقى أن يلبسها ، ثم قبل أن يأخذ من صفرونيوس ثياباً يضعها ريثما يغسل ثوبه ، وأعادها إليه ثانية بعدما ارتدى ثوبه الأصلي. ومن ناحية أخرى ربط ثيوفانيس، بأسلوب النبوة، بين الفتوح الإسلامية وظهور علامة في السماء على شكل سيف زعم أنها كانت تتحرك من الجنوب صوب الشمال. وربما يكون مناسباً في هذه النقطة أن نورد نصاً لثيوفانيس كتبه عن حوادث سنة ٨٠٦م عن الحملة التي شنّها الخليفة العباسي هارون الرشيد ضد الإمبراطورية البيزنطية رداً على خطاب مهين تلقاه من الإمبراطور نقفوروس . وهذه الفقرة التي كتبها ثيوفانيس تكشف عن أنه كان يكتب بلغة التعايش مع الأمر الواقع ورصد أحداثه التاريخية ، فالنص يخلو من الأوصاف العدائية المعتادة في كتابات المؤرخين البيزنطيين آنذاك:

«... في هذه السنة نفسها قام أرون (هارون الرشيد) ، زعيم العرب ، بغزو البلاد الرومانية بقوات كبيرة ... وبنى بيتاً لعبادته المنحرفة (مسجداً) ، واستولى على قلعة هرقليا الحصينة جداً بعد فترة من الحصار... وأرسل نقفوروس الذي تملكه النصر أحد رجال الكنيسة إلى هارون الرشيد ... يطلب الصلح... ويعد مفاوضات كثيرة تم عقد الصلح

بشروط دفع جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف نوميسماتا للعرب ، وضريبة رأس قدرها ثلاث نوميسمات عن كل من الإمبراطور وابنه ... ولما قبلت هذه الشروط فرح هارون على نحو أكبر مما كان يمكن أن يحدث لو أخذ عشرة آلاف تالنت ، لأنه أخضع الإمبراطورية الرومانية...».

هنا تحدث ثيوفانيس بوصفه مؤرخاً يرقى مسجوح الرهيان ولكنه يسجل الحوادث التاريخية التي كان شاهد عيان عليها. ولكن المصادر البيزنطية التي تتحدث عن الفترة الباكورة من تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوة الإسلامية البازغة ، ولاسيما في عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) قليلة، وأكثرها كتبت في وقت لاحق وتلونت بلون العصر الذي كتبت فيه مثل ثيوفانيس وزاتوراس الذي كتب في القرن التاسع أيضا . وقد خلط زاتوراس خطأ كبيراً في رواية الأحداث التاريخية، كما أن العداء كان واضحاً فيما كتبه عن الإسلام والمسلمين، وقد زعم أن النبي عليه الصلاة والسلام قد تفاوض مع الإمبراطور هرقل لعقدة معاهدة تضمن حرية التجارة والترحال فيما بين شبه الجزيرة العربية والأراضي البيزنطية.

لقد اتسمت الكتابات البيزنطية بشكل عام ، في تناولها للإسلام وأحداث الفتوح الإسلامية بالعاطفية والانحياز ، كما أنه لا يمكن الاعتماد عليها في المعرفة الموضوعية لما حدث تاريخياً . صحيح أنها تزودنا ببعض المعلومات عن الانطباعات لدى أبناء النخبة البيزنطية عن الإسلام، ولكنها لا توفر لنا أي قدر من المعرفة بموقف عامة الناس من جماهير المدن أو

عامة الفلاحين ، أو حتى عامة جنود الجيوش البيزنطية ورأيهم فيما كان يجري أمامهم. ومن المؤلم أننا لانملك وسيلة أخرى غير الاستنباط والقياس لمعرفة ما يتعلق بمواقف الناس العاديين واتجاهاتهم . فقد كانوا، كما هو الحال دائماً، الأغلبية الصامتة التي لم يهتم المؤرخون الكنسيون، أو غيرهم ، بتسجيل مواقفها . وعلى العموم، كانت الكتابات البيزنطية تحمل رنة العداء والجهل التي ميزت مواقف رجال الكنيسة الذين كتبوها . بيد أن العالم الحقيقي، الذي لم يكتب عنه الرهبان والقساوسة، كان هاماً مختلفاً تحكمه الحقائق التاريخية على أرض الواقع لا التصورات والانحيازات التي حكمت رجال الكنيسة سواء في العظات التي ألقوها على مسامع رعاياهم ، أو في المراثى الشعرية التي كتبوها عن مدنهم وعالمهم الذي اختلف من الوجود. ويمكن لنا أن نتأكد من إيجابية هذا الاستنباط إذا ما فكرنا في أن الأسلمة والتعريب قد حققا نجاحاً سريعاً ومذهلاً ، وبقياً ، في غضون قرنين أو ثلاثة قرون، ولم تذكر المصادر التاريخية ، والمسيحية منها خاصة ، أن المسلمين قد ضغطوا على أبناء البلاد التي فتحوها لكي يعتنقوا الإسلام، أو أنهم حتى كانوا يشجعونهم على ذلك، وهو ما يعنى في التحليل الأخير أن الناس العاديين الذين عاشوا في العالم الحقيقي كانت لهم مواقف وآراء تختلف بالضرورة عن عالم كتابات رجال الكنيسة الذين كانوا يدافعون في هذه الكتابات عن مصالحهم ؛ بل كانوا يدافعون عن مبرر وجودهم. وقد تجلت هذه المواقف والآراء في إقبالهم على اعتناق الإسلام واتخاذ اللغة العربية لغة للفكر والأدب والعلم ، والحياة اليومية أيضاً .

(٣)

السُريان

أما المصادر السُريانية ، فكانت تحمل نغمة عدااء واضحة تجاه الإسلام والمسلمين. ولاغربة في هذا ؛ إذ كان مؤلفوها أيضاً من رجال الكنيسة ، وهي تشترك مع المصادر البيزنطية في طابعها العاطفي المتعصب وفي رؤية ظهور الإسلام والفتوح الإسلامية على أنها عقاب أنزله الرب بالنصارى من أبناء الطوائف الأخرى بسبب خطاياهم . وعلى الرغم من أن المصادر السريانية بشكل عام تحمل قدراً وافراً من المعلومات عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في ذلك الدور الباكر من تاريخها ، وأوضاع النصارى في المناطق التي خضعت للحكم العربي الإسلامي فإنها تحمل رؤية كنسية صارخة تشوش الكثير من ملامح الصورة. وفي رأى بعض الباحثين أن رجال الدين المسيحي من السُريان كانوا يتعمدون إخفاء حقيقة الإسلام عن رعاياهم. ولعل هذا يفسر لنا السبب في عدم إشارة أولئك الكتاب إلى أن الدين الإسلامي كان ديناً جديداً بالفعل، واكتفائهم بوصف المسلمين باعتبارهم أدوات غضب الرب الذي أنزله على أولئك الذين خالفوه .

وفي محاولة لتبرير ظهور الإسلام على هذا النحو لجأ أحد الكتاب من رجال الكنيسة السريانية إلى صيغة «النبوءة» المتعلقة بتهاية العالم (وهي صيغة انتشرت كثيراً في كتابات رجال الكنائس الشرقية استجابة لظهور

الإسلام وانتصار المسلمين) . وهذه النبوة كتبها مجهول انتحل اسم «ميثوديوس» أسقف الأوليمب الذي قتل سنة ٣١٢م ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون تقريباً؛ ولهذا تعرف باسم «نبوة ميثوديوس» المزيف . ومن المرجح أن يكون الراهب المجهول فى أثناء الجيلين اللذين تليا الفتوح الإسلامية، أى فى أواخر القرن السابع الميلادى، وقد كتبت النبوة أصلاً باللغة السريانية ، ثم ترجمت فى وقت لاحق إلى اليونانية واللاتينية؛ وهو ما يدل على أن هذه «النبوة» كانت تلقى رواجاً فى الأوساط الكنسية. وربما كان إفراطها فى التنكيل اللفظى والخيالى بالمسلمين وراء هذا الرواج.

ويدور نص هذه «النبوة» بأثر رجعى» حول أن نهاية العالم «سوف» تبدو قريبة عندما يظهر الإسماعيليون (العرب) الذين «سوف» يهزمون مملكة الروم. لقد كان مؤلف هذا النص يتحدث عما حدث فى القرن السابع الميلادى وكأته يتنبأ بها فى المستقبل ؛ ومن ثم كان غريباً أن يحكى ما حدث فى الماضى بلغة المستقبل، وعلى أية حال، كانت مثل هذه الكتابات التى تحمل شكل النبوة شائعة فى الأدب الدينى المسيحى الذى كُتبه الرهبان والقساوسة من أتباع الكنائس الشرقية . ولم تكن هذه الكتابات «تاريخية» بأى معنى من المعانى؛ ولكن قيمتها تتمثل فى أنها تعكس لنا وجهات نظر رجال الكنائس الشرقية ونوعية استجاباتهم تجاه ظهور الإسلام ونجاح المسلمين العسكرى والسياسى.

لقد كانت هذه النبوة المصطنعة تصف بخيال شرير ما تصور كاتبها المذعور أنه يمكن أن ينسبه إلى المسلمين من وحشية وضراوة ؛ ولما كانت حقائق التاريخ لاتسعهفه ، فقد لجأ إلى خياله السقيم:

« ... سيكون طريق تقدمهم من بحر إلى بحر ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال حتى صحراء يثرب . ستكون طريق فواجع وسيسير عليها المسنون رجالاً ونساء ، أفتياء وفقراء ، على حين يقاسى الجميع من الجوع والعطش ، ويرسفون فى القيود الثقيلة إلى المنطقة التى يصلون فيها على الموتى . لأن هذه هى العقوبات التى تحدث عنها الرسول ... هذا العقاب لن يحل بالبشر وحدهم ؛ وإنما سيطول أيضاً كافة ما هو على سطح الأرض - الرجال والنسوة والأطفال ، والحيوانات والناشية والطيور . وسوف يتعذب الناس بهذا العقاب - الأزواج وزوجاتهم وأطفالهم ، النباتات والمزروعات والممتلكات ؛ العجوز والضعيف ، والمريض والقوى ، والفقير والغنى لأن الرب سيمى جدّهم الأعلى اسماعيل «جشش البرية الوحشى» . وسوف تعاني الغزلان ، ومعها كل الحيوانات بالبرية ، أو فى الأرض المزروعة . وسوف يطول بالناس ظلم الاضطهاد ، وستموت الحيوانات الاليفة والبرية ، وسوف يحرق الدمار بأجمل نباتات الجبال ، وتضرب المسن الزاهرة . وتبقى الأقاليم خاوية موحشة لا يجتازها أحد : وسوف تلوث الأرض ، وتحرم من نتائجها .

«لأن هؤلاء الطغاة ليسوا رجالاً ، إنما هم أبناء الخراب ، فإنهم يتجهون إلى التدمير ، لأنهم مدمرون ... إنهم هم الدمار وسوف يتطلقون لتدمير كل شئ . فهم ملوثون بحبسون التلوث . ، وعند انطلاقهم من البرية سوف يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم لكى يضربوهم فى الأحجار ، كما لو كانوا حيوانات قنبرة ...

«وسوف يضحون بخدام الساحة المقدسة، بل إنهم سوف يضاجعون نساءهم وسباياهم داخل الساحة المقدسة، وسوف يأخذون الأودية المقدسة لأنفسهم ولبنيتهم ، وسوف يربطون ماشيتهم إلى توابيت الشهداء ، وقبور القديسين . إنهم سفاحون متفطرسون ، مخربون يسفكون الدماء : إنهم قادمون لكي يكونوا بوتقة الاختبار لكافة النصارى...» .

ثم تحدث النبوة المصطنعة عن الوفاء القادم، والمصاعب التي «سوف» تنجم عنه، والمتاعب التي «سوف» تتسبب فيها الضرائب بحيث «... يبيع الناس نحاسهم وحديدهم وأكفانهم...» ولكن النص يمضى ليقول إن الفرج سوف يأتي بصورة إجمالية عندما يهاجم ملك الروم الإسماعيليين، فتقلب الآية، ويأتي دور العرب في المعاناة. وهنا يمعن كاتب هذه النبوة في «التنبوء» بالمتاعب والشدائد التي سوف تحل بالعرب ، ويتلذذ وهو يتصور معاناتهم الخيالية ثم يقول إن ملك الروم سوف يترك عرشه ليعيش في بيت المقدس بعد أن يقوم أحد ملائكة الرب بتدمير المسلمين في لحظة واحدة. ثم يأتي المسيح لينهى وجود «ابن الهلاك» أو المسيح الدجال في فلسطين ... ثم تنتهي النبوة.

وإذا كنا قد عرضنا لهذه «النبوة» المصطنعة بالتفصيل ، فإن هدفنا أن نوضح أن كاتبها ، الذي يرجح أنه كان راهباً منعزلاً يعيش في ديره شمال الشام ، كان يعيش عالماً من اصطناع خياله الشرير بعيداً عن التاريخ ؛ ولم يكن يقادر على أن يكتب هذا العبث الواهي سوى في صيغة النبوة ليكتب ما يحلو له ، وليشتم ويسب ويفحش في القول على هذا النحو الفج. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين الغربيين يرى أن هذه

الكتابة ربما كانت تعكس صورت التصارى فى المناطق الخاضعة لحكم الدولة العربية الإسلامية، فإن الأدلة التاريخية المتوافرة تثبت أن صاحب هذا الخيال السقيم كان أسير دنياه الخاصة ، وعالمه الفكرى الضيق . وقد راعه ما حدث من انهيار لعالم المسيحية الشرقية بصفة عامة على المستوى العسكرى والسياسى والدينى، كما أصابه الذعر من فقدان مكانته ، واضطراره إلى دفع الضرائب مثل سائر الناس (على الرغم من أن الرهبان كانوا يعفون من دفع الجزية بشرط انقطاعهم فى أديرتهم بإجماع الفقهاء المسلمين) . ومن ناحية أخرى، ليست لدينا رواية واحدة تتحدث عن أن المسلمين فعلوا هذه الفظائع التى تحدث عنها هذا الراهب فى نبؤته ، أو شيئاً قريباً منها . لقد كان العكس هو الصحيح باستمرار. ونجمع المصادر على أن نصارى الشرق إجمالاً رأوا فى قدوم العرب نوعاً من الخلاص من الحكم البيزنطى الكريه، والتسلط الخلقدونى المقيت ، كما سنرى فى الصفحات القادمة . لقد كان «ثيودوسيوس المزيف» هذا يعيش فى دنياه الخاصة التى كانت تختلف بالضرورة عن دنيا الناس الحقيقية .

بيد أن هذا النص، يلقته الهيستيرية ، يعتبر فى الحقيقة خروجاً على النعمة المعتدلة نسبياً التى ميزت كتابات رجال الكنائس الشرقية عن الإسلام والمسلمين، فقد كانت المصادر السريانية ، التى كان كتابها من رجال الكنيسة كما أشرنا من قبل، تتخذ موقفاً معادياً من الإسلام والمسلمين بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن هيستيرية عنيفة على هذا النحو . وفى محاولة لتبرير ظهور الإسلام تحدثت بعض المصادر السريانية عن أن نجومًا ظهرت فى السماء تنذر بأن كارثة سوف تحل على العالم، وأن الرب

عاقب النصارى بظهور الإسلام لأنهم لم يلتزموا بدينهم وسادت بينهم شريعة الغاب حسيما يقول ميخائيل السرياني مثلاً ، وهو يطلق على الفاتحين إسم «العرب» ولا يسميهم «المسلمين» ؛ ربما في إشارة واضحة على عدم اعترافه هو وغيره من الكتاب السريان بأن المسلمين أصحاب دين جديد. ويؤكد الكتاب المسيحيون السريان عامة على أن العرب جُبلوا على الغيرة وحدة الطبع ويتهمونهم بالظلم والشراسة . ومن الطبيعي أن يركزوا في كتاباتهم على الحالات التي كان سلوك الخلفاء والولاة تجاه رعاياهم عنيفاً . وهو أمر لم يحدث سوى في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي في بعض الأماكن ونتيجة ظروف سياسية معينة على أية حال.

ولكن فيما يتعلق بالفتوح الإسلامية اهتمت المصادر السريانية عموماً بتسجيل الحوادث العنيفة التي تنجم عن الحروب عادة. وقد رجعت المعارك التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين وعلى الرغم من العداء المذهبي مع الكنيسة البيزنطية فإن الكتابات السريانية حرصت على أن تصور البيزنطيين في صورة المسالمين الذين يهاجمهم المسلمون ويشنون الحرب عليهم بهدف قتل النصارى، وسلب أموالهم، واسترقاقهم ، وحرق مزارعهم ... وما إلى ذلك. وكان طبيعياً ألا يحاول رجال الدين السريان في كتاباتهم بحث العلاقة السببية الموضوعية في الحوادث التاريخية . ولأن تقاليد الكتابة «التاريخية» المسيحية في ذلك الحين كانت قائمة على أساس أن الرب هو كاتب قصة الخليقة ؛ ومن ثم فهو يعرف بداية القصة ونهايتها فإن أولئك «المؤرخون» حاولوا قولبة الحوادث داخل السياق الإلهي لا

الفعاليات البشرية ؛ ولذلك ففسروا كل الحوادث فى ضوء فكرة الإرادة الريفانية . فانتصار المسلمين وانكسار المسيحيين «مشيئة الرب». والحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان عقاب من الرب أنزله عليهم جزاء ظلمهم للبشرية ، وانتهاكهم الحرمات.

بيد أن هذا الموقف الذى ميز كتابات المؤرخين السريان النين كتبوا فى فترة زمنية متأخرة ، مثل ميخائيل السريانى، بطريرك أنطاكية (٥٦٢هـ- ٥٩٣هـ / ١١٦٦-١١٩٦م) ، يوضح أنهم تأثروا بأجواء الحروب الصليبية وعكسوا مشاعرهم على ما سجلوه عن الأحداث التى كانت قد جرت قبل خمسة قرون من زمانهم ، فإن السريان الذين عاشوا زمن الفتوح الإسلامية أو قريباً منها كان لهم رأى آخر، وموقف آخر، بسبب عدائهم المذهبى لكنيسة الدولة البيزنطية. فهناك راهب سريانى اسمه «مار جبريل» مات سنة ٦٦٧م ، وكان مقدم الرهبان فى دير قرطمين بجبال طورابدين، جنوب شرق تركيا الحالية، قرب أعالي العراق (وما يزال هذا الدير القديم موجوداً ويحظى بتبجيل المسيحيين الشرقيين حتى يومنا هذا) . وقد كانت قرطمين أحد معاقل الأرثوذكس السريان الراقضين لمذهب الكنيسة البيزنطية التوفيقى مما عرضهم للاضطهاد والأذى . وكان «جبريل» هذا يرى أن الحكم الإسلامى فرصة بالنسبة لقومه ، وليس كارثة . ويحكى كاتب سيرته هذه الرواية:

«... فضل مار جبريل مجئ العرب على اضطهادات الروم؛ ولذلك قدم لهم العون وساعدهم . ثم ذهب بعد ذلك للقاء أميرهم فى الجزيرة (أعالي

العراق) ، فاستقبله بفرح كبير، وأكرمه كثيراً بسبب ما فعله لصالحهم وأعطاه مرسوماً وقعه بيده يأمر بتنفيذ كل ما طلبه. وفى هذا المرسوم منح السريان الأرثوذكس جميعاً حرية ممارسة عبادتهم وشعائهم فى كنائسهم- وطرق السمانترا (أى اللوح الخشبي الذى يُدق عليه فى الكنائس الشرقية لدعوة المسيحيين إلى الصلاة) ، واحتفالات المهرجان ، ومواكب الجنازة وبناء الكنائس والأديرة ، كما أعفى القساوسة والشمامسة والرهبان من الجزية ، على حين ثبت الجزية على الآخرين عند أربعة دراهم (وهو مبلغ زهيد) . وأصدر تعليماته إلى العرب بالحفاظ تماماً على أرواح السريان الأرثوذكس....».

هذا نجد تناقضاً صارخاً مع ما كتبه الراهب صاحب «النبوءة» المزيفة؛ فقد كتب مؤلف سيرة مار جبريل عما حدث بالفعل على حين تحدثت «النبوءة» عن تصورات لم تحدث سوى فى خيال مؤلفها . وربما كانت سيرة هذا الراهب السريانى دليلاً قوياً على أن السريان ساعدوا المسلمين فى فتح هذه المناطق ؛ وهو أمر ينكره بعض الباحثين الغربيين المحدثين مثلما رفض بتر ، فى كتابه عن «فتح العرب لمصر» أن يعترف بما قدمه أقباط مصر من مساعدات لجيش همرو بن العاص ضد البيزنطيين إنطلاقاً من حماسته الغربية لتبرئتهم من هذه «الخيانة» . وهو موقف يدعو إلى الدهشة حقاً بسبب جنوحه العاطفى من ناحية ، والرغبة فى الانتقام من التاريخ بأثر رجعى من ناحية أخرى.

وعلى أية حال، فإن هذه السيرة تكشف أيضاً عن أن المعاملة الطيبة التى لقيها أبناء البلاد المفتوحة من جانب الفاتحين المسلمين أفرزت نتائج

طبية على الصعيد العملى وربما كان تأثيرها أقوى فى أوساط العلمانيين، وعامة الناس الذين لم يكونوا واقعين تحت ضغوط الوظائف الدينية مثل القساوسة والرهبان، ومن ناحية ثانية، تشابهت مواقف رجال الكنيسة القسطنطينية مع مواقف السريان واتجاهاتهم إزاء المسلمين بسبب حال العداء المذهبى مع كنيسة بيزنطة، وما نتج عن هذا العداء من اضطهادات ومضايقات لهم. وقد جعلهم هذا يتخذون من الإسلام والمسلمين موقفاً مشابهاً لمواقف الكتائس الشرقية التى عانت من الاضطهادات البيزنطية.

ومع مرور الزمن أخذت المصادر السريانية تهتم بالسلوك السياسى للحكام المسلمين ، ونسبت إليهم تهماً كثيرة بمصادرة أموال الناس وضياعهم . وبلغت النظر أن الكتاب السريان تحدثوا عن عمليات الإحصاء التى قامت بها السلطات الإسلامية للنصارى وممتلكاتهم وربطت بين عمليات الإحصاء التى جرت فى أعالي العراق وجباية الجزية وغيرها من الضرائب ، وقد أكدت المصادر العربية هذا بدورها .

ومن البديهي أن الكتاب السريان الأرثوذكس لا يعترفون بنبوة النبى عليه الصلاة والسلام ، أو بحقيقة الدين الإسلامى ؛ ولذلك فإنها تسمى النبى والخلفاء الراشدين «ملوك العرب» وقد تحدثت هذه المصادر عن «عهد عمر» الذى أعطاه الخليفة العظيم للنصارى من أهل القدس، كما تحدثت عن تجديد عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموى، لهذه «الشروط العمرية». ومن المعلوم أن مثل هذه الشروط عادة ما تكون ذات لهجة قوية على الورق، متهافئة على مستوى التطبيق العملى فى الواقع اليومى.

وعلى مستوى الحياة الاجتماعية تشير بعض المصادر السريانية بقدر من التأكيد إلى أن المسلمين والنصارى فى منطقة الجزيرة بالعراق عاشوا بمعزل عن كل منهما الآخر وهو الأمر الذى ربما يكون قد حدث فى العقود الباكرة من الوجود الإسلامى ؛ ولكن تحول المسلمين إلى أغلبية فيما بعد يكذب الروايات التى كتبها رجال الكنيسة السريانية الذين كانوا يحرصون على عدم الاختلاط بين أتباع الديانتين . فقد كانت الكنيسة السريانية الأرثوذكسية تحرم على المرأة المسيحية الزواج من رجل مسلم وإلا وقعت تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى، كما حرمت هذه الكنيسة على أتباعها تناول أحوم أصحاب المسلمين. بيد أن هذا المنع كان نظرياً فى كثير من الأحيان، ولم يكن يطبق كثيراً على مستوى الممارسة الفعلية.

ومن ناحية أخرى ، كان الخلفاء هم الذين يعينون رؤساء الطوائف المسيحية فى البلاد الإسلامية بعد أن يتم انتخابهم على أيدي رعاياهم. فقد ذكر كل من ثيوفانيس وميخائيل السريانى وابن العبرى أن الخليفة الأموى مروان بن عبد الملك (١٢٧-١٣٢ هـ / ٧٤٤-٧٥٠ م) وافق على أن يقوم النصارى بانتخاب البطريرك الذى يرئسونه ، وعندما انتخبوا إيوانيس بطريركاً لنصارى الشرق (١٢٧-١٣٧ هـ / ٧٤٤-٧٥٤ م) وافق الخليفة الأموى على تعيينه، ثم كتب إلى ولاة الأمصار باحترام البطريرك الجديد وتبجيله .

وعلى الرغم من أن ميخائيل السريانى عاش زمن الحروب الصليبية، ويعتبر ما كتبه عنها من أهم مصادر لراستها ، فإنه كتب تاريخاً عاماً

بدأه منذ الخليقة حتى أحداث سنة ١١٩٢م / ٥٩٠هـ ، واعتمد على مصادر تاريخية أقدم زمنياً. وكان من رأيه أن ظهور الإسلام كان بداية إنقاذ النصارى أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتيين) من الاستبداد البيزنطى، وأن الرب عاقب البيزنطيين على خطاياهم وأثامهم بأذى المسلمين. وكان من رأى هذا البطريك أن التخریب والدمار الذى صاحب الفتوح الإسلامية أمر طبيعى يحدث فى كل حرب ، وبعد نهاية حروب الفتوح ، التى لم تستمر طويلاً ، عادت الأمور إلى مجرياتها العادية بل إنه يقول إن أحوال النصارى الاقتصادية انتعشت فى ظل الحرية الكاملة التى نعموا بها فى ظل الحكم الإسلامى:

«... لما رأى الرب شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فتهبوا الكنائس والأديرة التى تملكها فى كافة أراضيتهم ، وأنزلوا بنا العقاب دونما رحمة أو شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم على أيديهم. والحق أننا إذا كنا قد تحملنا بعض الخسارة بسبب انتزاع كنائسنا وإعطائها لأهل خلقدونية ، فقد بقيت تلك الكنائس بحوزتهم . ولما استسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدوها فى حوزتهم... ومع ذلك فإن التظلم من قسوة الروم وأذاهم وحقنهم وحماستهم العنيفة ضلنا ، بحيث نجد أنفسنا آمنين ، لم يكن مكسباً بسيطاً.....».

وتزودنا روايات ميخائيل السريانى بصورة واضحة عن ردود أفعال أتباع مذهب الطبيعة الواحدة فى القرن السابع الميلادى تجاه الفتوح الإسلامية . كما يحكى ، مثلاً ، قصة تكشف عن شماتة المسيحيين اليعاقبة

(المونوقيزيتيين) في الروم يعد هزيمتهم ؛ ومؤداها أن أخا هرقل المدعو «ثيودور» وعد أحد الرهيان البيزنطيين بأنه سوف يلاحق اليعاقبة بعد أن يقضى على الغزاة العرب، ويعد هزيمته المخجلة على أيدي العرب سخر منه جندي بيزنطي من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وقد سجل ميخائيل السرياني الكثير من جوانب العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة شمال الشام قرب مدينة أنطاكية (في تركيا الحالية) .

وكان هناك مؤرخ مسيحي يعقوبي آخر عاش بعد ميخائيل السرياني، هو ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) الذي عاش بعد قرن من الزمان تقريبا . وقد كتب هذا الرجل معظم ما كتبه بالسريانية، ومن بينها كتاب تاريخ عالمي مطول باللغة السريانية ، وطلب بعض وجهاء العرب أن ينقل إلى اللغة العربية كتاب التاريخ الذي ألفه بالسريانية. وقد اختصره في كتاب باللغة العربية بعنوان «تاريخ مختصر الدول»، وفيه الكثير مما لم يرد في التاريخ السرياني المطول، كما أنه حذف منه الانتقادات التي ساقها ضد الإسلام في الكتاب السرياني .

والاسم الكامل لهذا المؤرخ «جريجوريوس بن أهارون الملطى المعروف بابن العبري» وقد جاءت كتابته محايدة تماماً ، وعندما كتب عن النبي عليه الصلاة والسلام حرص على تفادي إثارة غضب الوجهاء الذين طلبوا منه تأليف الكتاب، وحرص على أن يبين أن نسبه يرتقى إلى «... اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذي ولدته له «هاجر» أمه «سارة» وزوجته ...» . وتحديث عن أنه لما كان صبيا يخرج مع قافلة الشام حدث «... لما نزلوا بصرى

خرج إليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته ، وجعل يتخلل القوم حتى انتهى إليه فلخذه بيده، وقال : سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر نكره في مشارق الأرض ومغاربها، فإتته حيث أقبل وعليه غمامة تظله ... ثم يواصل ، باختصار ، حكاية سيرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى وفاته.

ومن الواضح أن ابن العبري كتب ما يرضى للمسلمين ولم يكتب ما يؤمن به فعلاً ، بيد أن المصادر السريانية بصفة عامة اتخذت موقفاً معتدلاً من الإسلام والمسلمين بالقياس إلى مواقف المصادر البيزنطية؛ وربما كانت حقيقة أن السريان عاشوا غالباً تحت الحكم الإسلامي قد جعلت أمثال هؤلاء الكتاب يتحرزون لأنفسهم في كتاباتهم ، وربما كانت هذه الحقيقة نفسها قد أتاحت لهم أن يعيشوا تجربة مباشرة مع المسلمين بعيداً عن الإنحيازات المسبقة. ومن الواضح أن السريان لم يروا بأساً في استبدال سيد بسيد آخر ؛ لاسيما أنهم عانوا الكثير من بطش الروم بسبب الاختلاف المذهبي، وهو الأمر الذي يهم رجال الكنيسة السريانية الأرثوذكسية أكثر من أي أمر آخر.

وعلى العموم ، تبرز المصادر السريانية ، التي كتبها رجال الكنيسة، التاريخ بالأساطير وسير القديسين (الهاجيوجرافيا) وما تحمله من خيال وإنحيازات دينية، وليس في هذا ما يشير الدهشة لأن التدوين التاريخي السرياني في تلك الفترة جاء في أغلبه من خلفية كنسية ؛ إذ كان معظم الكتاب من الرهبان والقساوسة الذين كانت اهتماماتهم تنصب أولاً على

الدير، والعالم الذي يحيط بالدير ؛ من حيث مظاهر الطقس ، أو صعوبات الحياة في الريف من حيث تأثيرها على الحياة في داخل الدير، وفي الوقت نفسه اهتموا بالحروب ، وتنويع الملوك وحيلهم ، فضلاً عن اهتمامهم بالممارسات الدينية والأعياد التي يتم الاحتفال بها داخل الدير والشئون الكنسية، والمنافسات حول المناصب الكنسية ، والشرور التي يرتكبها الفاسدون، خاصة أتباع الكنائس الهرطقية.

وكانت هذه الخلفية التي تصورت منها الكتابات السريانية أن ظهور الإسلام عقاب أنزله الرب على النصارى كما كررنا من قبل؛ ولكن الكتابات السريانية لم تخل من الهجوم العنيف، أحياناً ، على الإسلام والمسلمين .

(٤)

النسطوريون

وهنا يجب أن نشير مرة أخرى إلى موقف الراهب النسطورى «يوحنا بارينكاى» الذى أشرنا إليه فى بداية هذه الدراسة؛ فقد فسر هذا الرجل انتصارات المسلمين على أنها غضب إلهى كما أشرنا من قبل:

«لايجوز لنا أن نفكر فى قنوم أولاد هاجر على أنه أمر عادى، وإنما هو نتيجة عمل الرب. قبل دعوتهم كان قد أعدهم مسبقاً لاحترام المسيحيين، وكان لديهم أمر من الرب فيما يتعلق بمركز الرهينة، يجب عليهم أن تكون نظرتهم إليه باحترام. أما الآن وقد جاء هؤلاء القوم بأمر الرب، واستولوا على كل من المملكتين على ما هو بين، لا بنى حرب ولا بنى معركة، بل بأسلوب بسيط، على نحو ما يحدث عندما تخرج خشبة من النار، دون استعمال أسلحة حرب أو أساليب بشرية، فقد وضع الرب النصر فى أيديهم على نحو يدل على أن ما جاء عنهم يمكن أن يكون أمراً مقتضياً أى : «إن رجلاً واحداً تعقب ألفاً واثنين هزما عشرة آلاف». وإلا، فكيف يمكن قوما عراة، يمتطون الخيول من دون سلاح أو ترس، أن يربحوا لولا العون الإلهى، إذ دعاهم الرب من أطراف العالم لكى يدمر على أيديهم، «مملكة شريرة» وليؤدى إلى القضاء، على أيديهم، على روح الفرس الرفيعة».

هذا الراهب النسطورى يرثى الامبراطورية الساسانية التى احتضنت طائفته بعد أن طردت السلطات البيزنطية الطائفة ومؤسسها قسطنطوس إلى العراق ؛ وهو لا يتحدث عن أخطاء أبناء الطوائف والمذاهب المسيحية الأخرى، ولا يشكر أن المسلمين جاءوا بدين جديد إلى البلاد التى فتحوها ؛ إنهم فى نظره مجرد أدوات يُنزل بها الرب عقابه : «... كانت جماعات اللصوص منهم تذهب سنويا إلى أماكن بعيدة وإلى الجزر ، ويعودون بأسرى من جميع الشعوب التى تغطيها السماء...» وهو لا يتحدث عن أحداث حقيقية ، أو يسرد تاريخاً ، أو يرصد أحداثاً ؛ إنه فقط يلقي إلينا برأيه فى المسلمين، «... يمكن أن نقص أختيار المجازر التى قاموا بها فى أرض اليونان، وفى كوش، وإسبانيا ، وسواها من المناطق القاصية ، حاملين معهم الأسرى من أبناء هؤلاء وبناتهم، وأخضعوهم للاسترقاق والعبودية . إن أولئك الذين لم يتورعوا عن مخاصمة خالقهم، أيام السلم والثراء، أرسل عليهم قوماً من البرابرة الذين لم تكن فى قلوبهم شفقة عليهم...»

ومرة أخرى يؤكد الراهب النسطورى على أنهم أدوات الرب فى الانتقام، ولكنه يزعم أنهم بلا دين ولا إله لهم «... وهكذا لما رأى الرب أنه لم يحدث أى تحسن ، وجه نحونا الملكة البربرية وأهلها الذين لا سبيل لهم لقبول أى معتقد ، والذين لا يعترفون بمعاهدة أو اتفاقية ، والذين لا يقبلون تملقاً أو مداينة ، والذين ترتاح نفوسهم إلى الدم الذى يراق نون سبب، والذين يرون السرور فى السيطرة على الجميع، والذين يرغبون فى إلقاء القبض على الأسرى وفى النفي. إن الضغينة والغضب غذاؤهم ، لا يرضون بما يقدم لهم...» هذه الآراء السوداء تعكس فكر راهب منعزل فى ديره بمنطقة جبلية، ولا تحمل أى معلومات تاريخية راسخة؛ وهو يكيل التهم

للمسلمين فيما يشبه الموعظة الكنسية دون أن يقيم عليها دليلاً واحداً .
ومن المدهش أنه مع هذا يقول إن المسلمين كانوا أيضاً خاضعين للغضب
الريانى بسبب خطاياهم التى ارتكبوها فانتقسمت مملكتهم إلى مملكتين
منعزلتين عقب قتل الخليفة عثمان بن عفان ، ثم مقتل على بن أبى طالب
سنة ٤٠ هجرية . ويلفت النظر أن هذا الراهب يمتدح معاوية بن أبى
سفيان (٦٦١-٦٨٠م) مؤسس الخلافة الأموية، فيقول عن فترة حكمه : «...
انتشر الإسلام فى ربوع الدنيا ، بحيث أننا لم نسمع إطلاقاً ، سواء من
أبائنا أو من أجداننا ، عن مثل هذا السلام، ولم نر له مثيلاً...».

ولم تنم هذه الحال السعيدة طبعاً لأن الكنيسة تحولت مرة أخرى، فى
هذا الجو من السلام والازدهار، إلى الاتحلال الأخلاقى والهرطقة حسبما
يزعم الراهب النسطورى . ومرة ثانية استخدم الرب المسلمين لمعاوية
النصارى جزاء هذا ما اقترفوه من أثام ، فنشبت الحرب الأهلية الثانية
الدمرة سنة ٦٨٢م ، بعد وفاة يزيد بن معاوية . وبهذه الأحداث أنهى يوحنا
برينكاى تاريخه عن العالم . فقد مات بعد ذلك بقليل . ولم يذكر هذا
الراهب الذى عاصر أحداث نصف القرن الأول بعد ظهور الإسلام شيئاً
عن علاقات مباشرة مع المسلمين ، ومن الواضح أنه لم تكن له أية صلة
مباشرة بهم، وأنه كتب ما كتبه عنهم اعتماداً على ما سمعه وعلى التراث
الشفوى الذى كان متداولاً عن أحداث الفتوح الإسلامية فى الأوساط التى
ينتمى إليها . ولكن موقفه الإيجابى من الخليفة الأموى «معاوية بن أبى
سفيان» (٦٦١-٦٨٠م) يثير الدهشة والحيرة معاً . وعلى أية حال ، فإن ما
كتبه الراهب النسطورى الذى كتب فى تسعينيات القرن السابع الميلادى
جاء متناقضاً مع الكتابات المسيحية الشرقية بوجه عام .

(٥)

الأرمن

وقد أسهم الأرمن بدورهم فى الكتابة عن الفتوح الإسلامية ، ولكن ما وصلنا من هذه الكتابات لم يكن ليخرج عن السياق العام لكتابات رجال الكنائس الشرقية ؛ فقد نسب المؤرخ الأرمنى سيبيوس الذى عاش فى القرن السابع الميلادى ظهور الإسلام إلى نبوءات دانيال التى وردت فى العهد القديم لتنبأ بنهاية العالم :

«... ولكن من ذا الذى يستطيع وصف الرعب الذى سببته هجمات الإسماعيليين التى طغت على البر والبحر؟ إن دانيال السعيد وعى ذلك، وتنبأ بشرور تشبه تلك التى سوف تقع على الأرض، كانت الحيوانات الأربعة عنده رموزا للممالك الأربع التى ستظهر على سطح البسيطة . أولا الحيوان ذو الهيئة البشرية للمملكة الغربية ، التى هى مملكة اليونان [الإمبراطورية البيزنطية] . وهذا واضح من قوله : «لقد سقطت أجنحتها وأمحت من وجه الأرض» . وهنا هو الحيوان الثانى الذى يشبه الدب . وقد نُصب على وجهة واحدة ، الجهة الشرقية . هذا يدل على العرب . «وشمة ماله ثلاث وجهات لفمه» ؛ المقصود مملكة الفرس والميديين والبارثيين . هذا واضح لأنه يقال له فى الحقيقة : «انهض التهم بضعة أجسام» . إضافة إلى ذلك ، فإن العالم يعرف أنه التهمها على نحو بلغ من الدقة الغاية . والحيوان الثالث ، على هيئة فهد وعليه أجنحة طائر وأربعة رؤوس حيوان .

«هذا يعنى مملكة الشمال ياجوج وماجوج وزميليتهما اللذين أعطيا قوة الطيران بقوة من الجهة الشمالية». «والحيوان الرابع مربع ، مخيف ، أسنانه من الحديد ومخالبه من البرونز؛ أكل وطحن بأسنانه، وداس ما تبقى بأقدامه». إنه يقول : «إن مملكته الرابعة التى ترتفع من الجنوب الشرقى هى مملكة اسماعيل . وكما أوضح كبير الملائكة: «إن حيوان المملكة الرابعة سيقوم، وسيكون أكبر قسوة من كل الممالك، وسيأكل العالم كله . إن قروته العشرة تمثل الملوك العشرة الذين سيحكمون ، وبعدهم سيقوم آخر يتجاوز فى شره كل الذين سبقوه...»

لقد جعل سيببوس المسلمين الوحش الرابع فى نبوءة دانيال، أى المملكة التى سوف تقضى على جميع الممالك السابقة . ومن المناسب أن تشير إلى أن رؤيا دانيال، أو نبوءته ، التى تتحدث عن نهاية العالم تتحدث عن أربعة وحوش مخيفة أربعة تخرج من مياه البحر ، ولكن رابع تلك الوحوش الخرافية هو الأقوى بحيث يلتهم الثلاثة الآخرين ، ثم ينمو فى رأسه عشرة قرون، وي بعدها يظهر قرن حادى عشر قضى عليها وفاقها ؛ ولكن «القديم الأيام» ، أى الرب، يأمر بتدمير هذا الوحش بالنيران فى النهاية. وقد حاول مفسرو سفر الرؤيا مماهاة الوحوش الأربعة بتلك الممالك التى عاصرها اليهود؛ ولكن سيببوس هنا يفسر «رؤيا دانيال» تفسيراً مسيحياً يناسب الظروف التى عاصرها فى القرن السابع أثناء حركة الفتوح الإسلامية الأولى. وقد أظهر هذا الأسقف الأرمنى شماته واضحة فى سقوط البيزنطيين على اعتبار أن ذلك هو «... القضاء على الفسق الشيطاني».

ومن الواضح أننا هنا لانقرأ تاريخاً ، وإنما نستمع إلى عظة تليق
 بأسقف أرثوذكسى حائز على بيرنطة ، مرعوب من المسلمين . وهو يفسر
 الأحداث في ضوء رؤيا دانيال على اعتبار أن ما حدث من تدبير الرب .
 وقد كان ذلك الأسقف الأرمنى يستقى معلوماته من الجنود الأرمن الذين
 حاربوا فى صفوف القوات البيزنطية ثم عادوا إلى ديارهم . وهو أيضاً
 يرى ، مثل سائر رجال الكنائس الشرقية أن المسلمين هم بنو اسماعيل ،
 ولايفرق بين الدين والعرق . وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام بأنه
 تاجر ، ونكر أنه عارف بالعهد القديم فى الكتاب المقدس وبشريعة التوراة ،
 ويقول إنه علم شعبه الإيمان بإله ابراهيم الواحد .

ومن ناحية أخرى ، ذكر سيببوس أيضاً رواية تقول إن المسلمين طلبوا
 قبل أن يبدأوا فتح فلسطين وما جاورها من الامبراطور هرقل أن يتنازل
 عن هذه الأرض بقولهم : «إن الله وهب هذه الأرض إلى أبينا ابراهيم ،
 ولنسله من بعده ، نحن أبناء ابراهيم ، لقد تملكتم بلادنا بما فيه الكفاية ،
 اتركوها لنا سلماً ، ونحن لن نهاجم أرضكم . وإلاً ، فإننا سنسترد منكم
 ما استولىتم عليه بفائدة ياهضة» . وزعم سيببوس أن الامبراطور البيزنطى
 رد بقوله : «إن البلاد يلاذى ، وما ورثتموه فهو الصحراء ، إذهبوا بسلام
 إلى بلادكم» .

هذه الرواية التى تحمل فى ثناياها لوماً ظاهراً للإمبراطور هرقل لأنه
 تسبب فى الحرب وما سببته من مصاعب لم يرد لها ذكر فى المصادر
 العربية ، وربما كانت نوعاً من التخريف للرواية العربية عن الرسالة التى

أرسلها النبي عليه الصلاة والسلام لدعوة هرقل إلى الإسلام ؛ وهو الأمر الذي يبدو أكثر اتساقاً مع الأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الأثناء .

وربما كان ذلك الأسقف الأرمني معبراً عن تيار عام مشترك بين رجال الكنائس الشرقية الأرثوذكسية يلوم البيزنطيين على مستويين : أولهما ، باعتبارهم من أنصار المذهب الخلقدونى الكريه بالنسبة لأتباع هذه الكنائس باعتباره هرطقة وفساداً عقيدياً ؛ مما تسبب في غضب الرب ومعاقبتهم بالمسلمين ؛ وثانيهما ، عدم الاستجابة لطالب المسلمين السلمية دون القدرة على قتالهم مما تسبب في غضبهم وشن الحرب .

(٦)

الأقباط

وإذا كانت المصادر البيزنطية والسريانية والنسطورية والأرمنية، قد عكست العلاقات المتوترة بين البيزنطيين وأتباع بقية الكنائس الشرقية من جهة ، وإذا كان معظم كتابها قد كتبوا عن المسلمين بلهجة معتدلة نسبياً من جهة أخرى؛ فإن الكثير منهم رأوا في المسلمين حكماً أفضل كثيراً من الروم . ومن المثير أن أحد رجال الكنيسة الشرقية ، ممن كتبوا باللغة العربية ؛ وهو سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيسا الذي عاش في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي قدم رواية متكاملة البناء عن فتح مدينة القدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب . وهو يحكى عن أن صفرونيوس رحب بالخليفة الذي أمّن نصارى القدس، وعندما حان وقت الصلاة اقترح عليه البطريق أن يصلى فى كنيسة القيامة لكن الخليفة رفض قائلاً إنه لو فعل هذا لاتخذها المسلمون مسجداً وسيخسرها المسيحيون . والكاتب هنا ، وهو أيضاً من رجال الدين المسيحي، يرسم صورة إيجابية تماماً للمسلمين.

وربما يجدر بنا أن نتأمل ما كتبه رجل كنيسة آخر عاصر أحداث الفتح الإسلامى لمصر وكان من شهود العيان . فقد كان «يوحنا النقيوسى» أسقف مدينة نقيوس (بالقرب من مدينة بسيون فى محافظة الغربية بمصر

حاليا) ، وقد لعب هذا الرجل دوراً مهماً في شئون الكنيسة المصرية ، كما أنه عاصر عدداً من الولاة المسلمين على مصر ، وكان آخرهم عبد العزيز بن مروان (٦٥ / ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) وعاش حتى بداية القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري . ويرى بعض الباحثين أن يوحنا النقيوسي كان أحد أهم إثنين من أساقفة مصر آنذاك.

ولكن ما كتبه يوحنا النقيوسي يمثل أهمية خاصة فيما يتعلق بآراء المسيحيين في مصر عن الفتح الإسلامي، وموقفهم من المسلمين . ومع تحفظنا الواجب تجاه هذا الأسقف فإن ما كتبه يبدو غامضاً حافلاً بالتناقض عند النظرة الأولى! فهو يدين قسوة المسلمين وغلظتهم، ويتحدث تارة أخرى عن أمانتهم واستقامة عمرو بن العاص، على حين يكيل لهم الشتائم ، دونما مبرر أحيانا . ولكن هذا الغموض والتناقض يتبدد إذ ما عرفنا أن مترجم النص الحبشي لكتاب يوحنا النقيوسي - وهو النص الوحيد الذي وصلنا - قد أباح لنفسه أن يعيث بالنص وأن يحمله مشاعره الدينية المتعصبة حسبما يرى أحد المتخصصين الذي ترجم النص الحبشي إلى العربية.

ففي أول ذكر للمسلمين في النص نكتشف أن الجزء الخاص ببداية قدوم المسلمين مفقود ، كما أن النص مرتبك ومشوش ، ويحمل أوصافاً وتهمًا قاسية :

«... ثم أعدوا بعض الفرسان ومجموعة من الجنود وساروا لحرب المسلمين، وفي ظنهم أنهم يمنعون المسلمين، ثم سار المسلمون إلى الصحراء ، وأخذوا الكثير من الخراف والماعز من الجبل . ولم يعرف أهل

مصر هذا ... وسمع تاوديسيوس الحاكم بقدوم الإسماعيليين وكان يسير من مكان لآخر ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. ثم جاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وجميع من معه دون رحمة، وفي الحال فتحوا المدينة. وكل من جاء إليهم قتلوه، ولم يرحموا أحداً ؛ شيخاً كان أو طفلاً أو امرأة...»

وقدت كررت هذه التهم بالوحشية وعدم التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين في عدة مواضع أخرى من الكتاب، ولكنه ينسب ما حدث إلى سياسة هرقل ، وواليه الخلقدونى ، كيروس المكروه من المصريين:

«... وعندما رأى المسلمون متاعب الروم، والكراهية التي تحيط بهم بسبب الملك هرقل وما أحدثه من اضطهاد وتقى في مصر كلها للعقيدة الحقّة على يدى كيروس البابا الخلقدونى ، تقووا وتشددوا في الحرب ...» ، «... وكان كيروس البابا قد سلب الكثير من متاع الكنائس أيام الاضطهاد... ولكن الرب الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين لأنهم تجرؤوا عليه ، وردهم إلى الإسماعيليين الذين استولوا على مصر كلها . وبعد موت هرقل ، عاد كيروس (فى عهد ابته) دون أن يتخلى عن الغضب واضطهاد شعب الرب؛ بل كان يزداد سوءاً...».

لقد كان هرقل وكيروس هما مصر الغضب الإلهى بسبب ما اقترفوه من اضطهاد بحق الكنيسة المصرية، ويتحمل كيروس (الذى تسميه المصادر التاريخية العربية المقوقس) دور الشرير فى القصة . فقد كان وقوع الروم فى قبضة المسلمين، الذين يسميهم «الإسماعيليين» عقاباً عادلاً من الرب . وهو يؤكد على هذا الموقف مرة أخرى:

«.... وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابلين، وحاصر الجنود (الروم) الذين كانوا به ... ثم أعطاهم الأمان، على أن يتركوا كل أدوات الحرب، وهي كثيرة . ثم أمرهم بالخروج من الحصن ... وبهذا تسلم حصن بابلين في مصر في اليوم الثاني من عيد القيامة . وعاقبهم الرب لأنهم لم يمجّدوا إلام الخلاص التي عاناها سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة للمؤمنين به ... وفي يوم عيد القيامة المجيد هذا أطلق (المسلمون) سراح المسجونين الأرثوذكس ، ولم يتركوا أعداء المسيح هؤلاء دون أنى، بل أساعوا إليهم وقطعوا أيديهم ... فإنهم لو ثابروا الكنيسة بالعقيدة النجسة وارتكبوا إلقاء الطائفة الأريوسية وعصيانها ... وهو الرب الذي يجازى المسيح، كلاً يمثل عمله ، ويقضى بالدينونة على الظالم...»

ويمضى يوحنا النقيوس ليتحدث عن نهاية «الانقسام الذي كان بمصر وبإسكندرية في أيام هرقل ملك الخلقونيين...» وعن عودة بنيامين بطريك الأقباط الظافرة بعد أن استدعاه عمرو بن العاص وأمنه فخرج من مخبئه:

«.. نخل الأنبا بنيامين بطريك المصريين مدينة إسكندرية بعد هروبه من الروم في السنة الثالثة عشرة، وسار إلى كنائسه وزارها كلها، وكان الناس جميعاً يقولون : هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم الملك هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس على يدى البابا كيروس، وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون مصر...».

هنا يتفق يوحنا النقيوس مع بقية المصادر المسيحية الشرقية في

تفسير انتصار المسلمين على أنه غضب من الرب نتج عن ظلم هرقل وممارسات كنيسة بيزنطة ضد الكنائس المحلية؛ ولكنه من ناحية أخرى يعثد عمرو بن العاص :

«... وكان عمرو يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددوها ولم يأخذ من أموال الكنائس شيئاً، ولم يرتكب خطأ، سلباً أو ونهباً، وحافظ عليها طوال الأيام...»

ويلفت النظر هنا أن يوحنا لم يحاول الحديث عن الدين الإسلامى أو عن حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، وربما كان ذلك فى الجزء المفقود عن الترجمة الحبشية لنص النقيوسى. وعلى الرغم من تناقض النص بسبب عيب المترجم الحبشى فيما يبدو ؛ فإنه أشار إلى تعاون القبط النصارى مع الفاتحين المسلمين، كما أنه تحدث عن «... المصريين الذين كانوا قد ارتدوا عن المسيحية واعتنقوا ديانة الوحش ...» وذكر أن الموظفين المحليين عملوا فى خدمة الحكم الإسلامى.

وهناك مصدر قبطى مسيحى آخر مهم يحدثنا عن ردود الفعل الأولى تجاه الفتح الإسلامى لمصر على الرغم من أنه كتب فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى؛ وهو كتاب «تاريخ بطاركة كنيسة الاسكندرية» الذى ألفه ساويرس بن المقفع لیتضمن سير عدد من آباء الكنيسة القبطية حتى زمنه . وقد أوضح المؤلف أنه اعتمد فى التراجم التى يضمها كتابه على مصادر يونانية وقبطية قديمة ؛ وربما اعتمد فى كتابه سيرة البطريرك بنيامين (٦٢٢-٦٦١م) على مصادر ترجع إلى القرن السابع الميلادى.

وسيرة بنيامين ذات أهمية خاصة بالنسبة لموضوع هذه الدراسة لأنها تتناول قصة اللقاء بين المسلمين والتصارى المصريين من وجهة نظر الكنيسة المصرية.

وكان بنيامين قد تولى منصب البطريركية في مصر إبان الاحتلال الفارسي. وعندما صار هرقل إمبراطورا على بيزنطة، ونجح في إخراج الفرس عن كيروس (المقوقس) واليا . وقد أدى تعيين هذا الخلق دوني الصارم إلى هرب بنيامين بعد أن حذره ملاك الرب حسبا يقول ساويرس، ورتب أمور الكنيسة، وكتب إلى جميع الأساقفة يأمرهم بالاختباء ، ثم اختبأ هو نفسه في أحد الأنيرة المجهولة في صعيد مصر .

ويظهر كيروس باعتباره الشرير الحقيقي في القصة ؛ لأن عدداً من الأساقفة الذين لم يعملوا بنصيحة بنيامين وقعوا في يديه مثل السمك في شبكة الصياد. وكان كيروس هذا من منطقة «القوقاز» (وربما يكون لهذه الحقيقة علاقة باسم المقوقس الذي أطلقه عليه العرب ، فإن اسم المنطقة التي جاء منها في النطق اليوناني Caucasus وربما حرف العرب الاسم بقلب الكاف قافاً على مادتهم في نسبة الأشخاص إلى بلادهم) . وقد تم تعيينه بطريرك لكنيسة الاسكندرية ووالياً مدنياً على مصر في الوقت نفسه. وحاول فرض المذهب التوفيقي (المونوثيليتي) الذي وضعه الامبراطور بالقوة ، وقاومه المصريون بعنف على الرغم من الاضطهادات الوحشية المنظمة التي كان أحد ضحاياها «ميتا» شقيق بنيامين. وقيل إن الاضطهادات استمرت على مدى عشر سنوات ، وعلى الرغم من أننا لا نعرف مقدار الحقيقة في روايات المصائر الكنسية القبطية ، فإن رواياتها

تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة الراسخة تجاه السلطات البيزنطية . ويقول ساويرس إن الذين عينهم هرقل لحكم مصر تصرفوا مثل الذئاب المفترسة.

ويتحدث عن المسلمين بلهجة معتدلة تكاد تكون محايدة : فيقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أعاد من كانوا يعبدون الأصنام إلى معرفة «الله وحده» ، بل إنه قال إن محمداً رسول الله، وقال إن أمته تمارس الختان وتصلى باتجاه الجنوب صوب المكان الذي يسمونه الكعبة.

وهو مثل سائر الكتاب المسيحيين في المناطق التي كانت خاضعة للحكم البيزنطى وتعانى من العداء المذهبى يرى أن انتصارات المسلمين كانت عقاباً من الرب بسبب فساد البيزنطيين ديتيا؛ فقد تخلى الرب عن جيش الرومان بسبب فسادهم واعتناقهم لمراسيم مجمع خلقدونية.

ويتسم حديث ساويرس عن الغزو العربى بالاختصار والواقعية؛ فهو يصف المعاهدة التي وقعها المسلمون مع المصريين بأنها تتوافق مع نوع المعاهدة التي كان محمد «رئيس العرب» قد أوصاهم بعقدها، والتي تقضى بعدم المساس بأية مدينة توافق على دفع الجزية ولكن المدن التي ترفض يتم نهبها وأسر رجالها. ويقول إن المسلمين كفوا أيديهم عن البلاد وسكانها ولكنهم سمروا أمة الروم.

وأهم النتائج التي نجمت عن الفتح الإسلامى، من وجهة نظر ساويرس بن المقفع ، هى عودة بنيامين الظافرة إلى الإسكندرية . وكان أحد أعيان القبط وإسمه سنانوثيوس قد جاء إلى عمرو بن العاص ، بعد فتح الإسكندرية، وأخبره بأمر بنيامين بطريق الأقباط الهارب «... وكتب عمرو

إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه: «الموضع الذى يكون فيه بنيامين بطرك
النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر أمناً مطمئناً،
ويسير حال بيعته، وسياسة طائفته، فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد
إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر سنة منها عشرة سنين
لهرقل الرومى الكافر، وثلاثة سنين قبل أن يفتحوا المسلمين
الاسكندرية...».

هنا تبدى كراهية البيزنطيين واضحة صارخة فى عبارة «هرقل الرومى
الكافر»، وهى عبارة لم يستخدمها ساويرس أبداً فى وصف المسلمين. لقد
كان قدوم المسلمين بالنسبة لكاتب سيرة بنيامين فجراً جديداً لبطله،
والحقيقة أنه لا يذكر أبداً أن ما حدث كان أمراً طيباً فى عبارات صريحة،
ولكن الواضح أن الأمور كانت بمثابة راحة عظيمة بعد نهاية حكم كيروس
الذى تزعم رواية ساويرس أنه انتحر وتجرع السم من خاتمه (وهو ما لم
يحدث لأن الرجل مات لأسباب طبيعية). ومن ناحية أخرى، فإن ما كتبه
ساويرس بن المقفع يشير بوضوح إلى الروابط الوثيقة بين النخبة المسلمة
والنخبة القبطية من خلال تأكيدهم على العلاقات الطيبة التى كانت تجمع بين
عمرو بن العاص، وبنيامين، وسانوتقيوس الذى لعب دور الوساطة بين
الاثنتين.

كانت آخر أعمال بنيامين تكريس كنيسة الأنبا مقاريوس فى الصحراء
فعندما جاء جماعة من الرهبان إلى الاسكندرية لهذا الغرض، قال: «...
فمجدت السيد المسيح الذى جعلنى مستحق دفعة أخرى أن أنظر هذه
البرية الجليلة وهؤلاء الآباء والأخوة القديسين وإظهار الأمانة الأرثوذكسية
وخلصنى من اضطهاد المخالفين...».

(٧)

خاتمة

لقد كان من الطبيعي أن تتفاوت ردود فعل رجال الكنيسة في المناطق التي فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي على النحو الذي اتضح في الصفحات السابقة ، وكان طبيعياً أيضاً أن تكون مواقفهم نتيجة الجهل بحقيقة الدين الإسلامي، أحياناً، وبرغبتهم في تشويه حقائقه أمام رعاياهم أحياناً أخرى، أو تتلون بحسب مواقفهم من الإمبراطورية البيزنطية أحياناً ثالثة . ويلفت النظر أنهم جميعاً رأوا في قدوم المسلمين عقاباً من الرب جزاء خطايا أصحاب المذاهب المسيحية المخالفة . وقد كان الذين يكتبون من داخل الأراضي البيزنطية أعنف من أولئك الذين كانوا تحت الحكم الإسلامي، باستثناء يوحنا النقيوسي.

ولكن من المهم أن نشير إلى أن هذه الكتابات كانت في التحليل الأخير تعبيراً عن آراء رجال الكنيسة الذين عاشوا بالضرورة في عالم فكري ونفسي منفصل عن العالم الذي كان يعيش فيه عامة الناس. وإذا كانت المصادر التاريخية لم تحفظ لنا ما يساعدنا على فهم هذا العالم الحقيقي، فإن حقائق الأحداث التاريخية قد تشي بما حدث فعلاً ، فقد استغرقت حركة الفتوح الإسلامية في مصر والشام عقداً من الزمان ، وبعدها صارت المنطقة بأسرها مركز العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على

أربعة عشر قرناً . وفى غضون قرنين أو أكثر قليلاً كان المسلمون قد صاروا غالبية السكان دون أن تكون هناك سياسة لفرض الإسلام بالقوة . وهذه كلها دلائل على أن مواقف العلمانيين من عامة الناس كانت تختلف تماماً عن مواقف من كتبوا المصائر التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الكتابات على الرغم من انحصارها قد أوضحت بعض الحقائق بطريقة غير مباشرة ؛ مثل مساعدة السكان المحليين للمسلمين ، واعتناق بعضهم الإسلام فى السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامى بعد الفتح الإسلامى . وهناك مؤشرات على أن المسيحيين المونوفيزيتيين فى مصر وبلاد الشام كان لديهم بالتأكيد ما يجعلهم يكرهون السلطات البيزنطية وعلى أنهم ساعدوا الفاتحين المسلمين بالفعل. ومن ناحية أخرى، كانت عداوة المسيحيين فى هذه البلاد تجاه الطوائف المسيحية الأخرى أقسى وأشدّ وقعاً من عداوتهم تجاه المسلمين .

لقد كانت شروط الاستسلام السهلة نسبياً ، والتى ميزت الفتوح الإسلامية السلمية من أهم أسباب نجاح حركة الفتوح الإسلامية ؛ فقد كانت تحفظ لأبناء المناطق المفتوحة أرواحهم وممتلكاتهم ، والحقائق المرتبطة بحرية العقيدة وملكية الكنائس مقابل دفع الجزية والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين على نحو ما جاء فى عهد عمر بن الخطاب لنصارى القدس، وكانت الضرائب فى الفترة الأولى بعد الفتح أقل من تلك التى كان البيزنطيون أو الساسانيون يفرضونها سابقاً على سكان البلاد نفسها .

واستقر العرب بسرعة في المناطق التي فتحوها ؛ ولكنهم كانوا دائماً منفصلين عن السكان المحليين بشكل يكاد يكون تاماً في بداية الأمر. فقد تركزوا في ثلاث مدن جديدة في العراق ؛ هي الكوفة والبصرة والموصل . واستقروا في الفسطاط بمصر أولاً قبل أن ينتشروا بعد استقرار الأحوال، وتم بناء مدينة القيروان الجديدة لتكون مركزاً لهم في شمال أفريقيا ؛ أما في بلاد الشام فإن المسلمين لم يبنوا مدناً جديدة ولكنهم اتجهوا للسكن في ضواحي المدن القديمة؛ مثل قنسرين وحلب . بيد أن الوضع لم يلبث أن تغير بمضي الزمن ؛ فقد زاد عدد المتحولين إلى الإسلام من السكان المحليين كما زاد عدد العرب الذين جاءوا للاستقرار في هذه البلاد ، وكان لابد من الاختلاط والامتزاج الذي أدى إلى التفاعل بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية من جهة ، والموروث الثقافي لأبناء البلاد المفتوحة من جهة ثانية . ولم يمارس الفاتحون المسلمون ضغوطاً على أبناء هذه البلاد لكي يعتنقوا الإسلام . ولكن اعتناق الإسلام كان يوفر العديد من الفرص الطيبة للانضمام إلى الطبقة الحاكمة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس المحلية التي باتت تحت سلطانهم .

وفي أثناء القرن الأول بعد الفتح الإسلامية كانت أراضى الدولة الإسلامية مجتمعاً مفتوحاً بحق. وكانت النخبة في هذا المجتمع من المسلمين ومن غير المسلمين العاملين في الجهاز المالي والإدارى للدولة. وكانت عضوية هذه النخبة تتعزز بإعتناق الإسلام الذي هو دين لكل

البشر. ولم تكن عضوية النخبة حصرية وقاصرة على فئة معينة مثلما كانت قاصرة على أبناء الأرستقراطية البيزنطية والفارسية، ولم تكن وضعا طبقيًا ممتازًا يدافع عنه من يتحتعون به ، وإنما كانت حقًا لكل من يعتنق الإسلام ويتفوق في مجاله، فباعثاق الدين الإسلامي كان يوسع المخلوبين من أبناء البلاد المفتوحة أن يصيروا من الفاتحين ، ومن الناحية النظرية على الأقل كانوا مساوين لغيرهم من المسلمين .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك عدة جوانب في الإسلام جعلت التعامل معه ممكنًا بالنسبة للنصارى ؛ فقد كان له نبي، وكتاب مقدس، وله أشكال راسخة في الصلاة، والصوم، والحج ؛ كما كانت قوانين الأسرة والموارث واضحة . وكان الإسلام يعترف بالأنبياء السابقين جميعًا، ومنهم عيسى بن مريم عليه السلام . كما كان يحترمهم جميعًا ويبجل السيدة مريم العذراء . ومنذ البداية كان الإسلام باعتباره دينًا جاء لكي يكمل الديانات التوحيدية السابقة، لا لكي يدمرها . ولاشك في أن هذا التراث المشترك قد ساعد النصارى على اعتناق الإسلام. ومن جوانب عديدة كان نجاح الحكم الإسلامي نتيجة للسياسة التي اتبعها المسلمون تجاه المخلوبين ؛ فقد كان من الأفضل دائمًا عقد الصلح والاستسلام بدلاً من الحرب والقتال. وهو الأمر الذي أدى إلى بناء أساس سلمي للعلاقات بين الجانبين . ولم يكن ممكنًا أن تجرى عملية الأسلمة والتعريب التي حدثت على مدى القرنين أو القرون الثلاثة التالية لو لم يكن الفتح قد نجح على المستوى العسكري والسياسي أولاً.

والحقيقة القائلة بأن الأسلمة والتعريب كانت عملية تدريجية وسلمية تماماً نتيجة أن مزيداً من الناس أرادوا الاندماج فى الكيان الحضارى الذى يعيشون فى رحابه ، كما أرادوا أن يسهموا فى الثقافة السائدة فى عصرهم ويشاركوا فيها .

ومن ناحية أخرى، فإننا ربما لانبالغ إذا قلنا إن الحكم الإسلامى هو الذى أُنقذ هذه الكنائس الأرثوذكسية من الاضطهاد والعداء البيزنطى ، وضمن بقاها حتى وقتنا الحالى؛ وهى حقيقة ربما تتناقض ظاهرياً مع حقيقة أخرى مؤداها أن عدداً كبيراً من أتباع هذه الكنائس الأرثوذكسية تخلوا عن كنائسهم واعتنقوا الإسلام لأسباب متعددة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات طيبة وتاجحة مع الكنائس المحلية التى سخلت تحت سلطانهم. وكان الأساس الشرعى لهذه العلاقات قائماً على اعتبار أنهم من «أهل الذمة» الذين تتعهد السلطات بحمايتهم ، وحماية أموالهم وممتلكاتهم ، وضمان حرية العقيدة وأمن كنائسهم فى مقابل الجزية، والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين، أو إيذاء المسلمين .

القسم الثانى

أوربا والعالم الإسلامى

التطور التاريخى لصورة الآخر
من القرن الأول حتى العاشر الهجرى
من السابع إلى السادس عشر الميلادى

مدخل

لم يكن الدين السبب في الصراع بين البشر في أى زمان ومكان ؛ وإنما كان دائماً المبرر والغطاء لأطماع الاقتصاد ، وطموحات السياسة ، وتيران الحرب . يصدق هذا على العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامى على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان كما يصدق على العلاقات بين المجتمعات البشرية الأخرى. ومن المثير أيضاً أن هذه العوامل ذاتها تدفع أيضاً إلى التفاهم ، والتفاعل ، بل والتقارب أحياناً . ويصدق هذا أيضاً على تاريخ العلاقة ما بين أوروبا والعالم الإسلامى . إذ كانت العلاقة بين الجانبين نموذجاً للعلاقات بين الجيران حرياً وسلاماً ، ومتافسة وتعاون ، عداوة واعتماداً متبادلاً على الآخر. وهكذا شأن البشر عندما يتجاورون فى كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، ولا يكون للدين فى مثل هذه العلاقات التى تصور بالحيوية والتفاعل ، سوى دور المبرر والغطاء .

ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ما هو معروف بالضرورة من أن إيمان المسلم لا يكتمل سوى بإيمانه بالرسل والأنبياء السابقين على ظهور الإسلام، كما أننا لا نحتاج إلى تكرار ما هو معروف من اشتراك المسلمين والمسيحيين فى ممارسات دينية متشابهة ، فهم يتعبدون فى نفس الأماكن المقدسة بفلسطين ، ويجلون نفس أبطال قصص القرآن الكريم والكتاب المقدس من الرسل والأنبياء. ومع ذلك كانت هناك فوارق أساسية بين الديانتين تشكل حواجز مائعة أمام المؤتمنين بكل منهما فى قبول الآخر:

وربما كان ذلك سبباً من الأسباب التي أذكت العداوة المتبادلة بين الطرفين عند خطوط التماس بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي : من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصولاً إلى الأرض المقدسة في فلسطين شرق البحر المتوسط.

كانت حركة الفتوح الإسلامية الناجحة ، والتي بدأت منذ القرن الهجري الأول / السابع الميلادي، قد قسمت عالم البحر المتوسط إلى ثلاث مناطق حضارية : الحضارة البيزنطية التي تمركزت حول القسطنطينية وشملت ما بقي من أملاكها في آسيا الصغرى والبلقان وتدين بالمسيحية الأرثوذكسية، والحضارة العربية الإسلامية التي ضمت العواصم القديمة في شرق المتوسط وجنوبه ، وعمقها البشري والجغرافي الممتد شرقاً صوب الصين ، ثم حضارة أوروبا العصور الوسطى الباكرة التي تمركزت حول الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا في روما. وكانت خطوط التماس بين الحضارتين المسيحتين والحضارة العربية الإسلامية تتمثل في آسيا الصغرى وأعلى بلاد الشام ، وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط، ثم إسبانيا في الغرب حيث قامت دولة مسلمة استمرت في الوجود حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

والثبير في الأمر أن نقطة التماس الأساسية في الشرق (الدولة البيزنطية) ونقطة التماس في الغرب (الأندلس المسلمة) سقطتا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي . ولم تكن العداوة بين الطرفين مستمرة في كل الأوقات في جميع الأماكن . فمن وجهة النظر الأوربية مرّت العلاقات

الإسلامية المسيحية بثلاث مراحل فيما بين القرن السابع والقرن الخامس عشر الميلاديين. وفي أثناء هذه المراحل الثلاث ، تغيرت المواقف الأوروبية من الرفض إلى المحاولات الواعية المتعاطفة لفهم الإسلام والمسلمين . ومن وجهة نظر المسلمين مرت العلاقات مع أوروبا بثلاث مراحل أيضاً- ولكنها مختلفة بطبيعة الحال- من الغزو إلى التجاهل والازدراء ، ثم العداوة ، ثم التفاهم والاعتماد .

في أثناء حركة الفتوح الإسلامية (القرنين الأول والثاني للهجرة - السابع والثامن الميلاديين) اجتاحت جيوش المسلمين مناطق شرق المتوسط (سوريا وفلسطين) وجنوبه (مصر وشمال أفريقيا) وعبرت المضيق لتستولي على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، وحولت البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية ؛ وفيما بعد دخلت صقلية وجنوب إيطاليا تحت الحكم الإسلامي لفترة من الزمان . ويات الوجود الإسلامي محيطاً بأوروبا بحيث كان هناك في الدوائر الأوروبية دائماً ذلك الشعور المقلق بوجود عدو قوى على الأبواب. وعلى الرغم من أن شارل مارتل قد هزم المسلمين عند تور-بواتييه وأوقف الزحف الإسلامي داخل أوروبا ؛ فإن الدول الجرمانية التي قامت على أرض أوروبا نتيجة الغزوات الجرمانية (القرن الخامس- القرن السابع الميلادي) لم تكن قد وصلت إلى درجة النضج السياسي التي تمكنها من التصدي الحقيقي للمسلمين . ومن ناحية أخرى ، أدرك البيزنطيون مبكراً أن التعايش مع المسلمين يمكن أن يكون حلاً عملياً ومريحاً للطرفين، وكان طبيعياً في هذه المرحلة أن يعبر المسيحيون عن تنويع من الآراء السلبية والإيجابية حول المسلمين وديانتهم ، ولكن مقارنة

الآراء السلبيّة، في تلك المرحلة الأولى بتلك الآراء الهستيرية التي شهدتها الفترة الثانية (وهي فترة الحروب الصليبية) ، تكشف عن أنها كانت آراء معتدلة متزنة نسبياً . ثم تلت ذلك فترة محاولة الفهم عن طريق الترجمة والنقل ؛ لتصل إلى ازدهار حركة الاستشراق في خط مواز لنمو حركة الاستعمار الأوربي على حساب العالم المسلم.

وفي رأيي أن مشروعية هذه الدراسة تقوم على أساس محاولة إخماد نيران العداوة والكراهية التي يؤججها الآن قريق من الغلاة والمتطرفين على كلا الجانبين : المسلم والغربي ؛ وعلى الرغم من أن التاريخ المشترك بينهما امتد منذ القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي حتى الآن ، فإن أولئك المتطرفين يتجاهلون الكثير من تفاصيل هذا التراث المشترك ؛ فهم ينظرون إلى الغرب باعتباره كتلة واحدة من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة واحدة من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة واحدة صماء بلا تفاصيل من ناحية أخرى.

هذه النظرة السطحية تتجاهل حقائق تاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب ؛ فمن الناحية التاريخية كانت العلاقات تتسم بالشد والجذب، وتتراوح بين السلب والإيجاب كما تحكمها التفاعلات الهادئة حيناً والتوترات العنيفة حيناً آخر. ومن الناحية الجغرافية فإن مسرح هذه العلاقات كان عالم البحر المتوسط حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على أقل تقدير . ثم انتقل المسرح الذي جرى عليه التفاعل بين المسلمين والغرب إلى مناطق جغرافية جديدة ؛ إذ حلت الدولة

العثمانية محل دولة سلاطين المماليك فى قيادة العالم المسلم؛ وبذلك انتقلت حدود التماس إلى شرق أوروبا والبلقان ووسط أوروبا . ولم يكن هذا مجرد انتقال جغرافى ؛ وإنما كان تحولاً نوعياً فى شكل العلاقات وعنواناً على مرحلة جديدة بخصائص جديدة.

ومن جهة أخرى ، نقلت التحركات الاستعمارية الأوربية خطوط التماس بين الجانبين إلى مناطق المحيط الهندى ، وجنوب شرق آسيا ، بعد معرفة الأوربيين للطريق البحرى حول أفريقيا ليصل بين المناطق الشرق الآسيوية والموانئ الأوربية . ثم ازداد تشابك هذه الخيوط بعد أن نجحت القوى الاستعمارية الأوربية فى السيطرة على مناطق كثيرة من أراضى المسلمين . وظل الحال كذلك حتى بروز القوة الأمريكية ، ودورها العالمى ، بعد الحرب العالمية الثانية ؛ وتصاعد هذا الدور بالدرجة التى جعلت خيوط العلاقات الإسلامية / الغربية تتشابك وتتقاطع فى كل مكان بالعالم المعاصر بحيث صار العالم كله مسرح التفاعل بين كل من المسلمين والغرب الأوروبى الأمريكى .

ويستدعى البحث فى البعد التاريخى لهذه العلاقات أن تحاول تقسيمها إلى فترات زمنية أحسب أنها سوف تساعدنا على الفهم والإلمام بالحقائق التاريخية المتوارية خلف ضبابية الهجمات ، والهجمات المضادة على كلا الجانبين .

(١)

تأثير حركة الفتوح الإسلامية

إذا كانت حركة الفتوح الإسلامية ، التي بدأت في القرن السابع الميلادي، قد أدت إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث؛ البيزنطية، والإسلامية ، والأوربية كما أسلفنا القول؛ فقد كان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، واللغوية ، والاقتصادية الثلاثة يمثل واحداً من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى. إذ كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للإمبراطورية الرومانية ، وللفترة الكلاسيكية بشكل عام ، بدرجة أو بأخرى . فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية (التي عرقها العرب باسم «الروم» ، وعرفها اللاتين باسم «اليونانيين») تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والإدارة والفكر الروماني والإغريقي ، كما أن أوروبا الغربية الكاثوليكية ورثت الكثير من التراث الروماني ؛ بل ورثت روما ذاتها عاصمة الإمبراطورية الرومانية ورمزها ؛ فضلاً عن اللغة اللاتينية والفكر الروماني، على حين استوعب العالم الإسلامي بعض جوانب التنظيم الروماني ، وتراث الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية.

لقد انتصر المسلمون على الروم وانتزعوا منهم السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط في غضون سنوات قليلة، وتحولت هذه المناطق

التي كانت مسيحية إلى مناطق إسلامية بعد أجيال قليلة. وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه على الرغم من أن المسلمين والمسيحيين كانوا يقومون ببعض الممارسات الدينية المتشابهة ، ويشتركون في التعبد في أماكن مقدسة (مثل بيت المقدس) ، ويجلون الأنبياء وأبطال قصص الكتاب المقدس والقرآن الكريم؛ فقد كانت هناك حواجز حقيقية تحول بين اتفاق أتباع كل من هاتين الديانتين تتعلق بالوهية المسيح، والثالوث ، وحادثة الصلب من ناحية . وعدم اعتراف المسيحيين بالإسلام وبالنبي عليه الصلاة والسلام من ناحية أخرى.

وربما كانت حقيقة اشتراك الجانبين في بعض الأمور هي التي أدت ليران العداوة المتبادلة بين الطرفين . وقد اتضحت هذه العداوة بشكل أساسي عند خطوط التماس التي تقابل عندها العالم الإسلامي والعالم المسيحي؛ من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصقلية إلى الأماكن المقدسة فوق الأرض العربية في فلسطين . ومن المهم أن نشير إلى أن أسباب هذه العداوة لم تكون دينية في جوهرها ؛ لأن دوافعها وأهدافها كانت سياسية واقتصادية وعسكرية وكان الدين غطاء ومبرراً لها على الدوام . ومن المثير أن التشابهات الدينية بين المسلمين والمسيحيين كانت تستثير العداوة بينهما بدلاً من أن تدعو إلى إخمادها . ومن ناحية أخرى كان جهل أوروبا المسيحية بحقيقة الإسلام ، وعدم وضوحه بالنسبة لبيزنطة ، من أهم أسباب تلك العداوة.

ولفت النظر هنا أن المسيحيين في المرحلة التي امتدت من القرن السابع حتى الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر عجزوا عن تنويع

من الآراء السلبية والإيجابية على حد سواء عن الدين الإسلامى، وعن النبى عليه الصلاة والسلام. ولابد للمرء أن يتوقع أن ردود الفعل الأولى من جانب المسيحيين كانت سلبية فى المناطق التى شهدت المواجهات بين الإسلام والمسيحية . ولكنها كانت ، على أية حال، آراء متزنة نسبياً إذا ما قورنت بالآراء والمزاعم الهيستيرية التى ظهرت فى عصر الحروب الصليبية . فعلى سبيل المثال، وصف الأسقف الأرمنى سيببوس Sebeos النبى محمد بأنه تاجر وخبير بالعهد القديم وشرعية التوراة، وأنه علم شعبه الإيمان بآله إبراهيم الواحد . وتقبل هذا الأسقف فكرة أن المسلمين هم أبناء إسماعيل ، أول أولاد إبراهيم من هاجر المصرية.

ومن ناحية أخرى كانت مصادر تلك الفترة فى الغرب الأوروبى تستخدم كلمة أبناء هاجر Agarenes لوصف العرب، على الرغم من أن كلمة «سراكنة» Saracens ، كانت شائعة أيضاً، ثم صارت الكلمة الأكثر شيوعاً فيما بعد . وقد جاءت الكلمة اليونانية الأصل Saracens من اشتقاق غير معروف المصدر؛ على الرغم من أن هناك قدراً من الشك فى أن تكون مشتقة من اسم «سارة» زوجة إبراهيم، وفى الاستخدام اليونانى قبل الإسلام كانت كلمة «سراكنة» مرادفة لكلمة «عرب» ولكن الاسم «إسماعيليين» الذى استخدم للدلالة على المسلمين فيما بعد ، كان يحمل أيضاً معنى أبناء هاجر Agarenes، على اعتبار أن إسماعيل نفسه ابن «هاجر» زوجة إبراهيم، عليهم السلام جميعاً. بيد أن كلمة سراكنة Saracens التى شاع استخدامها آنذاك فى الغرب الأوروبى لكى تدل على المسلمين، كانت تعنى وصف جماعة تضم العرب والأتراك وغيرهم من

المسلمين الذين يتحدثون العربية بغض النظر عن أصولهم العرقية. وقد وجدنا في النصوص التي أوردناها في القسم الأول من هذا الكتاب أن غالبية النصوص تشير إلى المسلمين على أنهم بنو اسماعيل .

ومن المثير أيضاً أن المصادر البيزنطية لم تهتم بالإسلام في تلك الفترة البكرة ؛ فقد أغفلت ذكر الرسالة التي ذكرت المصادر التاريخية العربية أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أرسلها إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) . وعندما كتب زانوراس Zonaras ، في القرن التاسع كان هناك قدر كبير من الخلط في رواية الأحداث، فضلاً عن النعمة العدائية الواضحة ضد الإسلام والمسلمين؛ فقد ذكر زانوراس أن النبي نفسه قدفاوض الإمبراطور هرقل لعقد معاهدة تضمن حرية التجارة والسفر بين شبه الجزيرة العربية وأقاليم الإمبراطور البيزنطية . وعلى الرغم من أن هذه المفاوضات لم تحدث بين النبي عليه الصلاة والسلام والإمبراطور، فإن الاتفاق نفسه تم بالفعل بين المسلمين والروم في هذا الدور الباكر من تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية.

ويبدو أن المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanis ، الذي كتب في مطلع القرن التاسع الميلادي، كان أول من سجل شيئاً عن الرسول وعن المسلمين، وقد اتسمت كتابته بقدر من الحياد والموضوعية النسبية؛ ولكن المؤرخين الذين جاؤا بعده، وأهمهم زانوراس، كانوا أكثر عدائية تجاه المسلمين، وربما لم يكن البيزنطيون يدركون حقيقة الإسلام في هذا الدور الباكر ؛ بل إن بعضهم ظن أن هناك تشابهاً بين الإسلام ومذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) في الديانة المسيحية. وربما كان هذا السبب وراء

تجاهل المؤرخين البيزنطيين للأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية منذ البعثة النبوية حتى بداية حركة الفتوح الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وهو ما أثبتناه بقدر كبير من التفصيل في القسم الأول .

كان رجال الكنيسة في المناطق الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط قد عبروا عن آراء تكشف عن جهل وعميق وعدم معرفة بالإسلام؛ كما تكشف عن عداوة متوحشة للمسلمين مثلما جاء في كتابات صفرونيوس أسقف بيت المقدس الذي عاصر الفتح الإسلامي لفلسطين ؛ فقد أنكر بعضهم أن المسلمين موحدون ، كما أن يوحنا النقيوسي ، الأسقف المصري الذي شهد أحداث الفتح الإسلامي لمصر، كتب عن المسلمين وتبنيهم كلاماً يحمل من السباب والشتائم أكثر مما يحمل أي وصف . ومن ناحية أخرى، خلط رجال الكنيسة الشرقية بين العرب والمسلمين؛ فقد وصفوا المسلمين بأنهم أبناء إسماعيل على الرغم من أن المسلمين كانوا من العرب ومن غير العرب، إذ اعتمد أولئك القساوسة المسيحيون على روايات العهد القديم فيما يخص أنساب العرب، وعمموا التسمية على المسلمين جميعاً (أنظر القسم الأول من هذا الكتاب) وهناك تقسيم للأنساب العربية لدى العرب أنفسهم ليجعل العرب جميعاً من نسل إسماعيل وهاجر ، وإنما يجعل هذا القسم من العرب المستعربة على حين يشير إلى قسم أقدم هم العرب العاربة . وعلى سبيل المثال ، فإن بنيامين بطريرك الأقباط الأرثوذكس في مصر زمن الفتح الإسلامي، والذي كان هارباً في كهوف الصحراء من الاضطهاد البيزنطي، طلب من أتباعه

مساعدة «الإسماعيليين» لأن مشيئة الرب اقتضت اقتصارهم على الروح. كما أن أحد الرهبان النساطرة زعم أن المسلمين أحقاد إسماعيل ، وأنهم يعبدون رب إبراهيم الواحد .

هذا الخلط والارتباك الذي ميز كتابات المسيحيين في هذه الفترة الباكورة، كان ناجماً من عدم فهم حقيقة الإسلام، وعدم إدراك أنه ديانة سماوية جديدة لا تنكر ما سبقها في اليهودية والمسيحية من ناحية، وعدم الاهتمام بظهور الإسلام وما ترتب عليه من تطورات سياسية وعسكرية في شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ولم يبدأ المسيحيون في إدراك حقيقة الدين الجديد، والقوة السياسية- العسكرية التي تبلورت حوله سوى عندما بدأت معارك حركة الفتوح الإسلامية لكي تستمر على مدى ما تبقى من القرن السابع، وتمتد إلى القرن الثامن. وهنا لابد من أن نفرق بين موقف المسيحيين الذين بقوا في المناطق التي خضعت لحكم المسلمين، وموقف أولئك المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطي، أو أولئك المسيحيين الغربيين الذين كان الإسلام بالنسبة لهم شيئاً غريباً ، وبعيداً .

فبالنسبة للمسيحيين الذين خضعوا للحكم الإسلامي كانت المعاملة الطيبة التي عاملهم بها المسلمون، بعد استقرار الحكم وانتهاء القتال بما يصحبه بالضرورة من تدمير وقتل ، قد أثرت على مواقفهم وكتاباتهم . وربما يمكن للبعض أن يجادلوا بأن أولئك الكتاب كانوا تحت السيطرة الإسلامية، ومن ثم كان من الطبيعي أن يحتزروا لأنفسهم بحيث يتخذون مواقف معتدلة نسبياً . ولكننا نرى أنه بالنسبة لما هو معروف من حقائق

الصراع بين الدولة البيزنطية والمسيحيين المونوفيزيتيين أنصار الطبيعة الواحدة في بلاد الشام ومصر، وغيرهم من الجماعات المسيحية حول شواطئ المتوسط قبل الفتح العربى؛ كان المسيحيون الشرقيون أسعد حالاً تحت الحكم الإسلامى؛ ومن ثم جاءت مواقفهم تجاه سادتهم الجدد من المسلمين أكثر اعتدالاً . وعلى الرغم من أنهم قد رفضوا الإسلام، ويقوا على دياتهم المسيحية، فإن النغمة العدائية فى آرائهم لم تكن فى مثل حدة مواقف المسيحيين البيزنطيين ، أو المسيحيين فى غرب أوروبا .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الانطباع ربما يكون ناجماً عن حقيقة أن عدداً قليلاً فقط من الكتابات المسيحية هي التى نجت من عواصف الزمان؛ بيد أن الكتاب المسيحيين الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامى فى تلك الفترة الباكرة كانت لهم تجربة مباشرة مع المسلمين، وإن لم تكن لديهم القدرة على فهم الإسلام بصورة كاملة . وبالتالي فإن مواقفهم والأشكال التى كانوا يعبرون بها عن آرائهم تمثل نماذج مثيرة عن العلاقات الإسلامية المسيحية فى زمانهم .

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطى كانوا يحملون فى أذهانهم صورة عدائية تماماً للمسلمين ، ولاسيما فى الأوساط الكنسية، فهناك وثيقة عرضت على المجمع المسكونى السابع ، الذى انعقد بالقسطنطينية سنة ٧٨٧م تشير إلى مدى عداوة الكنيسة البيزنطية للمسلمين . فهذه الوثيقة تتحدث عن موضوع تحريم الصور والتماثيل (ألا أيقونية) وتتناول مدى التأثير الإسلامى فى هذه المشكلة التى شغلت حيزاً مهماً من تاريخ الدولة البيزنطية والغرب الأوروبى على

السواء؛ وتصف الخليفة الأموي «يزيد بن عبد الملك» بأنه رجل متهور غير متزن، وتتهمه باستخدام أحد السحرة اليهود لفنشر تحريم الصور والتمثيل في أقاليم الدولة البيزنطية، وتتحدث الوثيقة نفسها عن العرب واليهود فتصفهم بأنهم الملاحين الكفرة.

أما المسيحيون في الغرب الأوربي فقد كان موقفهم مختلفاً بشكل جذري في تلك الفترة الباكزة . فقد كان الإسلام بالنسبة لهم شيئاً بعيداً . حقيقة أن الإسلام قد ظهر في شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي كان الإنجليز على وثيقتهم ويحاول المبشرون المسيحيون تنصيرهم ؛ ولكن الفروق بين الحالتين كانت جسيمة ومذهلة . ويتمثل أوضح هذه الفروق في أن العرب قد حملوا الإسلام لينشروه بين حضارات عريقة ، وواعية ، ولها أدابها المكتوبة ، بل ولها دياناتها (ومنها المسيحية واليهودية بطبيعة الحال) ؛ ولكن المبشرين الذين جاؤوا بالمسيحية إلى أقصى الغرب والشمال الأوربي حملوها إلى مجتمع أمي كان في حالة تلقى واستقبال ولم يكن قادراً على العطاء في مجال التطور الفكري . لقد كان الجزء اللاتيني من عالم البحر المتوسط بقايا شاحبة من التراث الكلاسيكي ، على حين كانت المناطق التي ضمها الإسلام تحت رايته وتضم الشعوب الناطقة بالفارسية ، واليونانية ، والسريانية ، أرقى ثقافة ، وأكثر (تقدمية) داخل مناطق نفوذها المباشر، كما تسربت التأثيرات الصينية والهندية إلى عالم الإسلام في فترات لاحقة .

ويتمثل الفرق الثاني في أن لكل من الديانة الإسلامية والمسيحية «كتاب» يقدسه أتباع كل منهما ؛ فالمسيحيون لديهم الكتاب المقدس

بقسميه؛ العهد القديم والعهد الجديد، والمسلمون لديهم القرآن الكريم؛ لكن الفارق هنا كان يتمثل في أن القرآن الكريم جاء ومعه لغة جديدة فرضها على العالم القديم، على حين كانت الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية تحمل لغة الغرب الأوربي الأوربي القديم (أى اللاتينية) إلى أمم جديدة لم تكن تعرفها؛ وهى الشعوب الجرمانية التي اجتاحت أوروبا واستوطنتها فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين*. وربما كان هذا هو السبب في نغمة «البعد» التي تميز كتابات الأوربيين الغربيين في العصور الوسطى المبكرة عن المسلمين، ولكن الموقف كان مختلفاً بطبيعة الحال، عند الحديث عن إسبانيا .

ففى إسبانيا ربط بعض الكتاب المسيحيين بين ظهور الإسلام وقرب ظهور المسيح الدجال؛ على الرغم من أن حال المسيحيين تحت الحكم الإسلامى لم تكن شديدة الوطأة إذا ما قورنت بما كانت عليه تحت حكم الفيزيغوث Visigoths ، لأن العرب نهجوا نهجاً شديداً التسامح فى إسبانيا بعد الفتح الإسلامى (٧١١-٧١٣م) مع النصارى. وقد حفظ المسيحيون جميل المسلمين الذين تركوا لهم حرية العقيدة دوتما تدخل.

* لقد فرضت اللغة العربية نفسها على الشعوب العريقة لغة للقرآن الكريم ، ولكن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لم تستطع أن تجعلها لغة الشعوب الجرمانية الجديدة، فسرعان ما تطورت اللغات واللهجات المحلية للشعوب الجرمانية إلى لغات قومية فى غضون ستة قرون أو أكثر قليلاً ، ومن ناحية أخرى كان البعد اللغوى يمثل حاجزاً أمام معرفة الغرب الأوربي بالإسلام ، ولاسيما فى مناطق شمال أوروبا وغربها .

وطوال القرن الثامن الميلادي كان الحال هادئاً ، وهناك مؤرخة تم تأليفها في قرطبة ١٣٧ هـ / ٧٥٤م تشهد على أن رجال الكنيسة الإسبانية أنفسهم لم يكونوا ناقلين على الحكومة الإسلامية ، وذلك على الرغم من أن مؤلف هذه المؤرخة (التي نسبت خطأ إلى إيزيدور الباجي Isidore de Beja) كان من القساوسة الذين يكرهون الإسلام وربما كان مؤلف هذه المؤرخة التي تعرف بسنة تأليفها «مؤرخة سنة ٧٥٤م» قد عاش في قرطبة ، وربما كان قد بلغ من العمر ما جعله يحمل ذكريات شخصية عن سقوط مملكة الفيزيقوط ، وتوحي ألفته مع تاريخ الأندلس وشئونه السياسية بأنه ربما كان موظفاً لدى المسلمين في الجهاز الإداري . وقد عكف على كتابة مؤرخة عالمية تبدأ قبل ثمانين سنة من الوقت الذي كتب فيه . ويلفت النظر أن المؤلف لا يذكر في أي موضع من كتابه حقيقة أن المسلمين كانوا أتباع دين جديد ،

ويذكر كاتب «مؤرخة ٧٥٤م فقط أن السراكنة (المسلمين) ثاروا وغزوا بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد النهرين » ... بفضل الضداع ، لا بقوة زعيمهم محمد ، ونهبوا الأقاليم المجاورة ، ومضوا من خلال الغزوات السرية ، لايواسطة الهجمات الصريحة .. وعلى الرغم من هذه اللهجة المراوغة ، فإن الكاتب يقدم تاريخاً يكاد يكون واقعياً عن الخلفاء المسلمين الأوائل نجده متداخلاً مع تاريخ الإمبراطورية البيزنطية . ويرى هذا الرجل الذي كتب بعدما يزيد على مائة سنة من ظهور الإسلام أن «يزيد بن معاوية» (٦٨٠-٦٨٣م) ، كان من الخلفاء الصالحين ، وأنه كان «... أكثر أيتاء معاوية منعاة للسرور...» ويصفه بأنه كان «... محبوباً

للغاية من جميع أهل الأرض التي كانت خاضعة لحكمه . فإنه لم يسع أبداً
مثلاً هي عادة الرجال، إلى أي مجد لأنه كان ملكاً ، ولكنه عاش حياة
أي مواطن عادى مع الآخرين...» .

ولكن صاحب مؤرخة ٧٥٤م يتخذ موقفاً عنيفاً عندما يعرض لأحداث
الفتح الإسلامي للأندلس، ويصم موسى بن نصير باعتباره بربرياً عنيفاً :
«... لقد دمر المدن الجميلة ، وأحرقها بالنيران، وحكم بالصلب على الرجال
ذوى المكانة ، وذبح الأطفال والشباب بالسيف . وإذا أشاع الرعب بهذه
الطريقة ، توسلت بعض المدن من أجل السلام، ومنحها السراكنة ما طلبوه
فى الحال. وعندما رفض المواطنون فيما بعد ما كانوا قد قبلوه بدافع
الخوف والإرهاب ، حاولوا الهرب إلى الجبال حيث خاطروا بمواجهة
الجوع وأنواع مختلفة من الموت...»

ثم تعود المؤرخة إلى لهجتها الواقعية ؛ ويذكر المؤلف إن هناك حكاماً
مسلمين صالحين مثلاً يوجد حكام طالحون ، كما أن هناك حكاماً
مسيحيين صالحين وآخرين طالحين . وتتحدث المؤرخة عن معركة يواتيه
أوبلاط الشهداء، التي حدثت سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م بين قوات عبد الرحمن
الغافقى وقوات شارل مارتل ، حاكم الفرنجة وجد الامبراطور شارلمان
الشهير . وقد لقيت القوات الإسلامية هزيمة فادحة أمام قوات الفرنجة .
وقد سمع عن هذه المعركة الإنجليزي بيديه Bede القابع فى نيره البعيد
فى نورثميريا، وكتب : «... إن السراكنة (المسلمين) الذين الذين كانوا قد
خربوا بلاد الغال قد لقوا جزاءهم عقاباً على غرهم...» .

ولكن مؤلف مؤرخة ٧٥٤م، الذى كتب بعد عشرين سنة تقريباً من الأحداث كتب ما يوحى بأنه كان علم ومعرفة جيدة بالأحداث . وربما يكون قد استقى مادة روايته من الجنود المسلمين الذين نجوا من الحملة وعادوا إلى قرطبة . وتقدم هذه المؤرخة تفاصيل مفيدة للغاية: ولكنها لاتحمل أى شعور بالانتصار المسيحى. وتحكى هذه المؤرخة أحداثاً تاريخية تشى بأن مؤلفها كان عارفاً بأحداث المشرق الإسلامى مثلما كان يعرف الأحداث الجارية فى الأندلس .

لقد عاش كاتب مؤرخة سنة ٧٥٤م وعمل فى عالم كانت التفاعلات فيه بين المسلمين والمسيحيين يومية وفعلية، ومن الواضح أنه كان مرتبطاً على نحو ما بدوائر الحكم الإسلامى فى قرطبة محافظاً على هويته المسيحية .

وفى القرن الثامن الميلادى كانت علاقة أوروبا بالمسلمين فى أدنى مستوياتها بسبب «البعد» و«الجهل» . فما يكن هناك ما يعين الأوربيين على معرفة الإسلام أو المسلمين سواء فى تراثهم القديم، أو فى ديانتهم الجديدة. ولم يكن جوار المسلمين فى الأندلس يعنى لهم شيئاً فى هذا الموقف ؛ فقد ظل البعد «المعنوى» ، والبعد «اللغوى» قائماً على الرغم من الجوار الجغرافى، كما بقى «الجهل» مطبقاً يعرزه الخوف، والحسد ، والعداء ضد هذا الجار «المختلف» . وربما لم يكن هناك مكان فى أوروبا أبعد عن معارك الفتوح الإسلامية من إنجلترا : وتشهد على ذلك قصة سانت ويليبالد St. Willibald الذى سافر فى رحلة حج قرب منتصف القرن الثامن الميلادى، وعندما وصل إلى بلاد الشام تم القبض عليه هو ورفاقه ، ولم يعرف المسلمون أين بلادهم حينما قال لهم أولئك الحجاج

إنهم من إنجلترا التي لم يكن العرب قد سمعوا بها أو عرفوا موقعها على خارطة الدنيا. وظنّوهم من الجواسيس . وتم إطلاق سراحهم بفضل إسباني كان يعمل في بلاط الخليفة بدمشق . في هذه القصة نوع من التأكيد على بعد إنجلترا عن عالم البحر المتوسط الذي سيطر عليه العرب وهو ما يصدق أيضاً على أصقاع الشمال الأوربي البعيدة عن البحر المتوسط. مثل شبه جزيرة اسكندنافيا التي تضم السويد والنرويج والدانمرك.

كان وجود الإسلام يمثل أكبر مشكلة واجهت العالم الأوربي في العصور الوسطى ؛ وقد تجلت هذه المشكلة على عدة مستويات . فعلى المستوى العسكري والسياسي استدعت هذه المشكلة ضرورة التعامل الدبلوماسي والاحتكاك العسكري الذي تصاعد في الفترة ما بين القرن السابع والقرن الحادي عشر حتى تبلور في الحملات الصليبية التي جردها الغرب الكاثوليكي ضد المنطقة العربية ، كما استدعت العمل الفكري لفهم السبب في انتشار الإسلام بذلك الشكل الذي أخاف أوروبا . ومن ناحية أخرى كان لابد من حل مشكلات التعايش مع الإسلام في عالم البحر المتوسط وإمكانيات التبادل التجاري مع المسلمين بداية من القرن التاسع فصاعداً ، بيد أن المشكلة الأساسية التي واجهت الغرب الأوربي كانت مشكلة « معرفية » ؛ فقد كان الأوربيون يجهلون تماماً سر وجود الإسلام: ما دوره الإلهي في التاريخ الإنساني ؟ هل كان من علامات نهاية العالم، أم كان مرحلة في تطور الديانة المسيحية ؟ هرطقة ، أو انشقاق ، أم ديانة جديدة ؟ هل هو دين من عمل الإنسان أم من وسوسة الشيطان ؟ أم أنه تقليد هزلي فج للمسيحية ؟ هل هو نظام فكري يستحق المعاملة باحترام ؟

(٢)

المشكلة المعرفية

كانت تلك الأسطة المضنية المربكة تمسك بتلابيب العقل الأوربي لتشكل معضلة تاريخية مستعصية على الحل. كانت مشكلة معرفية تم المساس بها مساً هيناً من خارجها ، ولم يكن من الممكن حل هذه المشكلة المعرفية دون المعرف اللغوية والأدبية التي لم يكن من السهل الحصول عليها بالنسبة للأوربيين آنذاك. ومن ناحية أخرى، تفاقمّت مشكلة «الجهل» بالإسلام لأن المتعلمين الأوربيين كانوا من الرهبان ورجال الكنيسة الكاثوليكية الذين تملكهم الانحياز وغلب عليهم العداء ضد الإسلام والمسلمين ، كما وقعوا أسرى الرغبة القوية في «عدم المعرفة» خوفاً من أن يصيبهم النكس إذا ما حاولوا «معرفة» شئ في هذا الصدد فقد كانت مشكلة التعليم في أوروبا العصور الوسطى الباكورة تتمثل في أن ما يزيد على ٩٥٪ من الذين تعلموا في أوروبا آنذاك تعلموا في المدارس الديرية ، على حين تلقى الباقون تعليمهم في المدارس الكاتدرائية . ولم يكن هناك وجود للمدارس العلمانية حتى القرن الثاني عشر الميلادي على الأقل. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على فكرة أوروبا عن الإسلام من ناحية، وعلى الموقف «المعرفي» لهؤلاء المتعلمين من ناحية أخرى.

وفضلاً عن ذلك ، لم يكن هناك شيء في تراث الغرب الأوربي القديم يمكن أن يساعد الأوربيين على فهم الإسلام ، أو معرفته ، خلال العصور الوسطى الباكرة . فقد كان الإسلام على عكس اليهودية، ظاهرة جديدة في التاريخ الإنساني ؛ كان ديناً جديداً جاء بكتاب يحمل كلام الله بلغة غريبة على الأوربيين . ولم يعرف الأوربيون عنه شيئاً في ذلك الحين سوى تلك الدعاية النزقة التي روجها الكنسيون . وعلى المستوى الدنيوي كان نجاح الإسلام متجسداً في وجوده القوي في عالم البحر المتوسط وفي شبه الجزيرة الأيبيرية يمثل مشكلة مخيفة ومصدر قلق وتهديد دائم لأوروبا في تلك الفترة من تاريخها . فقد كان المسلمون بالنسبة لأوروبا آنذاك «جاراً» قوياً وغنياً ومخيفاً ، كما كانوا يستثمرون عوامل الجسد في نفوس قادة المجتمع الأوربي في تلك الفترة. التي كانت أوروبا فيها مجتمعاً لم يدخل بعد في مرحلة النمو .

وفي القرون الأولى من تاريخ العلاقات الإسلامية / الأوربية كان «الجهل» والعداوة من أبرز خصائص الموقف الأوربي من الإسلام والمسلمين ؛ بيد أننا لانستطيع تحديد هذا الموقف بشكل عام سواء من الناحية الزمنية ، أو من حيث النطاق الجغرافي. وثمة تفاوت في المواقف بحسب طبيعة الأماكن التي تعاملت مع المسلمين، وبحسب درجة الوجود الإسلامي ومدى قربه أو بعده .

كانت المشكلة الأولى التي واجهت المسيحيين عموماً بشأن الإسلام تتعلق بحقيقة هذا الدين ، وماهيته ، ورسالته ، ونبيه، وطبيعة موقف الإسلام من المسيحية وعقائدها على المستوى اللاهوتي. كما تمثلت المشكلة

أيضاً على المستوى الدنيوي في كيفية التعامل مع الوجود الإسلامي الناجح سياسياً وعسكرياً ، والمزدهر اقتصادياً ، والمتفوق حضارياً . وهنا نكرر ما سبق أن ذكرناه عن أنه كان هناك قدر من الاختلاف الواضح بين موقف كل من المسيحية الشرقية ، والكنيسة الكاثوليكية التي تزعمتها البابوية من المسلمين ومن الإسلام. كما كان الأمر بالنسبة للمسيحيين في المنطقة العربية مختلفا بشكل عام ، عنه في الأندلس وأوروبا .

ولم يكن هناك ما يمكن أن يساعد الغرب الأوربي في العصور الوسطى على فهم الدين الإسلامي فلم يكن له مثيل عرفه الأوروبيون في تاريخهم من قبل ، كما أن اللغة العربية كانت مجهولة تماما في أوروبا آنذاك . وفي ذلك الحين كان نجاح الإسلام باهراً ، كما كان المسلمون جارا قويا وغنيا لأوروبا يستثير في نفوسهم مشاعر مختلفة ومتضاربة بين الحسد والجهل والعداوة؛ بحيث ارتسمت في العقل الأوربي صورة عن المسلمين ترسم عالما من العنف والتخريب . وطوال القرون الأولى التي أعقبت ظهور الإسلام لم يحدث أي تطور حقيقي في الموقف الأوربي بل ظل هذا الموقف ثابتا بصورة نسبية حتى فترة الحروب الصليبية . وعلى الرغم من أن صورة العالم الذي يسوده العنف والتخريب لم تكن في الحقيقة ناتجة عن قدوم العرب إلى أوروبا في غمار حركة الفتوح الإسلامية، فإن الشحن الدعائي في القرن الحادي عشر (الذي خرجت أولى الحملات الصليبية في نهايته) حفز الربط بين الإسلام والعنف والتخريب. ولقد كانت صور العنف والتخريب ترتبط في الذاكرة الأوربية بأهم أخرى كثيرة أسبق في وجودها

التاريخى من المسلمين ؛ ولم يكن العنف والتدمير الذى ارتبط بمعارك الفتوح الإسلامية فى أوروبا متميزاً عن أى «عنف» آخر حملته الذاكرة الأوربية فى تاريخها الذى شهد الكثير والكثير من الغزاة وعانى من موجات القتل والتدمير ، كما عرف فى خبرته التاريخية مدى ارتباط العنف بالأطماع الاقتصادية والمواقف السياسية. ولم يكن المسلمون الذين غزوا أوروبا هم الذين «أخترعوا» العنف ، الذى لم يكن يمثل بالنسبة للأوربيين أمراً غير مألوف . ولكن الموقف تغير مع تيار الدعاية القاسية ضد الإسلام والمسلمين فى غمار الاستعداد للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥-١٠٩٩م؛ بحيث صار العنف مرتبطاً فى الوجدان الأوربي بالإسلام والمسلمين.

وهنا يتبغى أن نضع فى الحسبان أنه كان هناك اختلاف فى المواقف داخل أوروبا نفسها من الإسلام ، حتى فى هذه الفترة البكرة. فقد كان الإسلام والمسلمون يشكلون مشكلة بحر متوسطية لا مشكلة أوربية عامة؛ إذ كانت إيطاليا وصقلية ، وجزر البحر المتوسط؛ فضلاً عن إسبانيا ، هى التى جربت الاحتكاك القلبي بالمسلمين ، وعانت من الغزو والحرب كما أفادت من تقدم الحضارة العربية الإسلامية وذاقت حلاوة ثمارها لاسيما بعد أن هدأت الأمور بعد استقرار الحكم الإسلامى ولكن شمال أوروبا وغربها كانت ترى فى المسلمين عدواً من بين عدة أعداء محتملين ، وكانت المشكلة بالنسبة لهذه الأثناء مشكلة معرفية فى أساسها .

وسنجد نفمة تشى بالبعد الجغرافى والمعنوى فى كتابات شمال أوروبا عن المسلمين فى عالم البحر المتوسط . لقد كان الإسلام لايشبه شيئاً آخر

فى تجربتهم التاريخية بمعنى أنه كان ديناً جديداً ومختلفاً عن الأديان التى عرفوها من قبل . وكانت هناك أوقات بدا فيها أن من المقبول بالنسبة للكتاب الأوربيين أنذاك كتابة الموضوع الذى يخص المسلمين اعتماداً على تخيلاتهم وتصوراتهم عن الإسلام والمسلمين، بحيث تبدو كتابة الموضوع كله وكأنها النتاج الوهمى لخيال شرير . ولم يكن هذا الموقف فى حقيقته سوى نتاج الجهل الذى تمت تغطيته باختراع الصورة الخيالية الشريرة للإسلام والمسلمين .

وعلى الجانب المسلم لم تكن المشكلة قائمة ، أو على الأقل قائمة بهذه الحدة. فلم تكن المسيحية أو السيد المسيح وقصته ومعجزة ولادته مسائل مجهولة بالنسبة للمسلمين . ذلك أن الوجود التاريخى للمسيحية قبل ظهور الإسلام فى المناطق التى صارت فيما بعد مناطق إسلامية وفر الكثير من المعلومات عن المسيحية ومذاهبها على أرض الواقع ؛ فضلاً عن أن أعداداً كبيرة من المسيحيين اعتنقوا الإسلام فى القرون الأولى التى أعقبت ظهوره . ومن ناحية أخرى ، فإن القرآن الكريم خصص مساحة كبيرة لكافة جوانب القصة الحقيقية للسيد المسيح وحياته على الأرض منذ ولادته الإعجازية من أمه مريم العذراء حتى رفعه الله . كذلك يؤمن المسلمون بنبوة المسيح على اعتبار بأن الإيمان بالرسول السابقين على النبی محمد عليه الصلاة والسلام جزء من أركان الإيمان الإسلامى ولا يوافق القرآن الكريم بطبيعة الحال على فكرة ألوهية المسيح، كما يرفض القول بأنه ابن الله، وينكر حادثة الصلب على أساس أنه شُبّه لمن ظنوا أنهم صلبوا

المسيح أنهم فعلوا هذا . بيد أن القرآن يتحدث عن السيدة مريم العذراء بقدر كبير من التيجيل ، كما يتحدث عن معجزات المسيح.

كما أن الإسلام كان له موقف صريح ومحدد بشكل قاطع فيما يتعلق بالدعوة إلى الإسلام ؛ سواء كانت هذه الدعوة موجهة إلى الناس كافة أو إلى المسيحيين واليهود (أهل الكتاب) بشكل خاص إذ ينبغي أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد رأى الإسلام السماح للجماعات المسيحية واليهودية أن تبقى داخل دار الإسلام وأن يتمتع أتباعهما بوضع «أهل الذمة» ؛ أى أن تكون هذه الجماعات جماعات تتمتع بحريتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وأن يدفعوا «الجزية» فى ظل حماية الحكم الإسلامى.

ويرى بعض المفسرين أن الجزية التى فرضت على «أهل الذمة» كانت جزاء تأمينهم فى ديار الإسلام، وحمايتهم ، والدفاع عنهم . كما يرى عدد من المفسرين أن أهل الذمة ، على الرغم من إيمانهم بوحداية الله سبحانه وتعالى، كفروا بما جاء به محمد ؛ ومن ثم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل لأن الإيمان بالرسول إيمان بالمرسل . وهم بذلك يتبعون أهواءهم ومن ثم يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية . ومن ناحية أخرى، لم تكن الجزية فى الواقع الأمر سوى «ضريبة دفاع» على حد تعبيرنا المعاصر. فهى مقابل مائى لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى ديار الإسلام.

وعلى المستوى المعرفى ، كان المسلمون يعرفون الكثير عن المسيحية ، ولكن إيمانهم بوحداية الله كان يعنى علمياً إنكار الثالوث، والتجسد ،

وألوهية المسيح . كما أن الإسلام اعترف بمولد المسيح من عذراء ،
 وبالمميزات الخاصة والمعجزات التي تحققت علي يديه بوصفه نبياً من
 الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله ؛ ولكنه رفض فكرة كونه الإله الابن
 داخل الثالث . لقد كان معظم المسلمين الجدد هم أنفسهم المسيحيين
 السابقين الذين اعتنقوا الإسلام بعد نجاح حركة الفتوح الإسلامية على
 الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . وحين اختلطوا بالعرب
 الفاتحين (وكان هناك جزء مسيحي من عرب الشام والعراق بقوا على
 مسيحيتهم) كان هناك نوع من الحوار الضروري بين المسلمين والمسيحيين ،
 ومن ناحية أخرى ، فإن المسلمين لم ينبذوا التراث الثقافي للمناطق التي
 فتحوها ؛ وإنما أقبلوا على ترجمة آثار هذا التراث ، مستعينين في عملية
 الترجمة الكبرى ببعض العلماء المسيحيين . وعندما انتقلت عاصمة
 المسلمين من المدينة المنورة في الحجاز إلى دمشق في بلاد الشام ، كان
 ذلك يعنى الانتقال إلى وسط حضارى أكثر تأثراً بالتراث الهيلينستى الذى
 يجمع بين الثقافة الإغريقية القديمة وثقافات مصر وبلاد الشام والعراق .
 لقد كانت البقعة التى نجحت الفتوحات الإسلامية فى ضمها منذ الرابع
 الثانى من القرن الهجرى الأول (السابع الميلادى) تنعم بحظ وافر من
 التراث الفلسفى بفضل المترجمين السريان المسيحيين على وجه الخصوص
 . وكانت مدرسة الاسكندرية حتى أوائل القرن السابع الميلادى تزدهر
 بعلوم الأوائل ؛ ولاسيما الطب . وكان يوحنا النحوى ، الذى كان من أهم
 شُراح أرسطو ، من كبار الذين دافعوا عن العقائد المسيحية . أما فى

شرق العالم المسلم فقد ازدهرت العلوم اليونانية في البلدان التي كان أهلها يتكلمون السريانية والفارسية، مثل الرها (إديسا) ، ونصيبين ، والمدائن وجنديسابور ، حيث ساد المسيحيون النساطرة . وفي أنطاكية التي كان سكانها من المسيحيين المونوفيزيتيين. أي أتباع مذهب الطبيعة الواحدة.

كانت هذه المؤسسات العلمية والفكرية قبل ظهور الإسلام في المنطقة العربية الأساس الذي قامت عليه حركة الترجمة إلى العربية فيما بعد؛ وكان من أبرز رجالها عدد من العلماء والمفكرين المسيحيين. ومن بينها كانت مدرسة جنديسابور التي بدأت تزدهر أيام الملك الفارسي كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) بفضل العلماء النساطرة الذين تم طردهم من الرها آنذاك؛ وفي جنديسابور اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثروا ببعضهم البعض .

كان هذا الأساس الذي قامت عليه البنية المعرفية للمسلمين بالمسيحية والمسيحيين في عالمهم وفي خارج هذا العالم . فمنذ البداية قامت الدولة الإسلامية برعاية ما يمكن تسميته مشروع الترجمة للانتفاع بعلوم السابقين في شتى مجالات الحياة. وكان المسيحيون المحليون من السريان وغيرهم حلقة الوصل بين المسلمين والتراث اليوناني القديم . وبرزت أسر وذاعت شهرتها بفضل ما قام به أبنائها من ترجمات . وقد أنشأ الخليفة المأمون مؤسسة خاصة، هي التي عرفت باسم «بيت الحكمة» لترجمة علوم الأوائل من اليونانية والسريانية إلى العربية. بيد أن خالد بن يزيد (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م) كان أول من أمر بترجمة التراث العلمي لليونان إلى اللغة

العربية، إضافة إلى تعريب ما كان مكتوباً بالسريانية والقبطية . ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية الرائد الأول في نقل العلوم إلى اللغة العربية مما وفر أداة معرفية قوية لم تكن متاحة في أوروبا المسيحية على الجانب الآخر . وفيما بعد لعب «بيت الحكمة» دوراً مهماً في معرفة المسلمين بالآخر المسيحي .

ومنذ البداية ، لم تكن محاولات الترجمة محاولات فردية بأي حال وإنما كانت عملاً منظماً ترعاه الدولة نفسها . فقد أرسل المأمون بعثة إلى النوبة البيزنطية بحثاً عن المخطوطات اليونانية ، وكان من أعضائها «الحجاج بن مطر» ، «ويوحنا بن البطريق» . كما أرسل بنو شاذان (محمد ، وأحمد ، والحسن) الذين أسهموا في علم الهندسة الميكانيكية إسهاماً كبيراً تعلم منه الأوروبيون عندما بدأت محاولاتهم للإفادة من علوم المسلمين في العصور الوسطى. كما أنه أرسل بعثة من أبرز أعضائها حنين بن أسحق، للحصول على المخطوطات من بلاد الروم. ويقول ابن النديم صاحب الفهرست إنهم عادوا من هناك ومعهم «... طرائف الكتب، وخرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى، والأرثماطيقى (الحساب) والطب...» ومن ناحية أخرى، كان المترجمون يأتون إلى بغداد ومعهم المخطوطات التي سيتولون ترجمتها .

فقد كان التراث المكتوب باللغة اليونانية ، وتراث شعوب المنطقة العربية، تراثاً إنسانياً جديراً بالاحترام وجد فيه المسلمون ما يفيدهم في بناء حضارتهم . ولم تجد المشاعر الدينية المتعصبة مكاناً لنفسها في كتابات المسلمين عن أساتذتهم القدامى من ناحية، كما أنهم لم يتركوا للتعصب

فرصة جرمانهم من الإفادة من جهود المترجمين المسيحيين من ناحية أخرى. ذلك أن «الرغبة في المعرفة» كانت تميز موقف المسلمين كما كانت نقيضاً لموقف «الخوف من المعرفة» لدى المسيحيين في غرب أوروبا. وهكذا كان موقف المسلمين من علوم القدماء، ومن المترجمين والعلماء المسيحيين من أهم العوامل التي أسهمت في بناء الحضارة العربية الإسلامية. وهذا ينبغي أن نؤكد على حقيقتين غاية في الأهمية من وجهة نظرنا: أولاهما؛ أن الصورة التي ترسمها المصادر التاريخية، التي تركز جُلَّ اهتمامها على الصدام العسكري بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية المسيحية لم تكن دقيقة في كل الأحوال؛ إذ كان هناك نوع من التعايش السلمي المشترك إلى حد ما، وكان هناك قدر من التفاعل والاعتماد المشترك بعيداً عن نواتر الحكم.

وثانيتهما: أن صورة الرومي، أو البيزنطي، في التراث العربي الإسلامي كانت أفضل كثيراً من صورة الفرنجي، أو الأوربي الغربي. ويمكن تفسير ذلك في ضوء ما نعرفه عن أن الغرب الأوربي في تلك الفترة كان بمثابة «منطقة سوداء مجهولة»، من الناحية المعرفية، بالنسبة للمسلمين بسبب الفوضى الناجمة عن الغزوات الجرمانية التي استغرقت الفترة ما بين القرن الخامس والقرن السابع أي قبل ظهور الإسلام، وتسببت في تمزيق أوروبا في ظل انهيار السلطة السياسية المركزية منذ سقوط روما سنة ٤٧٦م. ثم الحروب الاقطاعية التي مزقت أوروبا حتى القرن الحادي عشر على الأقل. لقد كانت أوروبا الغربية والشمالية بالنسبة للعرب والمسلمين مناطق غير جديرة بالاهتمام؛ فقد مزقتها الحروب

الإقطاعية، وكانت مجتمعاً متخلفاً متعصباً ضد «الآخر» سواء كان ذلك «الآخر» ماثلاً في المسيحية الأرثوذكسية (التي اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية كنيسة مهرطقة خارجة عن الإيمان القويم، وبلت نروة العداء قمتها في ذلك الانشقاق الكبير بين الكنيستين الذي حدث سنة ١٠٥٤م) أو في الشعوب الأوربية التي كانت ما تزال على وثنياتها في شمال أوروبا ووسط أوروبا ، ولم يشعر المسلمون بالحاجة إلى معرفة «الفرنجة» ولم يعرفوه فعلاً على نطاق واسع سوى من خلال الحركة الصليبية التي بدأت منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حسبما ستوضح فيما بعد .

هكذا ، كان هناك تصور غامض لدى كل من المسلمين والمسيحيين الأوربيين عن الآخر ، وكان هناك إحساس متبادل بالبعد المادي والمعنوي؛ جغرافياً وثقافياً ، لدى كل من الجانبين ، في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام . وكانت الأحداث العسكرية تفرض نفسها على الصورة العامة؛ ولكن الحقيقة لم تكن مطابقة للصورة العامة. إن هذه المرحلة التي يطلق عليها البعض مرحلة «الجهل» بالآخر لا تنطبق سوى على العلاقة بين العالم الإسلامي، وأوروبا الغربية الكاثوليكية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنسحب على العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الشرقي البيزنطي، كما لا يمكن أن تنسحب على بول عالم البحر المتوسط المسيحية التي عرفت المسلمين وخيرتهم عن قرب.

(٣)

التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق التاريخية

لا بد أن نتوقف قليلاً هنا أمام الفكرة الشائعة في الكتابات التي ترجع إلى تلك الفترة وتصور انقسام العالم إلى جزئين يفصل بينهما خط رفيع هما دار الإسلام والعالم المسيحي؛ وعلى المستوى المعرفي تمت ترجمة هذه الصورة المصطنعة إلى مجموعة من المفاهيم الواسعة تتحدث عن ديانتين متعارضتين ، وعن ثقافتين مختلفتين، وحضارتين متخاصمتين . وفي هذا السياق الإيديولوجي صار «الاسلام» و «عالم المسيحية» مفهومي مجريين يحملان معنى أوسع وأشمل ، ولم يعودا مجرد إسمين لديانتين مختلفتين. ووجه الخطورة هنا أن هذا المفهوم ليس محدداً في مصطلحات تاريخية؛ ومن ثم متغيرة ، بشكل واضح؛ وإنما تم تحديده بالتمانج الظاهرة غير القابلة للتغير مثل : الدين ، أو اللغة أو الميراث الثقافي. لم يكن هذا الموقف الإيديولوجي قاصراً على الغرب الأوربي وحده وإنما كان هناك موقف شبيه له على الجانب الإسلامي ؛ فقد تحدث الفقهاء المسلمون عن «دار الحرب» و« دار الإسلام» ولم يكن حديثهم في إطار المصطلحات والحدود الجغرافية ، والحقائق التاريخية ، وإنما في سياق ديني تحكمه مفاهيم

المواجهة بين قوتين متخاصمتين . وقد غنت كتابات الفقهاء المسلمين من ناحية ، وكتابات علماء اللاهوت المسيحيين من ناحية أخرى، هذا التصور الإيديولوجي لاتقسام العالم. ولكن الأحداث التاريخية الحقيقية كشفت عن تهافت هذا التصور المجافى للواقع التاريخي.

هذه الرؤية ، حسبما يرى بعض الباحثين ، التي افترضت وجود الحدود بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» بالنسبة للمسلمين ، أو «الإسلام» وعالم المسيحية بالنسبة للغرب الأوربي ، قد بُنيت على أساس مصطنع تماماً وتتجاهل الدور الذي لعبته الإيديولوجيا في التعريفات والمفاهيم التي طورها الكتاب في العصور الوسطى . بيد أننا نجد هنا قدراً كبيراً من الاختلاف والتباين بين الموقف الإسلامي والموقف الأوربي الكاثوليكي. فقد كان الفقهاء المسلمون ، وليس المؤرخون هم الذين طرحوا فكرة «الحدود» بين دار الإسلام ودار الحرب. وحفلت كتب التاريخ الإسلامية المعاصرة بالتفاصيل التي تنقض هذه الفكرة من أساسها من ناحية، كما أن المؤرخين المسلمين لم يقولوا الحوادث التاريخية التي دونوها داخل هذه الفكرة من ناحية أخرى. ولكن ما حدث في الغرب كان مختلفاً ؛ فقد كان مؤلفو المؤرخات الأوربية من القساوسة والرهبان. وكانت من تقاليد الكتابة «التاريخية» في ذلك الحين أن يكتب التاريخ كما يجب أن يحدث وفقاً لتصورات الكنيسة ، وليس كما حدث بالفعل .

ولدينا مثال على ذلك في حولية إسبانية عنوانها Cronica Profetica تقول إن الرب أعلن للنبي حزقيال أن الرب سوف يهجر اسماعيل (أي

المسلمين) وأن ياجوج سوف يهزمه في النهاية. وكان تفسير النبوة أن ياجوج يمثل شعب الفيزيقوط الذين كانت إسبانيا أرضهم التي عاشوا فوق ترابها حين نجحوا في انتزاعها لأنفسهم في غمار حركة الغزوات الجرمانية ؛ وبسبب خطاياهم تعين عليهم أن يدفعوا الجزية إلى المسلمين . وقال المؤلف الذي كان يكتب سنة ٨٣٣م إن هناك نبوءات تقول بأنه في غضون أشهر قليلة سوف ينتهي حكم العرب وسيعود السلام إلى الكنيسة الإسبانية . ومرت سنة ٨٣٣م ولم تتحقق النبوة بطبيعة الحال . ومع هذا، فإن فكرة أن ياجوج كان يحكم الشمال، وإن الغاصب إسماعيل (أى المسلمين) كان يحتل بقية البلاد، ظلت باقية بطريقة أو بأخرى لتكون أساساً لفكرة الاسترداد Reconquista التي صارت مصطلحاً دالاً على الحرب التي شنها الكاثوليك الإسبان ضد المسلمين في الأندلس.

فإذا ما نظرنا إلى الجانب الإسلامى فى الأندلس نجد الصورة معاكسة تماماً؛ إذ إن الكتاب المسلمين استخدموا كلمة بعينها للإشارة إلى الخط الفاصل بين العالمين الإسلامى والمسيحى وهى كلمة «ثغرة» (وجمعها ثغور). وهى كلمة مثيرة تماماً لأن ابن منظور فى «لسان العرب» يعرفها بأنها شريط الأرض الذى يفصل «دار السلام» عن «دار الحرب» ؛ ومن ثم فإنه بعد الخروج من «الثغرة» يصير الجهاد فرضاً على كل حاكم مسلم . وتؤكد النظرية السياسية الإسلامية على أن أحد الواجبات الرئيسية للحاكم المسلم أن يدافع عن الثغور ويمدها بما يلزمها من قوات . وإذا كان الكتاب الأندلسيون فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى قد تملكهم فكرة

الشرعية الدينية والسياسية لحكامهم (الذين أقاموا دولة منفصلة عن الخلافة العباسية التي قامت سنة ١٢٢ هـ على أنقاض الخلافة الأموية) فإنهم لم يفوتوا الفرصة لكي يبينوا كيف حرص الأمويون في الأندلس على القيام بواجب الجهاد دفاعاً عن دار الإسلام.

ولكن الحقيقة التاريخية تأبى الانصياع لمزاعم الإيديولوجية الدينية . وذلك أن المثال الإسباني نفسه يكتب هذه الإيديولوجية على الجانبين . فقد أثبتت الدراسة أن الذي سكن شمال شبه جزيرة أيبيريا لم يكن بأجوج ؛ وإنما عصابة من الشعوب البدائية التي لم يكن هنغها الدفاع عن المسيحية (لأنهم لم يعتنقوا المسيحية سوى في القرن الثامن الميلادي) وهو ما يجعل الفكرة الإيديولوجية عن الحدود الإسلامية- المسيحية تتداعى وتتهار.

ومن ناحية أخرى، فإن فكرة الحدود، أو الثغور ، قد نشأت في مشرق العالم الإسلامي أساساً، وكان لها معنى خاص للغاية في النظرية السياسية الإسلامية ارتبط بالجهاد وواجب حماية هذه الثغور بالرياطات (مفردها رباط) التي كانت تحصينات تلوى المحاربين للمسلمين الذين مزجوا بين واجباتهم العسكرية والحياة الدينية القويمة. وعلى الرغم من هذه الصياغات البلاغية الواردة في كتب الفقه، فإن الأمر لم يكن كذلك على مستوى الوقائع التاريخية. ففي أعالي بلاد الشام حيث الحدود المشتركة بين المسلمين والبيزنطيين، كان المسلمون يأخذون بزمام المبادرة ضد الروم «البيزنطيين» بحيث قرضوا حصاراً طويلاً على القسطنطينية أكثر من مرة. كما كانت لكل مدينة في الشام وأسيا الصغرى تحصيناتها

وقلاعها التي تنتمي إلى قنترات سابقة على ظهور الإسلام ، بل وعلى وجود القسطنطينية نفسها . كما أن سكان مناطق «الثغور» هذه كانوا مزيجاً من المسيحيين والمسلمين . ومن ناحية أخرى، فإن هذه المناطق شهدت تبادلاً بين المسلمين والبيزنطيين في حكم هذه المناطق وهو ما يعنى في التحليل الأخير أن سكان الجانب المسلم لم يكونوا جميعاً من المسلمين ، وإنما كان بينهم عدد كبير من المسيحيين ، كما أنه كان هناك عدد كبير من المسلمين يعيشون في الجانب البيزنطي؛ بل إن القسطنطينية نفسها كان بها مسجد وحى للمسلمين.

ولم تكن حدود العالم الإسلامى ، أو العالم المسيحى، محددة على أساس من العقائد الدينية؛ سواء على الحدود مع الروم في الشرق ، أو مع أوروبا في الغرب . فقد كانت الجماعات الدينية المسيحية تعيش تحت الحكم الإسلامى في آسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق ومصر... وغيرها . وكانت بعض هذه الجماعات تعيش في مناطق «الثغور» في أعالي بلاد الشام كما كان الحال في الرها وأنطاكية وفي الموانئ البحرية شرق المتوسط.

وفي الأندلس ، أيضاً، لم تكن الثغور تمثل خط الدفاع عن دار الإسلام، بل كانت حدود الأندلس متداخلة مع حدود المناطق المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، كما كانت خليطاً مريباً ومشوشاً من التناقضات . والواقع أن هناك أدلة كافية توضح أن الجماعات المسيحية كانت تعيش في قلب الثغور في الأندلس الإسلامية، وهناك عدد من الوثائق التاريخية

التي تُبرز هذه الحقيقة . وهنا نجد شرحاً يتسع بإطراد في البنيان الإيديولوجي لفكرة الحدود الإسلامية - المسيحية. إذ أسهمت الحوادث السياسية والاجتماعية في المنطقة إسهاماً حاسماً في تشكيل موقف كان في حالة من السيولة الدائمة في ثغور الأندلس. ففي تلك المنطقة واجه الأمويون، في دولتهم الأولى وفي دولتهم الثانية، الممالك المسيحية البازغة والعائلات الاستقرائية التي احتلت قطاعات كاملة في مناطق الحدود وحكمتها حكماً مستقلاً . ومن المثير أن بعض تلك العائلات كانت من أصول عربية ، وكان البعض الآخر من أصول بربرية ، على حين كان بعضها من أصول قوطية؛ مثل أسرة بني قصى (٧١٤-٩٢٤م) التي كان جدها الأعلى كاسيوس (ت بعد ٧١٥م) من الفيزيقوط Visigoths. ولم يسبب له الفتح الإسلامي إزعاجاً كبيراً ؛ فقد اعتنق الإسلام واحتفظ بأراضي دوقيته الصربية التي وسعها خلفاؤه وضموا لها أراضي أخرى . وحتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ظلت تلك الأسرة عنواناً على عدم اتساق الفكرة الإيديولوجية عن الحدود الإسلامية المسيحية، كما بقيت تلك المنطقة عمومًا تفتقر إلى التجانس الضروري لجعلها منطقة حدود فاصلة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الكاثوليكي في أوروبا الغربية.

فإذا عبرنا جبال البرينيس وجدنا مثلاً معاكساً ؛ ففي سنة ٨٩١م استولت جماعة من الغزاة العرب على قرية جارد فرينيه -Garde-Frei-net، بالقرب من فريجوس Frejus (فراكسينتوم Fraxinetum)، وحصنوها . وقد ازدهرت هذه المستوطنة (العربية المسلمة) على مدى فترة

طويلة من الزمان باعتبارها قاعدة للإضرارات التي شنها سكانها على المناطق المجاورة . ويشرح المؤرخ لويثيراند الكريمنى الموقف بقوله :

«أهل البروفتسال الذين كانوا أقرب الجيران لأولئك الناس بدأوا يختلفون فيما بينهم بفعل الحسد .. ولأن كل فريق لم يستطع أن يجد ما يشفى حسده، فإنهم استدعوا العرب أنفسهم لكي يساعدهم ؛ وهم قوم بلا دين وأهل مكر ودهاء» .

وقد ميّز لويثيراند بين مختلف القوى العربية الإسلامية؛ وكان فى هذا أكثر حرصاً من غيره. فقد كان من رأيه أن الأغلبية الذين جاعوا من تونس ليستوطنوا جنوب إيطاليا كانوا أسوأ من عرب «جارد- فرينيه».

هنا نصل إلى نقطة فارقة فى تحطيم الصورة الأيديولوجية عن الحدود الفاصلة بين «عالم الإسلام» و«عالم المسيحية» ؛ ففي القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى كان المسلمون، بالنسبة للأوروبيين مجرد عامل عادى من بين عدة عوامل حكمت مسير الحوادث التاريخية فى ذلك الحين. فقد كانت التحالفات بينهم وبين المسلمين آنذاك أمراً عادياً. ولم يكن المسلمون، بالضرورة ، هم الذين يستفيدون من هذه التحالفات ؛ لأنهم كانوا مجرد عنصر واحد من العناصر الأجنبية التى عرفها الأوروبيون فى ذلك الحين، ولم تكن المواقف الأيديولوجية التى تبلورت فى القرون التالية سوى ثمرة من ثمار الدعاية المعادية النزقة التى سبقت الحروب الصليبية وواكبتها . ولم تكن تعبيراً عن حقائق التاريخ أبداً . فلم تكن هناك قطيعة سياسية بين عالم الإسلام والغرب المسيحى من ناحية، كما أن الحرب لم

تكن هي العلاقة الوحيدة بين الجانبين قبل عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى .

إذ كانت هناك علاقات من نوع ما بين بعض السلالات الحاكمة في أوروبا والحكام المسلمين ؛ فقد كانت الأسرة الكارولنجية تنبئ عجباً عندما تظن أنها دولة عالمية وترى نفسها في صورة كوزموبوليتانية. ففي سنة ٦٩٢م تباهى بييبن الثاني، هرستال Pepin II Herstal (٦٤٠م - ٧١٤م) الذى كان عمدة القصر وصاحب السلطة الفعلية في مملكة الفرنجة الميروفنجيين ، بأنه استقبل السفراء من كل الأمم المجاورة «اليونان، والرومان، واللبارديين، والهون، والسلاف، والمسلمين». وذلك قبل قيام الدولة الكارولنجية.

كما أن الحكام العرب في الأندلس غالباً ما كان يرد ذكرهم في الحوليات المعاصرة، وكانت أسماؤهم معروفة جيداً ؛ مثل أسماء الأباطرة والقادة البيزنطيين على الأقل . ، وقد سجلت المصادر التاريخية أن الملك الكارولنجي استقبل حاكم سرقسطة وغيره من الحكام العرب المسلمين في الأندلس، وفي ذروة حكم شارلمان Charlemagne (٧٤٣-٨١٤م) ، تسجل الحوليات أنه في سنة ٧٩٧م، تم استقبال الأمير المسلم عبدالله الذى كان هارباً من حكم أخيه في المغرب، في عاصمته آخن، وفي سنة ٨١٧م استقبل الإمبراطور شارلمان مبعوثى حكام الأندلس الذين أمضوا الشتاء في عاصمته آخن.

بيد أن أشهر روايات العلاقات بين العرب والأوربيين في تلك العصور هي تلك التى تتحدث عن علاقات هارون الرشيد وشارلمان . ولكن المصادر

التاريخية العربية لم تذكر شيئاً عن ذلك . ويشك البعض في أن تكون هذه العلاقات كانت قائمة حقاً ، وأن المفاوضات بينهما قد حدثت بالفعل ؛ ولكن الأوربيين يعتقدون أنها حدثت ، وأن هارون الرشيد أرسل سفارة بالفعل محملة بالهدايا ، وكان من ضمنها فيل كان عبوره جبال الألب قد تسبب في مشكلة كبيرة حسبما يؤكد إينهارد Eighnard ، كاتب سيرة شارلمان Vita Karli Magni Imperatoris . وعلى الرغم من الشكوك التي تحوم حول قصة السفارة والهدايا والعلاقات بين الخلافة العباسية وشارلمان ، والتي ترى أن هارون الرشيد لم يكن ليحفل بدولة متخلفة صغيرة نائية على حين كان هو زعيم أكبر دولة في العالم - على الرغم من هذا ، فإن القصة تكشف عن أن نوعاً من العلاقات الإيجابية كان قائماً بين عالم الإسلام وعالم المسيحية آنذاك .

وبالنسبة لشارلمان ، وأسلافه ، وخلفائه كانت هناك حروب ضد المسلمين في المنطقة التي صارت فرنسا فيما بعد ؛ ومثلما كان الحال في برشلونة وسرقسطة ، لم تكن هناك حدود واضحة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية ، وإنما كانت تلك حروباً بين الجيران . ولم يكن من غير المألوف بالنسبة للنبله المسيحيين أن يتحالفوا مع حلفاء من العرب ، كما كان من المعتاد أن يطلب أحد المتمردين العرب مساعدة حاكم مسيحي ضد أحد الحكام المسلمين في الأندلس . والمعركة الشهيرة التي انتصر فيها شارل مارتل Charles Martel (٦٩٠-٧٤١م) على المسلمين في معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه Tours-Poitiers) ، ساندته فيها الدوق إويديو

Eudo دوق أقطانيا ، الذى كان قد دعا عبد الرحمن الداخل من قبل «... لكى يدافع عنه...» ضد شارل مارتل حسيما تذكر حوليات ميتز Metz. وليس هناك كاتب حوليات أوربى عاش فى تلك الفترة تناول أحداث الحروب التى جرت فيما بعد بين المسلمين والمسيحيين حول أقيتيون ، وناربون، ونميس Nimes على اعتبار أنها نوع من الحرب المقدسة؛ بل إن حولية الملوك الفرنجة تذكر فى أحداث سنة ٨٢٠م أن المعاهدة التى كانت قد عُقدت مع العرب فى الأندلس صارت بلا فائدة ، وأن الهجوم المسيحى كان انتهاكاً لها . هنا نجد نغمة حيادية لا تتوافق مع الهيستريا الإيديولوجية فى زمن الحروب الصليبية. وتتضح النغمة الحيادية نسبياً قرب نهاية القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى فى الحوليات والمؤرخات الكارولنجية ؛ ومع أن الفرنجة كانوا مشتبكين بالفعل مع المسلمين فى عهد شارل مارتل ، كما أوضحنا ، فإن خطر المسلمين عليهم آنذاك لم يكن شديداً . وهنا نجد تفرقة بين المسلمين فى المصادر الكارولنجية ؛ ففي «الحوليات الملكية الفرنجية» وفى «سيرة شارلمان» نجد إشارات إلى المسلمين فى الأندلس باعتبارهم من الأعداء ، على حين يُشار باحترام إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى الذى تقول الحولية إنه «هارون ملك الفرس Aaron roge Persarum أو «إمبراطور الفرس».

ومع أن إنجلترا كانت «بعيدة» كما أشرنا فى الصفحات السابقة ؛ فإن واحداً من أشهر الكتاب الرهبان فى دير جارو Jarrow ، وهو بيديه Bede (Beda) (٦٧٣-٧٣٥م)، قد كتب عن المسلمين الذين كانت دولتهم أخذة فى الإتساع على أيامه . وفى البداية تميزت كتابات بيديه عن

الإسلام بحيادية نسبية تقل فيها العداوة عما حملته الكتابات اللاحقة؛ ولكنه تخطى عن حياديته مع بداية الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية واقترب خطر المسلمين من الجزر البريطانية؛ فاعتبر المسلمين أعداء المسيح، وأتباع الشيطان Fuciffer الخاطيء، كما اعتبرهم شعباً بلا جذور يعيشون حياة التجوال.

كما أنه ابتهج كثيراً لهزيمة المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي على أيدي جيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل في معركة تور - بواتييه (بلاط الشهداء) سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م.

هذه، باختصار، ملامح رد الفعل المسيحي ضد ظهور القوة الإسلامية الجديدة في عالم البحر المتوسط، ورؤية المسلمين للمسيحيين في هذا الدور أيضاً. حقاً كان المسيحيون يزعمون أن الإسلام ديانة زائفة (مع الاعتراف بأنه ديانة توحيدية لاسيما من قبل المسيحيين الشرقيين)، كما كان هناك وعي بالمخاطر السياسية التي يمثلها انتشار الإسلام وتوسع الدولة الإسلامية في المصادر المسيحية الشرقية والغربية على السواء؛ ولكن لغة الكتابة في تلك المصادر لم تكن على درجة العنف الهيستيري التي شهدتها فترة الحروب الصليبية على أية حال. ومن ناحية أخرى، كانت آراء المسلمين ومواقفهم تجاه العالم المسيحي (البيزنطي والغربي) تتسم بالاعتدال والفهم حسبما أشرنا. ولم تكن الفكرة الإيديولوجية من الحدود الفاصلة بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» فكرة يساندها الواقع التاريخي سواء على الحدود في مناطق الثغور بين المسلمين والبيزنطيين في الشرق، أو بين مسلمي إسبانيا ومسيحيي أوروبا في الغرب.

وهنا لابد أن نضع في اعتبارنا أن الذين كتبوا عن وجهة النظر المسيحية الأوروبية كانوا في الغالب الأعم من الرهبان ورجال الكنيسة الذين حكمتهم الاعتبارات الدينية لا الوقائع التاريخية الحقيقية . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الكثير من هذه الكتابات كان يتوخى ما يجب أن يكون وفقاً للرؤية المسيحية للتاريخ ، وليس بحسب الوقائع التاريخية التي وقعت بالفعل . كانت المواقف الأوروبية ضد الإسلام والمسلمين في تلك المرحلة تنقسم بالعداوة؛ ولكنها كانت عداوة ناجمة عن الجهل والخوف ، وإن بقيت متعلقة بدرجة ما . بيد أن «الجهل» و«الخوف من المعرفة» كانا من أهم خصائص الموقف الأوربي آنذاك؛ وربما يمكننا تفسير هذا من خلال إحساس أوروبا بالدونية إزاء العالم الإسلامي نظراً للتفوق الإسلامي الساحق على المستويات العسكرية والاقتصادية والفكرية في تلك الفترة من تاريخ العلاقات بينهما .

وعلى الجانب الإسلامي، شهد القرن السابع الميلادي / الأول الهجري حركة الفتوحات الإسلامية الهائلة التي استمرت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين الثاني والثالث الهجريين وفي هذه المرحلة المبكرة أقبل المسلمون على ترجمة تراث الحضارات القديمة كما أشرنا ، وكان تفاعلهم مع الديانتين الأقدم متوازناً في إطار من الحقوق والواجبات التي نظمها «عقد النمة» مع أتباع اليهودية والمسيحية . ولكن الأمر اللافت للنظر أن المسلمين بفضل إيمانهم بأن الإسلام هو آخر الرسالات السحاوية لم يكن لديهم ما يدعوهم إلى النظر للوراء ؛ فاتهم بعض الفقهاء اليهود والمسيحيين بإخفاء أجزاء من العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس ، أو

إساءة تفسيرها ، وقالوا إن هذه الأجزاء كانت تنبئاً بقدوم النبي محمد رسولاً من الله إلى البشر أجمعين . ولكن سلوك المسلمين تجاه «أهل النعمة» على مستوى الواقع كان طليئاً ؛ فقد عاشوا حياتهم وتمتعوا بحرياتهم الدينية والاجتماعية ؛ بل إن بعضهم شغل مواقع الوزارة والحكم والإدارة العليا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

(٤)

التطورات التاريخية قبيل الحروب الصليبية

ومن المؤكد أن التغيرات السياسية التي جرت فيما بين القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وأواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ، قد حولت صورة العلاقات بين الطرفين إلى صورة أشد التهاباً . ففى تلك الأثناء كانت التطورات السياسية فى المنطقة العربية قد شهدت قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام لتكون خلافة شيعية منافسة لدولة الخلافة السنية فى بغداد، ثم ظهور الأتراك السلاجقة ليتولوا حماية بغداد السنية ضد أطماع القاهرة الشيعية . وكانت بلاد الشام بمثابة المجال الحيوى للتنافس السياسى والعسكرى بين الخلافة السنية والخلافة الشيعية بالشكل الذى ترك آثاره السلبية الخطيرة على الجغرافيا السياسية لبلاد الشام وفلسطين، وسهل مهمة الحملة الصليبية الأولى ؛ التى جاءت إلى المنطقة العربية فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كما شهدت الهزيمة القاسية التى ألحقها الأتراك السلاجقة بالبيزنطيين فى معركة مانزكرت أو ملانكرد ؛ ثم نمو السلطة البابوية بعد الإصلاح الجريجورى فى أوروبا الغربية على حساب السلطة الإمبراطورية، وانتشار الأفكار والمشاعر الألفية والأخوية المقرونة برحلات الحج الأوروبية

إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين - وقد أدى هذا كله إلى الانتقال من مرحلة العداوة المتعقبة نسبياً الفاجمة عن الجهل والخوف من المسلمين فى أوروبا الغربية إلى مرحلة الهياج والهجوم الهيستيرى من جانب الكتابات الدعائية الأوروبية تمهيداً للحملة الصليبية الأولى وتبريراً لشن مثل هذه الحرب على المسلمين فى المنطقة العربية شرق المتوسط.

وعشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسى والتناحر العسكرى مخيماً على العالم العربى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فقد كان المسلمون فى المنطقة موزعين بين الخلافة والسنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة . وإلى جانب النزاع والتخاصم بين الدولتين الكبيرتين ، كانت أحوالهما الداخلية مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام - وهى المجال الحيوى الذى كان مسرحاً لمنازعات الجانبين - تشهد حالة من التشرذم الفسيفسائى بحيث باتت كل مدينة كبيرة فى بلاد الشام وفلسطين آنذاك دولة مستقلة تحت حكم أمير عربى، سنى أو شيعى ، أو من الأتراك السلاجقة . وكانت مشاعر الشك المريرة تحكم هذه الكيانات السياسية الهزيلة بحيث صارت قنينة سهلة عندما جاءت الجيوش الصليبية لتجد بعض هذه الكيانات السياسية الهزيلة يساعدها ضد البعض الآخر.

كانت الخلافة العباسية منذ ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) تحت حكم الأتراك السلاجقة الفعلى بعد أن نجحوا بزعمامة طغرل بك فى إخماد محاولة الفاطميين للسيطرة على بغداد من خلال تلك المؤامرة الخائبة التى دبرها البسياسيرى. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن جيش الإنتقاذ السلجوقى

تحول إلى جيش احتلال ، كما يحدث دائماً ، وصارت المنطقة ما بين فارس وخراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تدين بالولاء الإسمي للخليفة العباسي ؛ ولكنها كانت تحت الحكم الفعلي للأتراك السلاجقة . وأخذ الأتراك السلاجقة يتوسعون باتجاه الشمال والغرب على حساب الأرمن والدولة البيزنطية ، وعندما كانت قوات ألب أرسلان تطارد قلول جيش الإمبراطور البيزنطي المهزوم رومانوس ديوجينيس ، وأسره بعد الهزيمة الساحقة في مانزكرت (رجب ٤٦٣ هـ / أغسطس ١٠٧١ م) كانت قوات «أتسز بن أوق» أحد القادة التركمان في خدمة الخلافة العباسية، قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين.

في خضم هذه المنازعات التي ألفت بالمنطقة العربية في حال من السيولة السياسية، لم يكن هناك ما يشير في المصادر التاريخية العربية إلى أن المسلمين كانوا يعرفون شيئاً عن تلك التطورات الجارية في الغرب الأوربي، والتي تمثلت نتيجتها النهائية في خروج الحملات الصليبية إلى فلسطين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. إذ لم يكن العالم المسلم في تلك الأثناء يشعر بالحاجة أو الرغبة في معرفة أحوال أوروبا التي كان يرى فيها منطقة متخلفة لا تستحق الاهتمام. كما أنها لم تكن مصدر خطر داهم على الرغم من إدراك المسلمين لما كان يجري من أحداث في الأندلس .

كانت أوروبا طوال القرن الحادي عشر تمرُّ بآهصاصات مرحلة جديدة تمثلت ذروتها في الحملة الصليبية. فقد كانت الأفكار الألفية عن نهاية العالم بعد انقضاء الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب ، والأفكار

الأخرى التي تتعلق بما بعد نهاية العالم من أهم روافد الفكرة الصليبية .
 ففي ذلك الجو النفسى والفكرى الذى ساد أوروبا آنذاك كان من الطبيعى
 أن يتطلع الناس الذين سيطرت عليهم هذه المشاعر إلى ضمان الخلاص
 الذى يرتبط بضرورة الرحلة إلى القدس Iter Heyrosolimitanum . وقد
 تجسد هذا فى ازدياد عدد رحلات الحج من جميع أنحاء الغرب الأوروبى
 الكاثولى إلى بيت المقدس . بيد أن رحلات الحج المسيحية إلى بيت
 المقدس قد أفرزت بالضرورة نمطاً من الدعاية الكاثوليكية النزقة ، وتولد
 عنها نوع من الهجوم الهيستيرى على الإسلام والمسلمين . فقد استقر فى
 الوجدان الشعبى العام فى أوروبا الكاثوليكية آنذاك أن رحلة الحج إلى بيت
 المقدس تتويج لحياة المرء فى هذه الدنيا ، كما شاع بينهم أنه كلما كانت
 رحلة الحاج تمثل مشقة كبيرة كلما زادت فرصة المرء فى الحصول على
 الغفران ، وكان كثير منهم يتمنى الموت فى الأراضى المقدسة بأيدي
 «الكفار» (أى المسلمين) الذين صورتهم الدعاية المحمومة فى أبشع الصور
 التى تفتق عنها ذهن أولئك الذين تولوا الدعاية ضدهم . وقد أمدنا الراهب
 الكلونى رالف جلابير Ralph Glaber بصورة حيّة عن هذا الوضع ...
 فى الوقت نفسه بدأت أعداد لا حصر لها فى التوجه إلى ضريح المخلص
 فى القدس من شتى بقاع الدنيا ، فى أعداد تفوق توقعات أى إنسان . ولم
 يكن الذاهبون إلى هناك من العامة وأبناء الطبقة الوسطى وحدهم ؛ وإنما
 ذهب إلى هناك كثير من الملوك الكبار ، والكونتات ، والنبله . وأخيراً ،
 وهذا شئ لم يحدث من قبل ، انطلق بعض الفقراء . وكان عديون يتحنون
 الموت هناك بدلاً من العودة إلى بيارهم

ومن ناحية أخرى ، رأت البابوية في المشروع الصليبي سلاحاً ياتراً في صراعها ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة من أجل السيادة في أوروبا . فقد كانت البابوية تأمل في تحويل القوى المحاربة الأوروبية إلى قوى تعمل لتحقيق أهدافها السياسية على حساب الحكام العلمانيين . فقد كانت البابوية بالفعل قوة سياسية لها مصالحها الخاصة وأهدافها المستقلة عن أهداف الحكام والمتعارضة معهم أحياناً .

وفي رأينا أن فكرة الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى الأرض المقدسة في فلسطين ؛ إذ لم تكن هذه الفكرة لتطراً على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية ، التي استمرت منذ فترة باكرة حتى أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، قد أدت بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه ، لابد أن تكون تحت سيطرة أتباعه . وكانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أنها الكنيسة الوحيدة على طريق الإيمان الصحيح . ولم يكن السبب في ذلك راجعاً إلى الرغبة في حل المشكلات ومواجهة المتاعب التي كان الصجاج الكاثوليك يلاقونها في السفر بطبيعة الحال؛ ولكن لأن أوروبا التي بدأت تشعر بقوتها من ناحية ، وتقارن بين حالها وحال كل من بلاد المسلمين والدولة البيزنطية المتقدمة من ناحية أخرى، رفضت بقاء هذه المناطق بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين . وهنا انتقلت الصورة في الذهنية الأوروبية من العداء المتعقل إلى الهياج والعداء الهستيري.

ومن الأمور ذات الدلالة أن الكتاب الأوربيين المعاصرين لهذه الأحداث لم يفرقوا أبداً بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين : إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقاً للغاية. ومن ناحية أخرى ، وجدت البابوية ، والمبشرون والدعاة الكنسيون ، والمؤرخون اللاتين « السبب العادل Causa Justa » للحرب؛ على أساس «استعادة» القدس من المسلمين «الكفار» . لقد كانوا يحاكمون زمانهم ، ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التي تنتمي إلى العالم المسيحي، التي يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين الذين كانت الدعاية الكاثوليكية ضدهم غاية في الكرم والسخاء وهي تغدق عليهم كل التهم والأوصاف الشريرة.

(٥)

صورة المسلمين في كتابات الدعاية الصليبية

وينبغي أن نلاحظ أن استجابة الأوربيين الغربيين للحملة الصليبية الأولى لم تعتمد على الكراهية المتصاعدة ضد الإسلام وضد كل ما هو مسلم فقط. إن كانت هناك بالتأكيد أنماط فجة من الدعاية ومن سوء الفهم، فقد صورت الدعاية البابوية المسلمين في صورة مشركين يعبدون الأصنام، كما شاعت قصص وحكايات خرافية عن حياة النبي محمد - بيد أن هذه الأفكار وحدها كانت أقل من ترتقى إلى مجموعة متماسكة من الإنحيازات التي يمكن أن تحرك الناس لكي ينتزعوا أنفسهم من أوطانهم وعائلاتهم ليذهبوا «... في مطاردة خطيرة ومكلفة ضد الأعداء في أماكن نائية...» على حد تعبير أحد الباحثين، ولم يكن معظم الصليبيين الأوائل قد رأوا مسلماً على الطبيعة من قبل، ولكن الصورة القبيحة التي رسمها الدعاة البابويون للمسلمين جعلت أولئك الصليبيين يتوقون شوقاً لقتل المسلمين.

كانت الدعاية سلاح البابوية الأمضى في تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين البارزين في أوروبا. وقد ذكر البابا أوربان الثاني، في خطبته التي ألقاها يوم السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ في كليرمون، الفرسان الفرنج بما اشتهروا به من «شجاعة وتقوى» داعياً

إياهم إلى إتقاذ الضريح المقدس من أيدي المسلمين الذين وصمهم بكل الصفات الحقيرة . فقد ذكر فوشية الشارترى Fulcher de Chartres (كتب فيما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٦م) ، والذي كان قسيساً خاصاً لستيفن بلوا وعاصر ربع القرن الأول من الاستيطان الصليبي في المنطقة العربية ، وكان من الذين حضروا مجمع كليرمون الكتسي سنة ١٠٩٥م ، إن البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) قال «... إن الأتراك ، وهم شعب فارسي (!!) ... استولوا على المزيد من أرض المسيحيين ، وهزموهم في معارك عديدة ، وقتلوا منهم وأسروا الكثير ، ودمروا الكنائس وخربوا مملكة الرب ..» وطالب الفرنج بالقتال ضد هؤلاء «الوثنيين» .

كما أن روبرت الراهب Robert of Rheims ، الذي كان حاضراً مجمع كليرمون أيضاً وكتب سنة ١١٠٧م ، قال على لسان البابا أوربان الثاني «... فقد ورد خبر حزين من البلاد المحيطة بالقدس ومن مدينة القسطنطينية ... مؤداه أن شعباً من مملكة القرس ، وهم جنس أجنبي ، غريب عن الرب تماماً ، جيل لا يضع قلبه على طريق الحق ، وروحه ليست مخلصه للرب ، قد غزا أرض أولئك المسيحيين ، وأخضع الناس بالسيف ، والتسمير والحريق ، كما حمل بعضهم أسرى إلى بلاده وذبح البعض الآخر في وحشية ، كما سوى كنائس الرب بالأرض ، أو استخلصها ليعارس فيها شعائر نيافته . هؤلاء القوم نسوا مذابح الكنائس بممارساتهم الخرقاء ، وقد أجروا عمليات الختان لمسيحيين ، وكانوا يسكبون نساء الختان على المذابح أو يصبونها في أواني التحميد . وقد شقوا بطون من

اختاروا أن يعذبوهم بالموت البطئ المثير للاشمئزاز... فعلى من إذن تقع مسئولية الانتقام من هذا ؟ وعلى من تقع مهمة الخلاص من هذا الموقف ، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب، دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب ، وقوة الجسد، وقدرتكم على مقاومة من يتعرض لكم ؟».

وتجد مثل هذه الأقوال فى رواية جيوبرت النوجنتى -Guibert of Nogent (الذى كتب سنة ١١٠٨م) ويلدريك الدوللى Boldric of Dol (الذى كتب حوالى سنة ١١٠٨م) وغيرهم ممن كتبوا عن خطاب أوربان الثانى. ومن المهم أن نلاحظ أنهم جميعاً كتبوا ما تصوروا أن البابا كان يجب أن يقوله فى هذه المناسبة ، ولم يسجلوا كلمات البابا الحقيقية ، ولكن الأهمية الحقيقية للنصوص التى كتبوها تتمثل فى كونها تصوصاً كاشفةً للملامح الصورة التى شكلها الهجوم الوحشى لفظياً على المسلمين ودينهم فى غمار الجو الهيستيرى الذى صاحب الحركة الصليبية طوال تاريخها . وفى الغرب الأوروبى آنذاك ، كان الشائع أن النبى محمد عليه الصلاة والسلام ساحر، وماجن جنسياً ، وزعموا أن النين الذى جاء به ليس سوى صورة كاريكاتورية شريرة من المسيحية أو أنه إلهام شيطانى من المسيح الدجال لقد كانت الشائعات الشريرة ، والحكايات الكاذبة والمعلومات الخاطئة ، منتشرة فى كتابات دعاة الحركة الصليبية ، كما انتشرت فى أوساط الكتاب المحترفين الذين بالغوا فى ردود أفعالهم تجاه حكايات هذه الشرور الشرقية المزعومة.

كان هذا الغطاء الدعائي الوحشي الظالم ضرورياً لتبرير الحرب باسم الدين زمن الحروب الصليبية . وقد عرفت أوروبا في أثناء القرن الثاني عشر إحساساً جديداً بالوعى الشخصى أو الجماعى حفز كلاً من رجال الكنيسة والعلمانيين على تأكيد هويتهم ، على حين كانت مشاعر الإخلاص للمسيح ومريم العذراء قد أنكت نيران المحتوى العاطفى المتصاعد فى هذا الوعى بالهوية . ولما كانت تلك المشاعر قد ولدت فى مجتمع يحكمه التدين الشكلى الفج، فإن التعصب وكراهية «الآخر» كانت التعبير المناسب عنها . ومنذ القرن الثانى عشر عانى المسيحيون الذين يعتقدون مذهباً غير المذهب الكاثوليكي، واليهود، من كراهية الغوغاء ، ومن الاضطهادات الرسمية التى تصاعدت من جانب رجال الكنيسة والحكام العلمانيين على المسوء . وبطبيعة الحال، كان نصيب المسلمين من هذه الكراهية «الصليبية» فى أوربا نصيب الأسد . لقد كان الإحساس المتزايد بالهوية لدى الأوربيين يتطلب الانفصال عن الآخر؛ أى المسلمين الذين وضعهم بعض الكتاب فى مرحلة أدنى من البشر ؛ لاسيما بعد نجاح المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي فى استرداد بيت المقدس ؛ فقد كتب إمبرواز Ambroise الذى كان من الذين كتبوا عن حملة ريتشارد الأول قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة يصف المسلمين بأنهم «قطعان وضيعة» ، أو «كلاب وضيعة» أو «قطيع الوثنيين» ، أو «الأقراخ الكافرة من نوى الوجوه السوداء» ، أو «الشعب الواضيع لى البشرية الداكنة» . وبالنسبة لكثير من الأوربيين فى القرن الثانى عشر، كان المسلمون مثل اليهود «... كلاباً تنكر المسيح ، ويستحقون الموت والعذاب بجدارة...».

لقد كان هناك رصيد من كراهية الأجانب Xenophobia في ثقافة أوروبا الأصلية . ويتجلى أحد ملامح هذا العداء للأجانب في ذلك التقاوض الحاد بين النظرية القائلة بأن الغرض الصليبي كان تحرير المسيحية الشرقية، والعداء الفعلي الذي كان معظم اللاتين يحسون به تجاه المسيحيين من اليونانيين والسريان والأقباط . فقد أثارت مواجهتهم مع البيزنطيين العدوة السياسية والدينية على كلا الجانبين . وعندما نجحت الحملة الصليبية الأولى في تأسيس مملكة بيت المقدس وعدد من الإمارات في الرها وأنطاكية وطرابلس ، كانت معاملة الصليبيين للمسيحيين العرب والمسيحيين الشرقيين عامة، مهينة على نحو واضح.

إن كراهية الأجانب تتجلى في أحداث الحملة الشعبية التي سبقت حملة الأمراء في المجر وفي أوروبا الوسطى والشرقية ، فقد مارس أتباع والتر المفلس Walter Sans - Avoire نوعاً من السلب والنهب والعنيف في بلغاريا جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون أعداداً كبيرة منهم. وهو الأمر الذي تكرر مع جيش بطرس الناسك في مدينة «سملين» على الحدود المجرية- البيزنطية، وفي مدينة نيش Nish . وهاجمهم الجيش البيزنطي وقتل جنوده الكثير من رجال بطرس الناسك وأسروا منهم عدداً كبيراً . ومن ناحية أخرى كتب المؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرثة Gesta Francorum والذي كان فارساً في جيش بوهيموند النورمانى في الحملة الصليبية الأولى : «... ومكثنا بضعة أيام نحاول شراء المؤن والأطعمة ، ولكن السكان رفضوا أن يبيعوا لنا شيئاً ، لأنهم كانوا يخافوننا كثيراً ،

فقد ظنوا أننا لسنا حجاجاً ، واعتقدوا أننا لصوص نهايون جئنا نخرب الأرض، ونقتل الناس ولذلك استوليتا على الثيران والخيول والحمير، وكل ما وجدناه ، ثم تركنا كاستوريا ومخلنا بالاجونيا؛ حيث كانت قلعة للهراطقة . وهاجمنا المكان من كل جانب وسرعان ما سقط في أيدينا وأشعلنا فيه النيران التي أحرقت القلعة بسكانها سوياً ...» حقاً إنهم لم يكونوا لصوصاً نهايين !!! هنا تتجسد كراهية الأجانب في سلوك الصليبيين تجاه المسيحيين في البلقان أثناء الحملة الصليبية الأولى الذي كان مزيجاً من الرعب والكراهية ؛ نهب ، واغتصاب ، واغتتيال ومعارك حقيقية . وبسبب كراهية الأجانب قتل الصليبيون في معاملة الإمبراطور البيزنطي باحترام ، كما فشلوا في كسب احترامه . وفي هذا السياق لم يكن هجومهم الوحشي على المسلمين في كتاباتهم غريباً ، ولاسيما وأن سلوكهم الفعلي كان وحشياً تجسد في المجزرة الرهيبة التي جرت على سكان القدس والمجازر الأخرى التي ارتكبوها في جميع الأماكن التي احتلوها على الرغم من عهد الأمان التي بذلوها لسكان تلك الأماكن ، كما تجسّد في القسوة التي اتسم بها سلوك الصليبيين تجاه الأهالي في الأماكن التي غزوها ؛ حتى بمقاييس العصور الوسطى التي جمعت بين الوحشية والتدين الشكلي. يقول فوشيه الشارترى ، القس الذي صاحب جيش بلدوين إلى فلسطين ، وهو يصف مجزرة القدس : « ... وكثير من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان (المسجد الأقصى) هاربين أصابتهم السهام في مقتل فمقطوا من فوق السقف. وتم ذبح حوالي عشرة آلاف في المعبد، ولو أنك كنت موجوداً هناك لفأصت قبماك

حتى العقبين في بقاء المذبوحين . ترى ماذا أقول ؟ إننا لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة. ولم ينجُ حتى النساء والأطفال ...».

هذه الصورة الوحشية التي يتباهى بها قس كاثوليكي من الصليبيين ، كانت تغطيها غمامة كثيفة من التصورات المنحازة ، والأوصاف الظالمة للمسلمين ، فهو يقول في سياق الرواية نفسها «... فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات ، كما أنهم لم يكوّنوا يسمحون للمسيحيين بالنحول» إنه يبرر المذبحة التي جرت في رحاب المسجد الأقصى .

إنه التبرير الذي قام على أساس وصف «الآخر» وتبرئة الذات . وهناك قسيس آخر ، هو بطرس توديبود يقول إن مسلمي القدس صنعوا ، أثناء الحصار الصليبي للمدينة المقدسة، صليباً خشبياً «... يشبه الصليب الذي قدى المسيح فوقه العالم عندما سُفك دمه عليه، ثم سببوا للصليبيين ألماً شديداً عندما لَحَقُوا بضريون الصليب بالعصى ورهشمونه على الأسوار، أمام أعين الجميع ...» وعندما ذكر وليم الصوري هذه الحادثة بعد جيلين أضاف إليها أن المسلمين بصقوا على الأشياء المسيحية المقدسة، وذكر أن هذه الأمور تكررت في خضم أحداث الحملة الصليبية الثانية.

ومن المثير أن بعض المصادر التاريخية العربية أشارت إلى بعض أنماط الدعاية الأوربية ضد المسلمين في سياق الدعوة للحملة الثالثة التي دعت لها البابوية رداً على تحرير القدس ، بعد معركة حطين ، التي قضى فيها الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الجيش الصليبي.

إذ إن المؤرخ ابن شداد ، الذي كتب سيرة صلاح الدين لاحظ مدى خضوع الأوربيين للدعاية الصليبية بعد سقوط القدس في أيدي المسلمين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وكيف أن هذه الدعاية قامت على رسم صورة تمثل مدينة القدس «... وبها كنيسة القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وصور القبر وصور عليه قارساً مسلماً قد وطئ قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر...» ويستمر ابن شداد قائلاً «... وأظهرت هذه الورقة في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم مسوحهم ، وينادون بالويل والثبور ... وللصور عمل في قلوبهم...».

ولكن التصور الأوربي للإسلام في عصر الحروب الصليبية ، بكل ما يحمله من قسوة وحدة هسييتيرية ، لم يكن نتاجاً للكتابات التي حملتها كتب مؤرخي تلك الفترة فقط بطبيعة الحال . ففي مجتمع تسرى فيه الأمية على نحو ما كان جارياً في أوربا آنذاك ، لا يمكن الاعتماد على الكلمة المكتوبة ؛ وإنما على الكلمة المسموعة . وهذا نجد أن الشعر الشعبي ، الذي كان يتم إنشاده في التجمعات الشعبية ، كان بديلاً إعلامياً مناسباً وفعالاً ، خاصة وأنه كان ينشد على أنغام الآلات الموسيقية . وقد عرفت تلك الفترة ميراً ضحماً كان في حقيقته تاريخاً شعبياً موازياً للتاريخ الذي كتبه المؤرخون من القساوسة والرهبان . وإذا كانت التواريخ المكتوبة قد حملت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية لأن مؤلفيها كانوا في الغالب الأعم من رجال الكنيسة والرهبان الذين عرفوا بتعصبهم وضيق أفقهم ؛ فإن التواريخ الشفوية التي كانت تُنشد وتروى شفاهة حملت القراءة الشعبية

للأحداث التاريخية، كما عبرت عن ملامح الصورة التي تكونت في الوجدان الشعبي الأوربي عن «العدو» أي الإسلام والمسلمين . هذه التواريخ الشفوية عُرفت ، عموماً ، باسم أغانى الحروب الصليبية *Chansons de Croisades*.

لقد ترك الشعراء المسيحيون كثيراً من الملاحم الشعرية والقصائد والأغانى ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية . ومن المعلوم أن الأرمن قد تحمسوا للحملة الصليبية الأولى وساعدوها كثيراً لدرجة أن أول إمارة صليبية قامت في الشرق كانت في الرها ، فقد تحمس حاكمها المسن ثوروس Thoros الفرنج لدرجة أنه تبني الأمير الصليبي بلدوين من إمارة اللورين الأدنى، وقد رد بلدوين جميل الحاكم الأرمني ثوروس بأن سمح للمتأمرين ضد الحاكم المسن بأن يقتلوه . وصار بلدوين حاكم الإمارة الصليبية . وقد وجدت الجيوش الصليبية مساعدة كبيرة من الأرمن حسبما يروى المؤرخ الأرمني متى الرهاوى (Matieu d' Eddesse) ، وحسبما ذكر قوشيه الشارترى . وهناك شاعر أرمني يسمى سان نرسيس الرحيم (Saint Nersés le Gracieux) كتب مرثية بمناسبة سقوط الرها التي استعادها عماد الدين زنكى من الصليبيين هو وابنه نور الدين محمود سنة ١١٤٤م بعد أن ظلت في أسرهم حوالي ست وأربعين سنة . وتعتبر قصيدة سان نرسيس الوثيقة الوحيدة التي تصف حصار الرها على أيدي جيش عماد الدين زنكى؛ وهي من النوع الملحمي وتتألف من ألف وثلاثمائة وخمسين بيتاً . ويهمننا من هذه القصيدة الملحمية أن الشاعر جعلها على

لسان المدينة التي تناشد الأخوة المسيحيين أن يهبوا لنجدتها أمام جبروت المسلمين التي تتحارب القصيدة ضدهم في قسوة ، وتصفهم بأوصاف قبيحة أبدعها الخيال الشرير الذي حكمته العداوة والكراهية الهيستيرية. وربما يمكن تفسير هذه العداوة والكراهية في ضوء المصدمة الناجمة عن سقوط الرها، أول إمارة صليبية ، وما كان يحمله هذا من نثر الشؤم والشر.

وثمة شاعر آخر، ابن شقيق نرسييس ، وهو البطريق جريجورى الابن Le Patriarch DGh'a ، كتب مرثية في بيت المقدس بعد تحريرها على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وتقع في ألفين وثلاثمائة وأربعة وتسعين بيتاً . وهنا أيضاً نجد جريجورى يتشد على لسان المدينة المقدسة، التي يجعلها تقول:

أنا القدس العتيقة

عاصمة فلسطين

ومركز العالم الرئيسى

نقطة الدنيا الأساسية

ثم تبدأ القصيدة في الحديث عن صلاح الدين الأيوبي ، ومعركة حطين، ولكنها تخلط عن عمد ، وفي قسوة ، بين القائد المسلم وبين المسيح الدجال. وكانت هذه الفكرة التي تخلط بين صلاح الدين الأيوبي والمسيح الدجال من أهم ملامح الصورة العدائية التي أفرزتها كتابات الكتاب المسيحيون الكاثوليك زمن الحروب الصليبية .

ففى غرب أوربا كان الشعراء ، ولاسيما الفرنسيون منهم، قد تركوا لنا مجموعة من الأشعار والأغاني التى تصلح لأن تكون مقياساً للفكرة الصليبية فى الوجدان الأوروبى؛ منذ البداية حتى نهاية الوجود الصليبي على الأرض العربية . هذه الأشعار والأغاني كانت نوعاً من القصائد التى تحمل ملامح التصورات الغربية لما كان يجرى فى ساحة الحروب الصليبية من جهة ، وتحمل تصورات الشعراء لما كانت عليه أوربا من جهة أخرى . وأولى هذه القصائد الشعبية التى لاتعرف لها مؤلفاً لأنها تراث جماعى، تلك القصيدة المعروفة بالأنشودة أنطاية *La Chanson d'Antioche* . ويمكن أن نستنتج من كثرة عدد المخطوطات التى تحمل نصوصاً مختلفة لهذه الأنشودة أنها كانت منتشرة على نطاق واسع فى غرب أوربا عامة، وفى فرنسا بصفة خاصة. وفى هذه القصيدة نقرأ أن الحملة الصليبية كانت بأمر من الرب نفسه، وأن الفرنج هم الشعب الذى اختاره الرب لكى ينتقموا لموته ويخلصوا ضريحه من الكفار (أى المسلمين) ؛ وهى هنا تنسجم مع خطبة البابا أوربان الثانى فى كيرمون بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، لكن القصيدة تحاول تبرير الحملة الصليبية باعتبارها حرباً عادلة "*Bellum Justum*" ، وهو ما يريده المؤرخون الصليبيون مثل جيورجى النوجنتى، والمؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنج *Gesta Francorum* ، وفوشيه الشارترى وغيرهم من المؤرخين الصليبيين . هنا نجد نعمة تبرئة الذات، وتمجيد العمل البطولى ضد الآخر الذى يحمل مسئولية الحرب بسبب شروره وخطاياها.

وتعكس هذه القصيدة أيضاً إحساس الفرنج بأنهم الشعب المختار *Peuple élu* أى أنهم الأداة التى اختارها الرب لتنفيذ إرادته ، وتحرير ضريحه من المسلمين الذين كانت القصيدة سخية فى إغراقهم بالصفات الكريهة . ولقد كانت أنشودة أنطاكية انعكاساً أميناً للتفكير الشعبى فى أوروبا القرنين الحادى عشر والثانى عشر؛ فهى تتحدث عن «الانتقام» الذى كان «الرب المصلوب» قد أمر المؤمنين بتوقيعه على «الوثنيين المخنولين». والفكرة الصليبية تبدو حية قوية فى ثنايا أنشودة أنطاكية؛ بحيث تعكس الحال الوجدانية فى أوروبا الكاثوليكية قبيل الحملة الصليبية الأولى وفى أثنائها . كما أنها تشي بصورة الآخر- المسلم فى ذهن الأوربيين، والموقف الوجدانى الكاره والمعادى لهذا الآخر المسلم.

ومن المهم أن نشير إلى أن الأغاني والقصائد الشعبية حول الحركة الصليبية كثيرة متنوعة، وربما يكون السبب وراء هذا راجعاً إلى ازدهار الشعر الشعبى فى شمال فرنسا وفى جنوبها (مع بداية تكون اللغات المحلية على حساب اللغة اللاتينية التى كانت اللغة الوحيدة للكتابة حتى ذلك الحين) . فضلاً عن أن الكتابة التاريخية بالشعر كانت تهدف إلى تلبية حاجة ثقافية للمجتمع الفرنجى الذى كانت تسوده الأمية آنذاك؛ فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعراً لمن لا يعرفون اللاتينية من ناحية ، ولا يعرفون القراءة بآية لغة من ناحية أخرى . ومن سوء الحظ أن الصياغات الشعرية التاريخية لم تصلنا ؛ إما لضياعتها بسبب طبيعتها الشفوية وارتباطها بمشروع مؤقت كان مآله الفشل فى نهاية الأمر، وإما

بسبب التغيرات الكثيرة التي طرأت عليها ، بسبب طبيعتها الشفوية أيضاً ، بحيث وصلتتا فى صياغات مغايرة تماماً لصياغتها الأصلية.

وتحمل أنشودة أنطاكية الأوصاف السلبية للمسلمين والاسلام التى تحملها كافة أغاني الحروب الصليبية : لقد كان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ، ونذير شؤم للأوروبيين . لذا سارعت أوروبا إلى تقديم العون إلى الصليبيين المستوطنين فى المنطقة العربية . وكانت الدعاية - التى كانت الأغاني جزءاً أساسياً فيها- هى المعادل الموضوعى للاستعداد العسكرى لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين.

لقد كانت محاولات «عماد الدين زنكى» ثم ابنه وخليفته نور الدين محمود، بداية حركة الاسترداد الإسلامية فى المنطقة العربية ، وبلغت قممتها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذى استطاع أن يوحد الجبهة العربية الإسلامية، وأنزل بالصليبيين هزيمة فاصحة فى معركة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. وكانت الحملة الصليبية الثالثة تجسيدا لرد الفعل الأوروبى تجاه استرداد المسلمين بيت المقدس، وجاء على رأسها ثلاثة من رؤوس أوروبا المتوجة الكبيرة ؛ فرديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا المسن، وفيليب أغسطس ملك فرنسا اللاهى المخادع، وريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا المتهور المتوحش ، وقد سبقت هذه الحملة وصاحببتها حملة دعائية هائلة ضد المسلمين ، وضد دينهم، وضد صلاح الدين الأيوبي نفسه.

وهناك عدد من أغاني الحروب الصليبية تدور حول الحملة الصليبية الثالثة، وهى لا تختلف كثيراً فى مضمونها عن الأغاني السابقة التى تتخلل

ضمن نطاق أغاني الحروب الصليبية. ولكن هذه الأغاني تتميز بأنها قصائد قصيرة من ناحية ، كما أنها من ناحية أخرى تحمل نغمة التهديد للمتقاعسين تعلو في هذه الأغاني. وتتصاعد فيها فكرة الانتقام لسقوط بيت المقدس بأيدي المسلمين :

إذا تركنا هذا المكان لأعدائنا الفانين
ستكون حياتنا عاراً إلى الأبد

لقد كان سقوط القدس في أيدي المسلمين نذير سوء للغرب الكاثوليكي وإنذاراً باكراً بسقوط الكيان الصليبي بأسره . وكان رد الفعل الثقافي والفكري عنيفاً بقدر ما كان رد الفعل العسكري المتمثل في الحملة الصليبية الثالثة قوياً . وقد حملت أغاني الحروب الصليبية أصداء هذا وذاك. وإلى جانب ما حملته هذه الأغاني من الموضوعات الصليبية التقليدية ، تتردد أصداء الصدمة التي أصابت الغرب الأوربي بسبب استرداد صلاح الدين القدس. وتلفق هذه الأغاني الكثير من التهم الكاذبة للمسلمين وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي؛ فيقول أحد الشعراء الذي كتب قصيدة عن معارك صلاح الدين واسترداد القدس إنه قتل خليفة مصر (الفاطمي) وكان عاشقاً لامرأة متزوجة هي امرأة نور الدين محمود الذي تقول الأنشودة إن صلاح الدين دس له السم، وتتهمه بأنه وراء موت نور الدين أيضاً .

وهناك عدة قصائد عن الحملة الصليبية الخامسة التي دما إليها البابا إنوسنت الثالث، ثم البابا هنريوس الثالث، وكان هدفها الاستيلاء على

مصر : ولكن الحملة فشلت واضطر الصليبيون إلى الهروب بأرواحهم سنة ١٢٢١م . وكان من نتائج الحملة الفاشلة أن وقع عدد من الدوقات والكونتات الألمان والفرنسيين أسرى فى أيدي المصريين. وهناك قصيدة تستحث فردريك الثانى هوشتشتاوفن على الذهاب إلى الشرق والتظلي عن زخرف الدنيا :

لكن أصبحنا إلى ما وراء البحر
لأن هذه الأشياء كلها سوف تهلك يوماً ما
ولا يهلك ربنا

ومن أمثلة الروايات التاريخية الشعرية الشعبية عن الحروب الصليبية تلك القصيدة التى تحمل عنوان «أنشودة القدس - La Chanson de Je-rusalem التى تحكى مغامرات جودفري البويونى - Godefroi de Bou-lion فى أثناء الحملة الصليبية الأولى، وفى هذه القصيدة نجد الموقف نفسه الذى يجعل الصليبيين على حق ؛ فإن الرب أمرهم بشن الحرب على الكفار الذين يضطهدون المؤمنين به على حد زعمهم . وهذه الموقف متكرر فى ذلك النوع الشعرى الذى اصطلح المؤرخون ومؤرخو الأدب على تسميته Chansons de Croisade أى أغاني الحملة الصليبية. وفى جزء كبير من هذه الأغاني نجد قصائد حب تتناول موضوعات غرامية مختلفة : مثل الأسى لفراق المحبوبة أو مناجاتها، أو ما شابه ذلك . بيد أنها جميعاً تكشف عن الظروف الوجدانية السائدة ومدى قبح الصورة التى ترسمها هذه الأغاني للإسلام والمسلمين.

ومن هذه القصائد القصيرة نجد أغنية تتحدث عن الحملة الصليبية الثانية؛ فقد كان ملك بيت المقدس الصليبي صبيًا في الخامسة عشرة من عمره ، عندما حدث في عيد الميلاد سنة ١١٤٤م أن قام «عماد الدين زنكي» باسترداد الرها من الصليبيين ، وأعلن لويس السابع ملك فرنسا عزمه على الخروج في حملة صليبية ضد عماد الدين زنكي وابنه تور الدين محمود، ثم خرج لويس فعلاً في الثاني عشر من يونيو ١١٤٧م . وتتحدث الأنشودة عن أن المسلمين استولوا على أرض الرب التي كانت تتم فيها عبادته :

لقد استولوا على الرها، وعليكم إنقاذها

مم يخشى المسيحيون؟

لقد تهبت الكتائب ودمرت

ولم يعد هناك من يضحى للرب

أيها الفرسان ، فكروا في هذا

إن الشعر المعروف باسم «أغاني الحروب الصليبية» يكشف عن صورة جامحة ، نزقة وقاسية ، لموقف أوروبا الكاثوليكية من «العالم المسلم» ؛ ولكنه يكشف من ناحية أخرى عن أنها كانت صورة رائجة متكررة في «أغاني الحروب الصليبية» التي كانت شكلاً من أشكال الكتابة المحلية تظهر فيها الحملات الصليبية باعتبارها موضوعاً منذ حوالى منتصف القرن الثاني عشر قصاصداً . ولم يبق من هذه الأغاني سوى القليل ؛ فالأغاني التي اتخذت من الحركة الصليبية موضوعاً وحيداً لها نادرة

نسبياً ؛ ولكن هناك أغاني كثيرة تلعب فيها الحركة الصليبية دوراً ما ؛ موضوعاً ، أو قصة مجازية ، أو تطويراً لفكرة أخرى . ويذكر أحد الباحثين أن هناك مائة وستة أمثلة من هذه الأغاني باللغة الأوكسيتانية Occitan ، التي كانت اللغة الأدبية في جنوب فرنسا آنذاك، وحوالي أربعين مثلاً بالفرنسية القديمة ، وثلاثين بالألمانية ، ومثال واحد بالإسبانية، وإثنان بالإيطالية.

وربما لم تكن أغاني الحروب الصليبية نوعاً أدبياً ؛ لأن الشعراء ضمنوا إشارات إلى الحملات الصليبية في تنويع كبيرة من الأشكال الشعرية ، ولا يوجد دليل على أن الشعراء ابتكروا أشكالاً جديدة، أو أنواعاً شعرية جديدة، للحديث عن الحروب الصليبية. وكان ازدياد عدد الشعراء التروبادور بعد سنة ١١٦٠م واتساع شعبيتهم هم ونظرائهم في جنوب فرنسا ؛ أي الشعراء التروفر Trouvers ، يعنى انعكاس أحداث الحملة الصليبية الثالثة والحملة الرابعة (التي استولت القسطنطينية) في هذه الأغاني . أما الصلوات الصليبية التي شهدتها القرن الثالث عشر فتعكس في تيار ثابت من الأغاني التي كُتبت معظمها بالفرنسية والألمانية . وما يهتما هنا صورة المسلمين في هذه الأغاني:

هناك أقوام كثيرة قريبة من نسل قاييل ، المجرم الأولى

وليس بينهم شعب واحد يمجد الرب

وسوف ترى من هو صديقه الحقيقي

لأنه من خلال قوة المطهر

سوف يسكن المسيح بيتنا

وسوف يضطر إلى الهرب أولئك الذين يؤمنون بالكهانة والعرافة

وقى أغنية بعنوان Ez grounet wol giede ، ربما كتبت وقت الحملة الصليبية السادسة التي حصل فيها فردريك الثاني على القدس بمقتضى الهدنة التي عقدها مع السلطان الكامل الأيوبي، يتصور الشاعر أنه يكتب من فلسطين خطاباً إلى وطنه :

إذا ما سألوكم كيف تجرى الأمور معنا نحن الحجاج

فاخبرهم عن مدى سوء المعاملة التي لقيناها من الفرثيين والإيطاليين

هذا هو سيب تعبنا في هذا المكان

ونادراً ما نجد في أغاني الحروب الصليبية وصفاً للقتال الفعلي ؛ ولكن هذه الأغاني تحفل بالتفاصيل الدموية لأغراض الدعاية؛ فقد وصف شاعر مجهول كيفية استرداد الخوارزمية الذين كانوا في جيش الناصر داود أمير الكرك (في شرق الأردن) مدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٤م. وعلى الرغم من أنه لم يكن شاهد عيان فقد أطلق لخياله العنان، في القصيدة الواحدة الباقية بالإسبانية :

ثم جاءت السنوات الرقيات،

مكبلات بالأغلال يتقلهن العذاب

يكنن بحرقه في أساهن ويلواهن بالقدس

ويرى المسيحيون أطفالهم يشربون على النار

ويربون زوجاتهم وقد مزقت أثداهن

وتزعت من أماكنها وهن أحياء

... ..

ويجطون من الضريح المقدس اسطبلًا

ومن الصليبان المقدسة أوتادًا في القدس

وهذه الصورة الكريهة عن ممارسات المسلمين المزعومة تعززها صورة

أخرى عن المسلمين تكشف عن الجهل وعن العداء الهستيري السائد في

الوجدان الأوروبي في ذلك الحين:

هؤلاء الكلاب المور (أي المسلمين) سيطروا على المكان المقدس سبع

سنين ونصف

ويساعدهم أولئك القادمون من يابيلون ، ومعهم الأفارقة والقاسيون من

الحيشة

إن المسيحيين قلة، أقل من قطع أغنام

والمسلمون أكثر، أكثر من تجوم السماء

وهناك قصيدة تصف المسلمين جسدياً وصفًا بشعاً؛ تتخيلهم فيه نوعاً

من الوحوش الضاربة وليسوا من البشر ؛ فلجسادهم أجساد الكائنات

الأسطورية Butentrot ، رؤوسهم ضخمة، وعلى العمود الفقري في

منتصف ظهورهم يوجد شعر خشن مثل شعر الخنزير «... وهم جنس لم

يعبد ربنا إطلاقاً ، ولم نعرف شعباً أكثر منهم شرّاً: وجلدهم أشد صلابة

من الحديد، ولا يستخدمون خوذة ولا درعاً، وهم في المعركة قساة بلا إيمان...»

هذه الصورة التي رسمها الشعر الأوربي للمسلمين في زمن الحروب الصليبية تنسجم مع الكتابات التي اتخذت شكل التاريخ والتي كتبها في الغالب رجال الكنيسة من الرهبان والقساوسة . وقد كانت الدعاية سلاح البابوية الحاسم في تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين والعائلات الإقطاعية البارزة في أوروبا . وقد حولت الحروب الصليبية الموقف تماماً في أوروبا ضد المسلمين ؛ فقد تشكلت صورة لهم تستدعي كل المشاعر العدوانية وتصممهم بالبربرية . وهنا يجب أن نضع في اعتبارنا أنه في خضم الحروب الصليبية كانت كل ثقافة مشتبكة في هذه الحروب تصم خصومها بالوحشية والبربرية ، وتنسب إليهم العديد من الصفات الوحشية والسلبية . فقد وصفت أناكومنينا Anna Comnena ، ابنة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس، العاهل البيزنطي الذي تعامل مع الموجات الصليبية الأولى، والتي كتبت سيرة أبيها، تصف خبر وصول الصليبيين إلى الأراضي البيزنطية :

«... لم يكن أليكسيوس قد استراح من مشاغله إلا قليلاً ، وعندما وصلت شائعة عن وصول جيوش فرنجية بأعداد تفوق الحصر، وكان يخشى إغارات هؤلاء الناس لأنه كان قد عرف فعلاً الغضب الوحشي الذي يتسم به هجومهم، كما كان يعرف تقلب مزاجهم واستعدادهم لمعالجة أي أمر بالعنف ... إن الغرب عن بكرة أبيه ، والشعوب البربرية في الأرض

المعتدة فيما وراء البحر الأترياقى حتى عمودى هرقل (مضيق جبل طارق) قد انشعروا إلى آسيا فى أعداد قفيرة ...» وليست هذه الملاحظة الوحيدة فى كتاب أنا كومينا Alexiad على «بربرية» الفرنج على أية حال، كما أنها لم تكن المؤرخة البيزنطية الوحيدة فى ذلك الموقف لاسيما وأن الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م قد استولت على الإمبراطورية البيزنطية ونهبت العاصمة القسطنطينية وارتكبت فظائع كثيرة.

وفى رأى البعض أن استخدام مصطلح «برابرة» على هذا النحو كان أمراً تقليدياً ؛ إذ إن الكلمة تصف ثقافة أجنبية ومؤسسات غريبة، مثلما استخدم الإغريق القدامى هذا المصطلح للدلالة على كل من لا يأخذون بالأسلوب الإغريقى أو يتحدثون اللغة اليونانية . واستخدمها الرومان لتحقير «الآخر» بشكل عام. وفى هذا السياق استخدمها اللاتين فى أوروبا العصور الوسطى ضد المسلمين فى مؤرخاتهم وفى أشعارهم وأغانيهم، على نحو ما بينا فى الصفحات السابقة . فقد وردت كلمات تصف المسلمين من العرب والأتراك Arabes et Turci بأنهم برابرة Barbari ، وأنهم وثنيون Pagani ومن الأفيار gentiles .

ومن المثير أن وليم الصورى William of Tyre (أسقف صور، والمؤرخ الصليبي الوحيد الذى ولد وعاش على الأرض العربية فى فلسطين) كتب بعد حوالى سبعين سنة من الخطبة التى ألقاها أوربان الثانى فى كليرمون ، متخيلاً كيف كان رد فعل الخليفة الفاطمى تجاه الحملة الصليبية الأولى:

«أمير مصر، الذي كان أقوى الحكام الشرقيين ... جمع جيوشاً جرارة قائلاً إن من العار أن شعباً بربرياً من أقاصى الأرض، يدخل مملكته ، ويحتل بالعنف ولاية خاضعة لحكمه ... » لقد استخدم وليم الصوري، الذي كان هو نفسه من نتاج الاستيطان الصليبي ، مصطلح «البرابرة» في سياق كتابته التاريخية للدلالة على قومه ؛ ليكشف عن أن موقف العداء يستدعى، بالضرورة إدانة «الآخر».

كانت هذه الملامح العامة لصورة المسلمين في العقل الغربي في فترة الحروب الصليبية. ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه بالنسبة لغالبية المسلمين والأوروبيين ، لم تكن الحروب الصليبية حروباً عادية بسبب التنافس الاقتصادي ، أو السياسي، أو بسبب النزاع على الحدود الجغرافية؛ وإنما كانت، في نظر كل من الطرفين، «حرب المؤمنين ضد الكفار». وكان من الطبيعي أن يحاول كل منهما تشويه صورة الآخر . بيد أن ما يلفت النظر هنا أنه بينما كان «الاختلاق» والخيال الشرير الناجم عن الجهل، وعدم الرغبة في المعرفة، من سمات موقف الكتابات الأوروبية كما أسلفنا ، كان «الرصد» ، «والتعالي» ، و «العداء» من خصائص الكتابات العربية عن الفرنج زمن الحروب الصليبية بوجه عام.

(٦)

الموقف في العالم المسلم

يمكننا أن نقرر ، بصورة عامة ، أن الحروب الصليبية لم تنتج أى تأثير سلبي من جانب المسلمين تجاه المسيحيين من أبناء البلاد العربية آنذاك . فلم يحدث أى تغيير في وضع أهل الذمة ، بل استمر المسيحيون في حياتهم العادية داخل المجتمعات العربية وتولى عدد منهم مناصب مهمة في الدولة . وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، كان التعايش بين المسلمين والمسيحيين قد أثبت قوته على مدى أربعة قرون . ولانجد في المصادر التاريخية العربية ما يدل على أن المسيحيين المحليين تأثروا سلباً بسبب أحداث الحروب الصليبية سوى بسبب ممارسات الفرنج الكاثوليكي ضدهم، وعدوانهم على كنائسهم وممتلكاتهم . وقد ساعد على استقرار التعايش بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة العربية، أن الصليبيين كثيراً ما هاجموا ممتلكات المسيحيين المحليين واستولوا على كنائسهم . وما كان معروفاً بالضرورة من الاختلاف المذهبي العنيف بين الكنيسة الأرثوذكسية ، والكنيسة الغربية الكاثوليكية . وتاريخ العداء العنيف الذي كان قد وصل إلى الإنشقاق الكبير بين المذاهبين سنة ١٠٥٤ م . جعل المسيحيين المحليين يرون في الحركة الصليبية بالضرورة حركة عدوان خارجي ضد أوطانهم.

على الجانب الآخر نجد الصورة التي عرفها المسلمون عن الغرب تكاد تكون محصورة في الصليبيين الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة في المنطقة العربية، وفي الإسبان الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة أيضاً بعد الفتح الإسلامي للأندلس في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . فقد وصف المؤرخ الأندلسي ابن عيودن القساوسة بأنهم «أشرار» . ولكن الأمر في شرق المنطقة العربية، زمن الحروب الصليبية ، كان مختلفاً . فقد وصف الأصفهاني، الذي كان من رجال صلاح الدين الأيوبي في كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي» الصليبيين بقوله : «... والكفار قد خشنت عرائكهم ، واتسعت ممالكهم .. وقاتلوا جنداً ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ... فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، شقراً كأنما لفحت النار وجوههم ، وهم فيها كالحون ... قد نزع الله الرقة من قلوبهم ... فظاناً، جهنميون كلامهم شرر، وأنفاسهم شواظ ... خلق الله الخلق من طين، وخلقهم من حجارة ...».

لقد كان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال تتسم بالوحشية الشديدة والقسوة، حتى بمقاييس تلك العصور، من أسباب هذه الصورة العنيفة التي رسمتها كلمات عماد الدين الأصفهاني. فقد كانت مذابح أنطاكية ١٠٩٨ م ، ومعرة النعمان ، والبارة، ومذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، والمذبحة التي ارتكبتها ريتشارد الأول (قلب الأسد) ضد أهالي عكا على الرغم من الأمان الذي بذله لهم سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ... وغيرها من الأمثلة، مبرراً لهذه الصورة العنيفة . كما أن أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» يقدم لنا أمثلة أخرى عن وحشية الصليبيين في معاملة الأسرى.

وإذا كانت المصادر التاريخية العربية قد تعاملت مع الصليبيين باعتبارهم من الكفار، فإن ، ذلك لم يكن إنكاراً للمسيحية نفسها ، وإنما كان يعكس التعامل مع الصليبيين باعتبارهم «أعداء» من ناحية، وكفاراً من ناحية أخرى، وقد وردت عبارات مثل : «الكفار» و«العدو المخلول» أو «الإفرتيج لعنهم الله» في كافة المصادر التاريخية العربية المعاصرة أو التي كتبت عن أحداث الحروب الصليبية بمراحلها المختلفة. لقد كان طبيعياً أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الصليبيين من موقف عدائي ؛ وهكذا كان التكفير متبادلاً بين الطرفين.

ولكن هذه المصادر التاريخية العربية لم تخل من السمة الموضوعية التي افترقت إليها المصادر اللاتينية؛ فإن المسلمين لم ينسبوا للديانة المسيحية شيئاً سلبياً ، لأنهم كانوا «يعرفون» المسيحية وكانوا يحترمون المسيح عليه السلام باختياره نبياً ورسولاً ، وليس إلهاً ، كما اعترفوا بمعجزاته التي أوردها القرآن الكريم ، ويُجلون السيدة مريم «أفضل نساء العالمين»؛ وإنما انصب عداؤهم على «الفرنجة» أي المسيحيين الكاثوليك للقادسين من غرب أوروبا دون سواهم . ولكن الفرنج أنكروا الإسلام وهاجموا النبي ونسبوا إلى الدين الإسلامي والنبي أموراً كانت من نتاج خيالهم الشرير ولا صلة لها بالواقع . ومن ناحية أخرى، فإن المؤرخين المسلمين احترموا في عدوهم صفات الشجاعة والبراعة والقدرة القتالية . يقول أسامة بن منقذ عن هذا «... سبحان الخالق الباري، إذا خبر الإنسان أمور الفرنج سبح الله وقدمه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير...» كما أن

ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي تحدث عن قوة احتمالهم، ويتحدث عن شجاعة ريتشارد الأول ملك إنجلترا «... وكان الملعون شجاعاً بامتياز، صاحب رأى فى الحرب، وثبت بين يدي العسكر» وهو «...شده البأس بينهم، عظيم الشجاعة قوى الهمة، له وقعات عظيمة، وله جسارة على الحرب...» وقد شاركت مصادر عربية أخرى فى الحديث عن شجاعة الصليبيين وجسارتهم . وكانت تبدو فيها أحياناً رنة الإعجاب والتقدير لهذه الشجاعة والجسارة.

وقد أدرك المؤرخون المسلمون مدى خضوع الصليبيين للدعاية الكنسية، والحيل التى مارسها بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية منلما حدث أثناء الحصار المزدوج لأنطاكية سنة (١٠٩٨م) بعد أن تملك اليأس من الصليبيين. فقد أورد «ابن الأثير» حكاية الحرية المقدسة «... وكان معهم راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم إن المسيح عليه السلام كان له حرية منقونة بالقسيان الذى فى أنطاكية، وهوبناء عظيم، فإن وجئتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فإلهلاك محقق . وكان قد بفن قبل ذلك حرية فيه وعفى أثرها. وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ... فوجدوها كما ذكر؛ فقال لهم أبشروا بالظفر...» وقد أوردت المصادر اللاتينية قصة الحرية، وكشفت عن كذب القس الذى اخترعها وتمت محاكمته على الطريقة الجرمانية .

لقد كان المقاتل الصليبي متديناً على طريقته، وهو ما لاحظته العماد الأصفهاتى، وابن شداد، وغيرهما. بل إن المؤرخ ابن القلانسى كتب أن

الصلبيين كانوا يحملون معهم إلى ميدان المعركة كنيسة متنقلة . ومن ناحية أخرى، تمدنا المصادر التاريخية العربية بعدد من الأمثلة التي توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج . إذ إن ابن شداد يحدثنا عن أنه بعد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد الأول، وصل عدد كبير من الصليبيين بقصد الحج إلى بيت المقدس وفتح لهم السلطان الباب للحج «... ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يربوهم إلى يافا...» . وكان هدف السلطان «... أن يقضوا وطهرهم من الزيارة، ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن للسلعون شهرهم...» وعندما عرف ريتشارد بالأمر «... صعب عليه ذلك، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانب أو بكتابه . وطم الأفرنجية ذلك فعظم عليهم واهتموا بالحج ؛ فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك مستكبرون...» كما كتب العماد الأصفهاني وصفاً تفصيلياً لصليب الصليبيات الذي ضاع من الصليبيين في خضم معركة حطين، ومدى تقديسهم لهذا الصليب الذي كان محفوظاً في صندوق من الذهب .

كانت هذه بشكل عام ملامح الصورة التي رسمتها كتابات المؤرخين العرب للفرنج الصليبيين الذين تعاملوا معهم على مدى قرنين من الزمان تقريباً ، وربما كانت هذه الصورة قد انسحبت على الأوربيين جميعاً لأنه لم يكن هناك غيرهم من الأوربيين الذين وصفتهم مصادر تلك الفترة ، وكونتها نتيجة لطبيعة التعامل معهم .

على أية حال ، استمرت الصورة المثيرة للفرنج التي تخللت كتابات الطرفين في محاولاتها لتصوير الآخر في صورة سلبية ، على الرغم من أن

الموقف اختلف من الناحية النوعية فى الناحية الأوربية عنه من الناحية الإسلامية. ولكن الموقف الشعبى فى الناحية الإسلامية كان مختلفاً عن موقف المؤرخين الذين كانوا ينتمون بطبيعة الحال إلى النخبة المثقفة . ذلك أن حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة حملت أصداء التأثيرات التى تركتها الحروب الصليبية على الناس فى العالم الإسلامى. فهناك ثلاث حكايات تزيد لياليها على مائتي ليلة من ليالي «ألف ليلة وليلة» وتدور حول الحروب الصليبية ؛ ويلفت النظر أنها تمثل حوالى خمس الليالى ؛ وهى:

١- حكاية الملك النعمان وولديه شركان وضوء المكان

٢- حكاية على نور الدين ومريم الزنارية

٣- حكاية الصعبدى وزوجته الفرنجية

فى تلك الحكايات ينزع الخيال الشعبى نزوعاً عنوانياً نحو الانتقام من الشخصية الأوربية المسيحية؛ فيجردها من أية صفات إيجابية ، ويسرف فى تشويه صورتها الجسدية والأخلاقية ويسخر من رموزها الدينية. ومن يقرأ حكايات «ألف ليلة وليلة» الثلاث فى لياليها المائتين يلمس على الفور ذلك الشعور الواضح بالكراهية والمرارة التى علق بالوجدان الشعبى العربى تجاه الفرنج الصليبيين. ورسمت لهم صورة بشعة تجذعت ملامحها وأجزأؤها المختلفة من حكايات الجنود العائدين من ميادين القتال. ومن روايات اللاجئين الهاربين من مذابح الصليبيين الشهيرة على مدى قرنين من الزمان ، فضلاً عن الأخبار المتداولة فى أماكن التجمعات، ومراكز الإعلام التقليدية فى الأسواق ، وصلاة الجمعة ومصاطب الحوانيت،

ودروس المساجد والحمامات ... وما إلى ذلك . فضلاً عن الأحاديث والخطب التي تتحدث عن القدس ومكانتها وقضيلها، وتحدث على الجهاد، وقصائد الشعراء التي غطت جميع المناسبات . وقد امتزج هذا كله بالخيال الشعبي الذي أعاد قراءة تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر الشعبية وفقاً للحاجات الثقافية- الاجتماعية للناس آنذاك. وقد اختار الخيال الشعبي أبطاله من التجار، وعامة الناس، والبسطاء تجسيداً للدور الغائب في كتابات المؤرخين التقليديين ، الذين كان معظمهم يحمل وجهة نظر الفئة الحاكمة. وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين قادوا الصراع ضد الفرنج الصليبيين في حكايات «ألف ليلة وليلة» التي لانسمع في ثناياها عن الشخصيات التاريخية الحقيقية التي قادت الصراع بالفعل ، وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين وقع عليهم العبء كله في تلك الحكايات الشعبية، مثلما كانوا في الحقيقة وقود الحرب ضد الصليبيين.

من ناحية أخرى؛ فقد تجسدت في حكايات ألف ليلة وليلة الأبعاد الثلاثة التي تصور الخيال الشعبي أن الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين يتمحور حولها :

(أ) البعد العسكري وقيم البطولة والشجاعة واليسالة ، وقد جسدت هذا البعد حكاية «الملك نعمان وولديه شركان وضوء المكان».

(ب) البعد الجنسي الذي جسده حكاية «علي نور الدين ومريم الزنارية».

(ج) البعد الديني الذي بدا واضحاً في حكاية «الصعيدي وزوجته الفرنجية» .

لقد رأى الخيال الشعبي في هذه الحكايات أن المسلمين متفوقون على الفرنج الصليبيين في هذه الأبعاد الثلاثة . وسأقت الحكايات الثلاث في لياليها المائتين الكثير من الأحداث والتفاصيل كي تؤكد على هذا التفوق. بيد أن أهم ما تعبر عنه حكايات «ألف ليلة وليلة» تلك العداوة والكراهية التي وجدت لنفسها متنفساً في الصفات التي خلعتها على شخصها من الفرنج الأعداء وإمعانها في النيل منهم، سواء في صفاتهم الجسمانية وملامحهم الجسدية ، أو من حيث خصالهم وصفاتهم الأخلاقية : فهم قبيحو الخلقة ، أشرار مخادعون . ومن ناحية أخرى تجلّت هذه العداوة والكراهية في السخرية من مقدسات الإفرنج وزعمائهم الكنسيين الذين اتهموا بالكفر وتحريف الإنجيل والكذب على المسيح . ولكننا يجب أن نلاحظ أن الخيال الشعبي لم يقترب من السيد المسيح أو مريم العذراء ، ولم يقدم على إنكار المسيحية الحقّة. لقد انصب العداء على الفرنج الصليبيين ولم يصل إلى الدين نفسه مثلاً فعل الكاثوليك في أوروبا في موقفهم تجاه الإسلام .

ونجد في في حكايات «ألف ليلة وليلة» اتهامات للفرنج بالكفر وتحريف الإنجيل . ومن المثير أن هذه الاتهام تتوافق مع الأوصاف التي ألصقتها المصادر التاريخية فعلاً بالفرنج ، فقد تعاملت المصادر العربية والمؤثّرات الشعبية العربية مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية كافرة. وكان هذا انعكاساً طبيعياً للعداء بين الجانبين . فقد كانت الحروب الصليبية حرباً مثل أية حرب أخرى على الرغم من تسربها بثوب الدين، ومن هنا خلقت مشاعر العداوة والكراهية ضد «الآخر» الذي تدور الحروب ضده . وكان الاتهام بالكفر سلاحاً متبادلاً في دعاية كل من الطرفين ضد الآخر.

لقد تغيرت العلاقات بين «العالم المسلم» و«عالم المسيحية» تغيراً سلبياً مفاجئاً مع قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة العربية ، ثم بعد نجاح الفرنج الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الثلاث الأخرى في الرها، وأنطاكية ، وطرابلس . إذ كانت موجة العداء المتصاعدة بشكل هستيري قد ولدت في الغرب الأوربي الكاثوليكي في غمار الحماية التمهيدية للحملة الصليبية، واستمرت الموجة في تصاعدها لتفجر مشاعر الأوربيين، ولكن التغير السلبي لم يحدث بهذا الشكل العنيف على الجانب العربي الإسلامي سوى بعد أن اكتشف المسلمون أن الفرنج قد جاؤا إلى المنطقة العربية بقصد الاستيطان والبقاء ولم يكونوا قوماً من المرتزقة الذين اعتادوا أن يروهم في خدمة الروم (البيزنطيين). عندها طفت مشاعر العداء ضد الفرنج الصليبيين، لايوصفهم مسيحيين وإنما لأنهم معتدون. ويرى سوثرن Southern أن الحملة الصليبية الأولى لم تجلب المعرفة إلى أوروبا الغربية عن الإسلام والمسلمين وإنما تسببت في العكس تماماً ؛ فقد أدى نجاح الحملة الصليبية الأولى إلى سيادة مشاعر الزهو بالانتصار والاحتقار من جانب الفرنج الصليبيين تجاه المسلمين . وأدى نجاح الحملة إلى تكريس صورة سلبية للإسلام ونبي الإسلام في أثناء السنوات الأربعين الأولى من القرن الثاني عشر كانت تتاجاً لحكايات المحاربين الصليبيين العائدين إلى أوروبا، والمبالغات الخيالية التي حملتها «أغاني الحروب الصليبية» . وقد أخذ الأوربيون هذه الأساطير والخيال الشرير على أنها الحقيقة . إذ إن كل ما كان أبناء الغرب الكاثوليكي يعرفونه آنذاك عن حياة نبي الإسلام عبارة عن شذرات متناثرة نقلها الكتاب الغربيون عن الكتاب البيزنطيين .

على الجانب المسلم ، كانت الصورة التي رسمها الخيال الشعبي عن «الآخر» تحمل قدراً كبيراً من التخيل العدواني، وكذلك كان الحال على الجانب الأوربي . بيد أن أن الرغبة في المعرفة حفزت كلاً من الطرفين على البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه المعرفة . وكانت الفرصة متاحة لأبناء المنطقة العربية من خلال الكيان الصليبي الذي تعرف عليه المسلمون بطريقة مباشرة على النحو الذي كشفت عنه مذكرات أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» ، أو ملاحظات الرحالة ابن جبير، أو خبرات الاحتكاك اليومي في الأسواق والموانئ بين التجار المسلمين وأهالي المناطق التي احتلها الفرنج الصليبيون من ناحية، والمستوطنين الصليبيين من ناحية أخرى.

ولم يكن هناك سبب يدعو العرب والمسلمين عامة إلى تخطي الصليبيين الذين كانوا في جوارهم مباشرة إلى محاولة التعرف على الأوربيين في أوروبا . أما بالنسبة لمسلمي الأندلس والمغرب فقد كانت علاقاتهم بالغرب الأوربي قد وفرت لهم القدر اللازم من المعرفة بأوروبا . وربما كان الإحساس بالتفوق لدى المسلمين في الأندلس حاجزاً حال بينهم وبين الرغبة في معرفة ذلك الجار «المتخلف» في الغرب الأوربي . كانت هناك بالتأكيد صورة عداوية بين الجانبين؛ ولكن الصورة كانت تشبه نقيض الصورة في الشرق العربي. فقد كان مسلمو الأندلس على حافة العالم المسيحي الغربي تكاد تحاصرهم القوى المسيحية منذ القرن الثاني عشر، على حين كان الفرنج في المنطقة العربية محصورين في بحر من السكان العرب المسلمين.

(٧)

ما بعد الحروب الصليبية

حين أدرك الأوروبيون أن المشروع الصليبي في طريقه إلى الفشل والنهاية، أدركوا أن الدعاية ليست وسيلة مناسبة لمعرفة «الآخر» لأنها جعلتهم يتعاملون مع صورة خيالية كانوا هم الذين اختلقوها وروجوا لها. وأرادوا البحث عن «الحقيقة» - ويرى سوثرن Southern أنه لا يجب أن نعتبرنا الدهشة عندما نعرف أن أولى المحاولات الدقيقة لمعرفة الإسلام في الغرب تمت على أيدي رجال ممن أسهموا بقدر كبير من الكتابات الخيالية التي انتشرت في أوروبا آنذاك عن الإسلام والمسلمين؛ ومنهم وليم مالمسبورى William Malmesbury (١٠٨٠-١١٤٣هـ) الذي كان أول من ميّز بشكل واضح بين خرافات السلف وعبادة الأصنام التي كانوا يمارسونها، وبين الديانة الإسلامية التوحيدية؛ على الرغم من أنه كان مولعاً بالحديث عن المعجزات والسحر في مؤلفاته . فقد كان يسبع ضد التيار وهو يؤكد أن الإسلام يعتبر محمداً عليه الصلاة والسلام نبياً من أنبياء الله وليس إنهما للمسلمين .

ولكن تلك المؤشرات الواعدة نحو محاولة الفهم الأوربي للإسلام والمسلمين لم تلبث أن توارت خلف ضباب أنباء سقوط عكا في أيدي

المسلمين بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩١م . معلنة بذلك نهاية المشروع الصليبي على الأرض العربية وفشل أوروبا في صيانة ذلك الكيان الاستيطاني . فقد بدأ الكتاب الأوروبيون عودة سريعة إلى روح العداء والشك وكراهية الأجانب . فقد كتب ريموند لول Roymund Lull موضحاً أن الآمال التي لاحت في العقود السابقة قد تلاشت ، وذكر أنه في حال عودة النساطرة المنشقين إلى حظيرة الكاثوليكية ، واعتناق التتار المسيحية يمكن «تدمير» المسلمين جميعاً في سهولة . ولكنه أبدى مخاوفه من أن يعتنق التتار الإسلام... لأنهم لو فعلوا ذلكم ... فسوف يكون العالم المسيحي عرضة لخطر شديد.

ولكن ما لم يكن يعرفه لول أن أسوأ مخاوفه كانت قد صارت حقيقة . فقد اعتنق قازان ، زعيم التتار في فارس ، الدين الإسلامي ، وعندما اعتلى العرش سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م كان أول مرسوم أصدره ينص على أن الإسلام الدين الرسمي للدولة ، وأن الشريعة الإسلامية أساس نظام الدولة . وهكذا خسرت الكاثوليكية رهاتها في السباق مع الإسلام من أجل احتواء التتار ، وصار التتار قوة إضافية إلى العالم المسلم في آسيا .

وعلى الرغم من أن المشروع الصليبي على الأرض العربية قد فشل بسقوط عكا سنة ١٢٩١م ؛ فإن إعادة الاستيلاء على المنطقة ظل سراً يجذب الأوروبيين تجاهه كل حين ، وتجلت هذه الحقيقة في تلك المشروعات والمخططات الكثيرة التي قدمها أصحابها من السفراء والمغامرين ورجال الكنيسة الكاثوليكية إلى أصحاب القرار من الكنسيين والعلمانيين في أوروبا الغربية ؛ وفي تلك الرحلات الكثيرة التي تدفقت على المنطقة العربية

على مدى القرون التالية ، والتي كان عدد كبير منها بقصد التجسس ومعرفة مواطن الضعف ، وكيفية تحقيق أهداف المشروعات الصليبية المتأخرة ؛ فقد شهدت الفترة ما بين سنة ١٢٠٠م وسنة ١٦٤٠م عدداً كبيراً من الرحلات إلى مصر والأراضي المقدسة. إذ إن ضياع عكا ، آخر موطن لأقدام الصليبيين في فلسطين وبلاد الشام، أهاج موجة أخرى من الحماسة الصليبية عبرت عن نفسها من خلال الحملات الصليبية سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٢٠م كما تجلت في تلك الغارة الصليبية التي شنّها بطرس لوزنيان ملك قبرص الصليبي على الاسكندرية ونهبها سنة ١٣٦٥م، وظلت تلك الروح سائدة حتى أواخر العصور الوسطى.

وقد حملت كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر والأماكن المقدسة في تلك الفترة التي أعقبت تحرير عكا من الفرنج الصليبيين كثيراً من مظاهر العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين؛ لقد كانت الأسباب التي أعادت أوروبا إلى مواقفها الهستيرية من المسلمين في القرن الرابع عشر مرتبطة بالخارج وبداخل الأوربي على السواء . وعلى الرغم من أن القرن الثالث عشر كان قد شهد قدراً من الترحيب بالفلسفة الإسلامية، فإن القرن الرابع عشر شهد تراجعاً واضحاً عن هذا الموقف . ولم يكن هناك أحد في الغرب الأوربي، آنذاك راغباً في أن يتعلم شيئاً من المسلمين ، وسادت مشاعر الكراهية للأجانب في أوروبا بصورة متصاعدة بسبب سقوط عكا أواخر القرن الثالث عشر ونهاية الوجود الصليبي على الأرض العربية من ناحية . وقيام دولة سلاطين المماليك قوة إقليمية كبرى في

المنطقة من ناحية أخرى . أما بالنسبة للأوربيين الذين عانوا وطأة الكنيسة الكاثوليكية والحملات « الصليبية » التي جريتها البابوية ضد خصومها داخل أوروبا نفسها ، فقد صار اسم الفيلسوف المسلم « ابن رشد » مرادفاً للكفر . وعلى الرغم من أن تأثير ابن رشد « الشارح الأعظم » لأرسطو على الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى كان كبيراً بحيث تتلمذ على يديه توماس اكويناس (توما الأكوينى) ، فإن أتباع هذا الأخير رأوا أن مجد توماس اكويناس لا يتمثل في أنه تعلم على يد ابن رشد ، وإنما يتمثل في أنه تغلب عليه في فلسفته . لقد كان هذا الموقف بمثابة « نصف الحقيقة » من ناحية ، ولكنه كان مؤشراً على ما كان عليه الحال في أوروبا وكراهية المسلمين من ناحية أخرى .

ويرى سوثرن أن هذه كانت علامات عصر جديد في أوروبا الغربية؛ فقد أدرك الأوربيون أنه لا يوجد لهم حلفاء في الخارج (بعد فشل سعيهم لتحالف مع المغول وتحول هؤلاء إلى الإسلام، وبعد اكتشافهم زيف أسطورة يوحنا القس Prester John، الذى صورته الأسطورة ملكاً تقع مملكته عند نهاية الأرض حسبما تصورها الأوربيون قرب الحبشة أو أقرب إلى الهند، وسوف يخرج لكى يهزم المسلمين)، كما تفشت الخلافات العميقة بين القوى السياسية الأوربية، ومن بينهما البابوية التى عانت صعوبات متزايدة فى السيطرة على الفكر والثقافة والدين والحياة الأوربية، وأظهر الأوربيون قدراً كبيراً من اللامبالاة تجاه أعدائهم فى الخارج على الرغم من إحساسهم بخطر أولئك الأعداء ، ولاسيما الإسلام

عدوهم الأكبر بطبيعة الحال . والحقيقة أن الزعماء الأوروبيون في القرن الرابع عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد المسلمين. وكان هذا الموقف راجعاً في جانب منه إلى الهزائم الثقيلة التي أنزلها المماليك بالفرنجة المستوطنين ، وبالحملات الصليبية القادمة من المغرب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ولم يكن الناس في أوروبا آنذاك مستعدين لمزيد من المغامرات لصالح البابوية لأن مشكلات الحكم، والاقتصاد ، والثقافة الأوربية امتصت طاقاتهم على حين استنفدت «الحروب الصليبية الأوربية» التي شنتها البابوية على أعدائها في أوروبا ما تبقى من هذه الطاقة.

لقد كانت الحروب الصليبية ميراً ورثته أوروبا في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر عن موجة الحماسة الدينية والتعصب الأخرق الذي اتسمت به زعامة البابوية في القرن الحادي عشر وما تلاه . ومن ناحية أخرى كانت الحملات الصليبية مغامرات عسكرية وسياسية كان لها تأثير عميق ، سيئ ، على الحياة الأوربية في العصور الوسطى؛ إذ إنها أضفت مسحة أخلاقية ودينية على الاتحاد بين القوة العسكرية والتدين العاطفي... ولكن أخطر ما خلفته الحروب الصليبية في أوروبا الغربية كان ذلك الدرس الذي وعاه الأوروبيون جيداً؛ ومؤداه أن القتل والتدمير في سبيل الديانة المسيحية حق. وعلى المدى الطويل عانى المجتمع الأوربي من هذه العقيدة التي جعلت من استخدام القوة العسكرية باسم القيم الدينية أمراً مشروعاً . وقد تم تحويل هذا النموذج إلى التزاوج بين القوة والقيم

والمثل العليا ؛ مثل رسالة الرجل الأبيض ، أو الديمقراطية ، أو غيرها . هذا الإيمان بحق القتل والتدمير في خدمة المثل العليا التي تحددها الدول وفق مصالحها الحقيقية البعيدة عن هذه المثل العليا ، ما يزال قائماً بكل قوته حتى الآن في النموذج الأمريكى وما يرتكبه من شرور في العالم باسم الديمقراطية ، أو مكافحة الإرهاب .

ومن ناحية أخرى، كانت هزيمة المشروع الصليبي من الأسباب الرئيسية التي جعلت أوروبا تشيح بوجهها عن العالم الإسلامى، وتكبت التطلعات المعرفية البارزة . ومثال ذلك ما حدث في مجمع فيينا الكنسى سنة ١٣١٢م ، عندما قرر المجمع أن تتم دراسة اللغة العربية، والعبرية، والسورياتية في كل من باريس، وأوكسفورد، وبولونيا وأفينون، وسلامنكا . ولكن تلك الفكرة لم تلبث أن تلاشت دون أن يلاحظ أحد شيئاً؛ إذ لم تتوافر الأموال أو القوة البشرية لتحويل هذه القرارات إلى واقع . واستمرت المواقف الهستيرية الصارخة سائدة طوال القرن الرابع عشر لاسيما وأن هذا القرن شهد نمو القوة العثمانية التي شكلت تهديداً جديداً لأوروبا على جبهة جديدة . ومن ناحية ثانية انتهت الحملات الصليبية في القرن الرابع عشر ضد العثمانيين بمجموعة من الكوارث ؛ وكانت حملة نيقوبوليس Nicopolis سنة ١٣٩٦م قد انتهت بذبح الآلاف من الصليبيين الأوربيين على أيدي العثمانيين .

لقد استمر التيار العدائى التحتى ضد «الآخر» المسلم عموماً في أوروبا طوال القرن الرابع عشر، وقد تجلى بطريقة أكثر شؤماً في أثناء سنة

١٣٢١م عندما سرت شائعات في أوروبا ، وفي شمال فرنسا بصفة خاصة ، بأن هناك مؤامرة كبرى حيكت بين المجذومين واليهود في أوروبا وزعماء المسلمين في إسبانيا ، على أن يقدم المسلمون المال والسموم للمجذومين واليهود لكي يلوثوا الآبار بحيث يموت المسيحيون أو يصيروا مجذومين . وبرزت الشائعات هذه المؤامرة بأن اليهود يكرهون المسيحيين بالطبيعة ، وأن المجذومين كانوا يريدون الهرب من عار الجذام بتحويل أنفسهم من أقلية إلى أغلبية . أما المسلمون - حسبما قالت الشائعات - فإنهم كانوا يسعون إلى استعادة الأراضي من المسيحيين عندما يصيبهم الوباء والمرض . وقد استخدمت «الاعترافات» التي انتزعتها محاكم التفتيش تحت وطأة التعذيب لكي تتشعب هذه المؤامرة المزعومة ويتسع مداها . لقد عكست هذه الحادثة الشنيعة ، التي أسماها البعض «كابوس متشابك الروابط» مدى التفتيق الشاذ في بناء صورة «الآخر» ؛ إذ تم حشر جميع أعداء المسيحية الكاثوليكية بحيث صاروا في الواقع «عدوًا» واحدًا .

ويرى بعض الباحثين أن من بين الأسباب الكثيرة لانفجار كراهية الأجانب على هذا النحو في أوروبا القرن الرابع عشر ما أصاب أوروبا من إحباط بعد الانتصارات الحاسمة التي حققها المسلمون في الأراضي المقدسة في العقد الأخير من القرن الثالث عشر. وتحول المغول إلى قوة إسلامية مهمة بعد اعتناقهم الإسلام في أواخر القرن أيضًا . فقد شعرت أوروبا بأنها أمام قوة إسلامية متعاضمة .

وعندما قاربت العصور الوسطى نقطة النهاية، كانت أوروبا تعاني من اتساع نطاق الخطر الإسلامي ممثلًا في الدولة العثمانية التي مدت نطاق

سيطرتها رويداً رويداً بحيث استولت على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م وحولتها إلى عاصمة إسلامية . ومع نهاية العصور الوسطى صارت إدانة الإسلام في الرؤية الأوروبية صورة كئيبة متكررة . وبقي الإسلام والنبي محمد عليه السلام لغزاً بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء الغرب الأوربي الذين استسلموا للصورة السلبية التي رسمت ملامحها كتابات النخبة الأوربية التي تحمل من الخيال الشرير أكثر كثيراً مما تحمل من الحقائق الموضوعية . ويكفي أن نشير هنا إلى كثرة عدد الكتب الزائفة التي كتبت عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام بصورة سلبية وزائفة. كما أن دانتى الليجيري صاحب «الكوميديا الإلهية» التي يعتبرها الباحثين الأوربيين سرة النتاج الأدبي الأوربي أواخر العصور الوسطى - على الرغم من ثبوت اقتباسها من نص لابن العربي - قد وضع النبي في الدائرة الشاملة من الجحيم . ولقد عاد التيار العدائي ضد الإسلام في صورة أكثر هيستيرية ليستمر حتى أواخر العصور الوسطى.

أما على الجانب الآخر ، أي في العالم المسلم، فعادة ما كانت السلطات الإسلامية متسامحة تجاه رجال الكنيسة المسيحية وأتباعهم الذين يعيشون في الدول الإسلامية . وهنا ينبغي أن نشير إلى أن العالم المسلم بات يتخذ احتياطات لحماية أراضيه من أي هدوان أوربي محتمل تحت راية الحروب الصليبية ، وحذر الرعايا المسيحيين من مغبة الاتصال بالقوى المسيحية في أوربا وفي الحبشة. ولكن الأمر لم يتعد هذه الإجراءات الإدارية التي لم يكن لها أثر على أرض الواقع . وكانت السلطات في البلاد الإسلامية في

حوض المتوسط تعرف أن النصراني من رعاياها لا علاقة لهم بالقوى الصليبية وعلى الرغم من حملة بطرس لوزنيان الفاشلة على الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥هـ ، وما تركته من آثار سلبية فإن أعداداً كبيرة من التجار المغامرين سعوا وراء حظوظهم فوق مياه البحار وصولاً إلى شواطئ المنطقة العربية ، وإلى جانبهم جاء الحجاج الأوروبيون من كل مكان في أوروبا الكاثوليكية لزيارة المقامات المقدسة والأماكن المقدسة في فلسطين ومصر. وقد شجعتهم اليابوية على الرحيل، ومنحتهم الغفران الذي يتم اكتسابه عند كل مزار أو مكان وردت الإشارة إليه في الكتاب المقدس.

وقد زاد حجم التجارة بين المسلمين والأوروبيين زيادة كبيرة بعد أن طرد المماليك المستوطنين الصليبيين نهائياً من الشريط الساحلي لفلسطين واستولوا على عكا سنة ١٢٩١م. وقد أدى نمو التجارة في القرن الرابع عشر والخامس عشر إلى مناقشات دبلوماسية كثيرة بين المسلمين والفرنج (وهو الاسم الذي أطلقه المسلمون على الأوروبيين جميعاً) بحيث صارت معرفة اللغة مهمة جداً . وقد بدأ أوروبيون كثيرون في تعلم اللغة العربية لأسباب عملية تفعية أولاً ، ثم لأسباب أكاديمية فيما بعد . وعلى أية حال فإن المسلمين لم يكونوا مضطرين إلى تعلم اللغات «الافرنجية» في ذلك الحين، وربما كان السبب في ذلك راجعاً إلى إحساسهم بأن الفرنج أبعد مما يجب وأن ليس لديهم شيء يمكن أن يتعلم منه المسلمون . وعلى العموم لم يكن المسلمون يهتمون بأوروبا واقتصرت معرفتهم بها على التجار

الأوربيين الذين عاشوا شبه منعزلين في «فنادقهم» بالبلاد الإسلامية. وفيما عدا التجارة كانت المعاملات مع الأوربيين غير مرغوبة في كثير من الأحيان . وباتت روايات الرحالة الأوربيين عن المنطقة العربية أكثر عدداً في القرن السادس عشر، عندما تدفق الأوربيون بأعداد أكبر إلى مصر وما جاورها .

وقد حملت هذه الكتابات بعض الحقائق وكثيراً من الخيال عن العالم العربي. ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الرحالة كانوا يهتمون كثيراً بالمواقع المقدسة في رحلاتهم ، ويشكل المدن والمناطق التي يزورونها، لكنهم ناسراً ما تحدثوا عن الإسلام والمسلمين. وعادة ما كان أولئك الرحالة ينظرون إلى ما اعتبروه من «العجائب والغرائب» ولم يكتفوا من الباحثين الذين يفتشون عن الحقيقة، أو الراغبين في المعرفة في غالب الأحوال.

ومع المزيد من توسع التجارة والنشاط التبشيري جاء البحث عن أسواق جديدة، ومع هذا وذاك تعززت الكتابات تدريجياً بتطور اللغات والمفردات في اللهجات الأوربية المحلية والدارجة . وعندما تمت دراسة الكتاب الكلاسيكيين ونشر المعلومات الجديدة عن الأقاليم الجغرافية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين ؛ بزغ فجر أدب الرحلات ، الذي تطور بشكل كبير في القرون التالية. وكانت هذه الكتابات الباكرة تضم أحياناً بعض الخرائط المصورة، أو الرسوم التوضيحية المحفورة على الخشب . ومن ناحية أخرى، لم يؤد أدب الرحلات الذي تطور على هذا النحو إلى تغيير فهم ملامح الصورة التي تكونت في أوروبا عند الإسلام وعن المسلمين.

وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور «الأخر» في وجدان الأوروبيين بشكل عام، ولكن صورة «الأخر» الأوربي في المنطقة العربية بعد خضوعها للحكم العثماني منذ بدايات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ظلت ثابتة نسبياً حتى بداية عصر الاستعمار .

.... وتلك قصة أخرى

خاتمة

فى هذه الدراسة الموجزة حاولنا أن نتتبع الخطوط العامة للتطور التاريخى لصورة الآخر عند كل من العالم الأوروبى الكاثوليكي ، والعالم العربى الإسلامى طوال الفترة التى امتدت من القرن الهجرى الأول / السابع الميلادى ، الذى شهد بداية حركة الفتوح الإسلامية وتكوين ذلك الكيان السياسى والاقتصادى والثقافى الضخم الذى عرفه مؤرخو الحضارات باسم الحضارة العربية الإسلامية، حتى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى الذى شهد بسط السيادة العثمانية على المنطقة العربية وقيام الدولة العثمانية بدور «الآخر» المسلم بديلاً عن القوى العربية فى حوض المتوسط وفي الأندلس التى قامت بهذا الدور فى الرؤية الأوربية طوال القرون السابقة.

ويلفت النظر فى هذه الدراسة ذلك القارق بين موقف القوى الأوربية المتوسطية من ظهور الإسلام وانتصاره ، ثم بروز العالم الإسلامى قوة عالمية عظمى على كافة الأصعدة السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية، والعلمية والفكرية ؛ وهيمنة القوى الإسلامية على البحر المتوسط من ناحية، وموقف القوى الأوربية الغربية والشمالية «البعيدة» من الإسلام فى الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى، كما يلفت النظر أن موقف المسلمين من أوربا الغربية كان تابعاً من موقف القوة المتعالية تجاه أوربا التى كانت فى ذلك الحين مجرد تعبير جغرافى، ومجموعة من القوى

السياسية البدائية تحت حكم قادة الشعوب الجرمانية التي اجتاحت أوروبا فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين. ولم يكن المسلمون - على الرغم من وجودهم في الأندلس وجزر البحر المتوسط وصقلية وجنوب إيطاليا - يرون فائدة من «معرفة» الآخر الأوربي الذي لم يكن لديه ما يقدمه للعالم الإسلامي الغنى والقوى.

في تلك الفترة كان «بعد» المسلمين عن أوروبا الغربية والشمالية بعد هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه) على يد شارل مارتل الملك الفرنجي ، و«بعد» أوروبا عن حركة التجارة فوق مياه البحر المتوسط، أو على طرق التجارة ، وعدم إحساس أوروبا الغربية والشمالية بأن الإسلام يمثل تهديداً وشيكاً ، وراء تلك الصورة التي ارتسمت في مخيلة أبناء هذه المناطق عن الإسلام وعن المسلمين ؛ وهي صورة جمعت بين الجهل والخيال الشرير. فقد اخترعوا صورة «الآخر» المسلم التي تناسب عقول رجال الكنيسة الذين كانوا هم مثقفي ذلك الزمان في أوروبا ، والناس كانوا يرون في محاولة معرفة المسلمين ودينهم نوعاً من اللطس الذي لا ينبغي لهم أن يقعوا فيه. وربما لا تجد واحداً من كتاب تلك الفترة «يعرف» ، أو «يحاول أن يعرف» شيئاً عن هذا الآخر الذي كان جاراً قوياً محسوداً ومخيفاً .

وبينما لم يكن هناك في التراث الثقافي للغرب الأوربي شيء يمكن أن يساعد على فهم الإسلام ، فإن المسلمين كنت لديهم ميزة المعرفة السابقة بالمسيحية، فقد تحدث القرآن الكريم بقدر كبير من الاحترام عن عيسى بن مريم باعتباره نبياً من أنبياء الله، ولد بمعجزة ربانية من مريم العذراء التي

فضلها الله سبحانه وتعالى على نساء العالم. كما أن من أركان الإيمان الإسلامي أن يؤمن المسلم بنبوة المسيح . ولكن الإسلام لا يوافق على القول بالوهية المسيح، أو يكونه ابن الله، كما ينفي حدوث واقعة الصلب ؛ وهي أمور سببت خلافات هائلة بين المسلمين والنصارى . بيد أن هذه الأمور التي اهتمت بها النخبة لم تكن على هذا القدر من الوضوح بالنسبة لعامة الناس على الجانبين . ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك قدر كاف من المعرفة لدى كل طرف عن الآخر بسبب الظروف التاريخية التي حكمت مسار الفكر والثقافة آنذاك .

لقد ظلت أوروبا والعالم المسلم، بالتبادل، أسرى الجهل بالآخر على المستوى الإنساني وعلى الرغم من «معرفة» المسلمين بالمسيحية؛ فإن ذلك لم يكن يعنى معرفتهم «بالأوربي» في حياته الاجتماعية/ الإنسانية ومن ناحية أخرى، فإن الصورة الخيالية التي رسمتها أقلام النخبة الأوربية عن الإسلام والمسلمين كانت تعنى عدم معرفة أوروبا بالمسلمين في حياتهم الاجتماعية / الإنسانية. هكذا كان الجهل والوهم يطبع صورة الآخر بطابعه على الجانبين. إلا أن العداء كان يميز الموقف الأوربي خاصة في مناطق التماس مع العالم الإسلامي. ومع هذا، فإن الصور العدائية على الجانبين كانت نتاجاً للجهل واللامبالاة حتى بدأت الدعاية الصليبية تتصاعد بشكل هستيري ضد المسلمين تبريراً للحرب ضدهم ، ثم نتاجاً للهزائم التي ألحقها المسلمون بالمشروع الصليبي فيما بعد . وعلى الجانب المسلم تكونت صورة سلبية قبيحة للفرنج الصليبيين الذين عرفهم المسلمون عن قرب في خضم الحروب الصليبية، وكانوا هم الأوربيون الوحيدون

الذين كانت «معرفة» المسلمون بهم من قرب وعن خبرة ومعايشة ونتيجة لهذا كان العداء أيضاً من سمات صورة الآخر الأوربي في أذهان المسلمين.

والمثير في الأمر ، أن صورة «الآخر» على الجانبين في عصر الحروب الصليبية لم تكن تتاجاً لكتابات النخبة فقط، كما كان الحال في الفترة السابقة ؛ وإنما كانت ثمرة الخيال الشعبي على الجانبين بكل ما تحمله من مشاعر وأحاسيس وتصورات وجدائية عن «الآخر» وهنا يلفت النظر أن «الآخر» كان محلاً للخيال العدواني ؛ سواء في تلك القصائد التي عرفها الغرب الأوربي باسم «أغاني الحروب الصليبية» *Les Chansons de Croisade* أو في المأثورات الشعبية العربية مثل «ألف ليلة وليلة» وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة السيد أحمد البدوي ... وغيرها . وهنا يجب أن ننتبه إلى أن المشاعر السلبية التي تسربت إلى الموروث الشعبي في تيار ثقافي تحتي مستمر عبر عشرات السنين قد صارت بمرور الزمن جزءاً من الثقافة السائدة لدى الجانبين تجاه الآخر.

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن العلاقات مع «الآخر» على الجانبين لم تكن سلبية في كل الأحوال ، ولم تكن عدائية في جميع الأحيان. فقد كانت الرغبة في «المعرفة» أقوى من مشاعر العداء وهذا ما يفسر لنا حركة الترجمة التي صاحبت قيام الحضارة العربية الإسلامية من جهة ، والنهضة الأوربية أواخر العصور الوسطى من جهة أخرى، اعتماداً على تراث «الآخر». كما أن التجارة والربح كانت أقوى من مشاعر العداء على

الجانبين ؛ فقد تحدث الرحالة المسلم ابن جبير الذي زار المنطقة في أكثر فترات الحروب الصليبية سخونة عن أن «أهل الحرب في حربهم، وأهل التجارة في تجارتهم»، وعلى الجانب الآخر كان التجار الإيطاليون يرون أنهم إيطاليون أولاً ثم مسيحيون ثانياً ، وكانت دفاترهم تفتتح «باسم الربح وباسم الرب».

لقد كانت التجارة والرحلة من أنجع الوسائل المعرفية بالآخر، مثلما كانت الحرب أيضاً وسيلة معرفية ناجعة وفعالة . فقد عرف المسلمون «الفرنج» من خلال الحرب على نحو ما تكشف مذكرات أسامة بن منقذ ، وكتابات ابن شداد ، والأصبهاني، وأبوشامة ، وابن واصل وغيرهم من المؤرخين المسلمين؛ ومثلما تكشف كتابات فوشيه الشارترى ووليم الصوري، وچاك دي فيتري ، وغيرهم من الصليبيين الذين عايشوا المسلمين عن قرب وعرفوا عنهم قدراً كبيراً من الحقائق. فقد شكّا چاك دي فيتري مثلاً من أن الفرنج تعلموا الكثير من ممارسات المسلمين الثقافية ، ونقلوا منهم مظاهر الرقى والتقدم وهو ما أكدته كتابات أسامة بن منقذ في كتابه الذي يحمل عنوان «الاعتبار».

حقاً كانت الحروب الصليبية حرباً مثل أية حرب أخرى، كما أن تلك الحروب ألهمت المشاعر العدائية على الجانبين بالفعل، ولكنها كشفت أيضاً لكل من الجانبين أن «الآخر» إنسان، وأنه يحمل من الخصائص والخصال الإنسانية الحقيقية ما يجعل التعامل معه أمراً ممكناً . ومن المؤكد أن المصادر التاريخية لم تسجل كافة مظاهر التفاعل الإنساني بين الجانبين،

ومن المؤكد أيضا أن انتقال أنماط السكن ، وطرز الملابس، وقوائم الطعام التي تحدثت عنها على استحياء المصادر التاريخية التقليدية، كانت بمثابة الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد. إن الناس في حياتهم اليومية لا يكتفون على الدوام أسرى الأفكار والرؤى الأيديولوجية التي يروجها أبناء النخبة الذين يربطون أنفسهم عادة بمصالح الحكم وطموحاته ؛ وإنما يبحثون عن ما ينفعهم ، ولا شك في أن ما حدث في مناطق الحدود والثغور على أطراف أوروبا والعالم الإسلامي يؤيد هذا ويدعمه .

لقد كان سكان مناطق الحدود بين «دار الإسلام» و«العالم المسيحي الغربي» مزيجاً مختلطاً من المسلمين والمسيحيين الأوربيين والبيزنطيين ؛ سواء على الحدود مع الدولة البيزنطية أو على الحدود بين الأندلس وأوروبا، أو حتى في المناطق التي احتلها الصليبيون في المنطقة العربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. و«الحقائق التاريخية» في هذه المناطق الحدودية تتناقض بشدة مع «التصورات الأيديولوجية» عن دار السلام ودار الحرب من ناحية ، وعن التصورات الكاثوليكية لفكرة «العالم المسيحي» من ناحية أخرى . بل إن محاولات البابوية فرض الحصار على دولة سلاطين المماليك فشلت للأسباب نفسها عندما وجدت الجمهوريات التجارية الإيطالية أن مصالحها لا سيما بعد الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢٢١م لأنها اهتمت كثيراً بالأيديولوجية ، ولم تلجأ بالأحرى إلى الظروف التاريخية الموضوعية التي حكمت أوروبا الغربية آنذاك.

فقد استمرت عقول أوروبا الغربية تنتج «مشروعات» صليبية للعودة إلى فلسطين والمنطقة العربية حقاً، ولكن المصالح المتبادلة والأرباح المادية

حالت دون تحول تلك المشروعات إلى مغامرات عسكرية من ذلك الطراز الذي عرفتته القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. فقد فرضت الظروف الجديدة على الجانبين إعادة النظر في صورة «الأخر» على ضوء مصالحه الحقيقية وعلى ضوء المعرفة الحقيقية ؛ ولذا تم نبذ الدعاية التي كانت تنتج صورة ترضى «الذات» وتغيب «الأخر» وراء ضباب الخيال الشرير. وبدأت محاولات معرفة الآخر في أوروبا منذ القرن السادس عشر تمضي على أسس علمية ومعرفية حقيقية، وكان ذلك واحداً من أهم أسباب نهضة أوروبا أواخر العصور الوسطى.

وعلى الجانب المسلم كانت الأمور تسير في اتجاه معاكس ، وربما كانت الحروب الصليبية ونتائجها قد استنفدت الطاقات الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية في المنطقة العربية على الأقل؛ فقد انتقل خط المواجهة بين الإسلام والغرب إلى جبهة جديدة بعد أن صارت الدولة العثمانية تمثل الإسلام في شرق أوروبا ووسطها. وقد اتسمت هذه المرحلة الجديدة بخصائص جديدة تستحق دراسة مستقلة.

القسم الثالث

مفهوم التسامح بين ثقافتين :

أوروبا والعالم الإسلامي

مقدمة

في هذا القسم الثاني من الكتاب نعالج موضوع صورة الآخر من زاوية مختلفة؛ وهي مفهوم التسامح لدى كل من الجانبين . وعلى الرغم من أن مصطلح التسامح نتاج غربي من حيث ظروفه التاريخية وسياقه الاجتماعي، فإن المصطلح دخل حياتنا الثقافية لأسباب كثيرة يناقشها هذا القسم.

وثمة مصطلحات تفرض نفسها على الخطاب اليومي في الساحة الثقافية على فترات زمنية قد تطول وقد تقصر ، ومع كثرة تكرار مثل هذه المصطلحات يجد المرء نفسه متسائلاً عن حقيقة المعنى الذي تحمله ، أو المعنى (والمعاني) التي يقصدها من يستخدمون هذا المصطلح أو ذاك . وينطبق هذا الموقف أيضاً على الاستخدام الجارى لمصطلح «التسامح» ، هذا المصطلح الذي دخل حياتنا الثقافية ، وفرض نفسه على الخطاب الإعلامي والثقافي منذ سنوات قليلة ، وتصاعد إيقاع استخدامه بعدما جرى في ذلك اليوم من سبتمبر ٢٠٠١م ، ورد الفعل الأمريكي المتوحش تجاه العرب والمسلمين، ثم العدوان على العراق واحتلال أراضيه .

فقد وجد العرب والمسلمون أنفسهم متهمين في ثقافتهم ودينهم وسلوكهم من جانب «الآخر» التاريخي ، في لحظة غفلة تاريخية بما جرى في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وقد صارت عبارة «الحادي عشر من سبتمبر» ذاتها بمثابة العفريت الذي يخيف الجميع، بون أن يعرف أحد

حقيقة هذا العفريت ، إذ إن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ما الذى جرى فى يوم «الحادى عشر من سبتمبر» هذا، ولأن أحداً لا يعرف فقد اكتفى الجميع بالإشارة إلى ما جرى ، دون الدخول فى تفاصيله ، أو محاولة تعريفه ووصفه ، من خلال الإشارة إلى اليوم نفسه ، أى «العفريت». ولأن العرب والمسلمين - ونحن المصريين منهم بطبيعة الحال - كانوا أول من خافوا من «العفريت» ، فقد وقفوا موقف الدفاع عن «التسامح» ، وقبول الآخر. وظن كثيرون منهم أن المشكلة يمكن حلها بذلك الجهد الإعلامى الساذج ، ونسوا أو تناسوا ، أن الموقف من «الآخر» لا يتشكل بين عشية وضحاياها ، أو تحت تأثير دعاية طارئة ، وإنما هو موقف تم بناؤه بسبب التراكمات الثقافية عبر الأجيال ، وبسبب طبيعة التاريخ الثقافى لكل حضارة على حدة.

ومن هنا كان الاهتمام بقضية «التسامح» على أساس تاريخى، وعلى أساس إيديولوجى، لتوضيح حقائق المفاهيم والدلالات التى يتضمنها هذا المصطلح ، وقسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول صغيرة ، إثنان منها يتناولان الإطار النظرى ، والآخران يتناولان نموذجين تاريخيين أحدهما ينتمى للحضارة الغربية الكاثوليكية ، منذ بداية ظهور الكنيسة حتى القرن السادس عشر، والثانى ينتمى للحضارة العربية الإسلامية فى مصر منذ دخول الإسلامى حتى العصر العثمانى . وربما تكون الصفحات القليلة التى يضمها هذا الكتاب حافزاً على مناقشة أكثر اتساعاً لمفهوم «التسامح» .

(١)

في معنى التسامح

«التسامح» مصطلح تردد بشكل لافت للنظر في الأدبيات السياسية خلال السنوات الأخيرة . وقد كثر استخدامه في مجال الحديث عن الجوانب الدينية بشكل خاص ، وربما استخدم على استحياء في الحديث عن «الحوار» والتعامل مع «الآخر» والقبول بالتعددية السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً .

و«التسامح» في اللغة يعنى أن تتغاضى على خطأ ارتكبه آخر، أو التساهل في حق، أو الصبر على إساءة ما . بيد أن المصطلح اتخذ أبعاداً غير الأبعاد اللغوية وصار يعبر عن موقف ثقافي / اجتماعي . وفكرة «التسامح» نفسها تبدو نابعة من ثقافة «غير متسامحة» في جوهرها . كيف ؟!

تبدو المفارقة واضحة من حيث أن هذا المصطلح ينطوي بالضرورة على مفهوم يقول إن هناك «خطأ» أو «خطيئة» ينبغي التسامح إزاءها . وهو ما يشي بدوره إلى أن من يتادون «بالتسامح» يتلقون من موقف منحاز يرى أصحابه أنهم على حق و «الآخر» على باطل ، ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح إزاء هذا الآخر لسبب أو لآخر . ويقودنا هذا بالضرورة إلى

التفكير فى أصول هذا المصطلح ، الآخر ، ومنايعه وأبعاده الثقافية والنفسية والاجتماعية ، إذ إن المصطلح ليس مجرد كلمة تحمل معنى ما ، وإنما هو تعبير عن موقف ثقافى / اجتماعى يرى الذات والآخر من منظور استعلائى ، «ويتسامح» إزاء اختلاف هذا «الآخر» وغيريته . وهو ما يشى بأصول ثقافية / اجتماعية غير متسامحة أصلاً.

والناظر فى تراث الثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، وفى الأدبيات السياسية والاجتماعية بوجه خاص ، لن يجد هذا المصطلح مستخدماً ، وإنما سيجد حديثاً عن الحقوق والواجبات. وفى الإدارة المالية والضرائبية ستجد مصطلحاً مشابهاً هو «المسامحة» بمعنى إسقاط الضرائب المستحقة للدولة نتيجة ظروف طارئة . ولم يدخل المصطلح حياتنا الثقافية سوى فى العقود الأخيرة متسرياً من ترجمات الأعمال الأوربية والأمريكية لينضم إلى قائمة المصطلحات والمفاهيم التى تنتجها الثقافة الغربية ونستهلكها نحن دون وعى !

لقد قامت العلاقة بين «الأنا» و«الآخر» فى الحضارة العربية الإسلامية، على أساس أخوة الجنس البشرى كله من ناحية، وعلى أساس حق «الآخر» فى الوجود والاختلاف من ناحية أخرى . فمن حق الناس جميعاً أن يعيشوا كما يشاءون ، وأن يعتقدوا ما يؤمنون به من عقائد ، بشروط أهمها مراعاة حقوق الآخرين وواجباتهم إزاء هؤلاء الآخرين. والحضارة الوحيدة فى تاريخ البشرية التى سمحت «للاخر» أن يعيش فى رحابها ويبدع ويصل إلى مراتب عليا فى الإدارة الحكومية ، أو فى الحياة العلمية

والثقافية والاقتصادية ، هي الحضارة العربية الإسلامية . فالعلاقة بين «الأناء» و«الآخر» في هذه الحضارة علاقة تمايز واختلاف ، وليست علاقة تميز واستعلاء.

وتكمن المفارقة الواضحة في أن الحضارة الغربية التي أقرزت مصطلح «التسامح» ليست حضارة «متسامحة» إزاء الآخر بأي حال من الأحوال ! فهي حضارة تقوم على فكرة استعلائية مستمدة دينياً من فكرة «الشعب المختار» التي ورثتها المسيحية الغربية (بشقيها الأوربي والأمريكي، أو الكاثوليكي والبروتستانتي) ، عن العهد القديم في الكتاب المقدس، والذي يتحدث عن بني إسرائيل القدماء الذين يزعمون أن الرب اختارهم وميزهم على سائر البشر . فقد قالت الكنيسة إن اليهود نقضوا ميثاقهم مع الرب حين آذوا المسيح عليه السلام وأنكروه، فصار أتباع المسيح هم شعب الله المختار الجديد، ثم حدثت تطورات تاريخية (يرونها الفصل الثالث من هذه الدراسة) جعلت فكرة الاختيار مُسخرة في خدمة للطامع الاستعمارية بشكل أو بآخر ، ولاسيما في تاريخ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن تفسير ذلك من خلال دراسة تاريخ تطور المفاهيم الثقافية الغربية حتى أيامنا هذه .

على أية حال، فإن الحضارة الغربية الكاثوليكية (ثم الكاثوليكية البروتستانتية فيما بعد) قد صاغت مفهوم «التسامح» لحل مشكلات ثقافية / اجتماعية أوربية في أواخر العصور الوسطى، وفي بداية عصر النهضة، بعد أن تفاقمت أزمة الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية نتيجة الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية (التي كانت تتحكم في الحياة الثقافية

والفكرية منذ بداية العصور الوسطى في القرن الخامس الميلادي، وحتى القرن الخامس عشر على الأقل) وبين الذين تمردوا على مفاهيم الكنيسة الضيقة في كافة الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية . وقد أدى تزايد نجاح معارضي الكنيسة وفشل سياسة محاكم التفتيش إلى تراجع الكنيسة ورفع شعار « التسامح » لحل هذه المشكلات .

ثم خرج مفهوم «التسامح» من هذا الجلد الديني الضيق إلى رحابة الحوار الثقافي والسياسي التي نجم عن التطورات التاريخية الموضوعية التي جرت على بلدان أوروبا الغربية (ومن المهم أن نلاحظ أن هذه التطورات لم تكن تسير على خطوط متوازية في كل المجالات، أو بالنسبة لكل بلاد أوروبا) وصار «التسامح» من شعارات الحياة الفكرية في بعض البلاد، ولم يعد ممارسة مقبولة في كل هذه البلاد سوى في القرن العشرين. بيد أن أوروبا مارست «التسامح» داخل بعض بلدانها فقط، ولم تمارسه تجاه «الآخر» غير الأوربي، فقد أثبتت حركة الاستعمار مدى مركزية الفكر الأوربي عامة والنظرة الاستعمارية تجاه «الآخر» في المستعمرات بشكل خاص وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية منذ انغماسها في الشئون الدولية بعد الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً ، مع بداية التسعينيات من القرن العشرين ، صار الشعار مطروحاً بقوة بعدما أثبتت مسألة «صدام الحضارات» ومسألة «حوار الحضارات» التي تشكل القطب المواجه لمفهوم التسامح . فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وجدت الرأسمالية العالمية نفسها بحاجة إلى «اختراع» عدو جديد بدلاً من العدو الأحمر الاتحاد السوفيتي الذي سقط . وفي فترة

ما بعد الحرب الباردة تعالت أصوات في أمريكا وأوروبا تقول زاعمة «المسلمون قادمون .. المسلمون قادمون» وتظن قطاعات بارزة في الغرب الأوربي والأمريكي أن الإسلام خطر على الحضارة الغربية . ويبدو أحياناً أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم استنساخه تجاه الإسلام . ووفقاً لما يراه محللون غربيون كثيرون فإن الإسلام والغرب يسيران على طريق الصدام، وغالباً ما يتم تصوير المواجهة على أنها صدام حضارات. وقد تزعم هذا التيار «برنارد لويس» الذي كتب محاضرة (نشرت منقحة سنة ١٩٩٠م) بعنوان «الأصولية الإسلامية» ، ثم عدل العنوان وجعله «جذور الهياج الإسلامي» ، وقد روجت وسائل الاعلام الغربية لهذه المقالة التي نشرت في مجلة «أتلانتيك مونثلي Atlantic Monthly» . وكان لهذه المقالة التي كتبها هذا المؤرخ اليهودي الشهير تأثير بالغ على فهم الغرب للإسلام والمسلمين المعاصرين وقد استغل التراث المتراكم عن صورة الآخر في الثقافة الأوروبية والأمريكية ؛ مشيراً إلى الميراث التاريخي عن صورة الآخر.

وأهم ما يقوله برنارد لويس هو أن الصراع بين الإسلام والغرب استمر أربعة عشر قرناً من الزمان منذ ظهور الإسلام حتى الآن، ويصور المسلمين على أنهم عدوانيون دائماً ، والغرب دفاعي دائماً . وهو موقف من «الآخر» يتطلق من أسس منحازة غير متسامحة ويبرر العدوان على هذا الآخر.

ومن ناحية أخرى، يتجاهل باحثون آخرون التراث الاستعماري في البلاد العربية والإسلامية ، ويختزلون التحول في المواقف الإسلامية تجاه الغرب، من الإعجاب والتقليد إلى العداوة والرفض ، وإلى مجرد صدام بين

حضارتين منفصلتين ومختلفتين ترفض كل منهما الأخرى . وأوضح الأمثلة على هذا وأكثرها استفزازاً يرد في كتاب صمويل هنتجتون «صدام الحضارات» الذي يعلن أنه بعد انتهاء الحرب الباردة .. سيحكم الصدام بين الحضارات الشؤون السياسية العالمية، وستكون الخطوط الفارقة بين الحضارات هي خطوط القتال في المستقبل ... والحرب العالمية القادمة ، إذا نشبت ستكون حرياً بين الحضارات...».

هذه الآراء التي راجت مع بداية تسعينيات القرن العشرين كانت ضد فكرة «التسامح» تماماً، وقد عبر فوكوياما عن ذلك التعصب و«عدم التسامح» عندما أعلن فكرته عن نهاية التاريخ لأن الرأسمالية انتصرت على الشيوعية ويجب أن تسود العالم. ولم يكن الحديث عن تشكيل النظام العالمي الجديد تحت قيادة الولاية المتحدة الأمريكية بعيداً عن هذا السياق.

وجاءت أحداث الهجوم على برجى نيويورك ومبنى البنتاجون في سبتمبر ٢٠٠١م لتسهم في المزيد من «هياج» القوى المتشددة التي لا تؤمن «بالتسامح» . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجع فيها أمريكا من ضربات عنيفة على أرضها في تاريخها القصير. وكان «العدو» جاهزاً ومعلباً : أي «المسلمون» . وعكست الأحداث التي جرت على أرض الواقع كل ما هو مناقض لفهوم «التسامح» . وصار العرب والمسلمون جميعاً ضحية للتعصب و«عدم التسامح» الأمريكي والأوروبي. وقد رأى أنصار نظرية صدام الحضارات فيما جرى في ذلك اليوم من سبتمبر دليلاً على صحة رأيهم وصدق نظريتهم . وقالوا بأن حديث «الحوار» و«التسامح» حديث لامل له . ونادوا بشن الحرب على «الآخر» وتدميره . وربما كان

حديث الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش عن «محور الشر» مجرد صياغة أخرى لأفكار صمويل هنتجتون عن الخطر الإسلامى/ الكونفوشيوسى الذى يتهدد الحضارة الغربية على حد زعمه . إذ إن النول التى يضمها «محور الشر» المزعوم تضم دولتين إسلاميتين ودولة كونفوشيوسية.

على الجانب الآخر أخذ أصحاب فكرة الحوار بين الحضارات ، وعلى رأسهم چون أسبوزيتو الباحث الأمريكى الشهير، يدافعون عن وجهة نظرهم من منطلق أن فهم «الآخر»، و«التسامح» مع اختلافه وغيريته، يمكن أن يخلق نوعاً من الحوار والاعتماد المتبادل الذى يحول دون وقوع مثل هذه الأعمال العنيفة . وتقوم فكرة چون اسبوزيتو الأساسية فى كتابه «التهديد الإسلامى : خرافة أم حقيقة» على أساس أن الإسلام يمثل تحدياً أمام الغرب ولكنه لايشكل تهديداً . ولما كان العرب والمسلمون قد وجدوا أنفسهم فجأة فى موقف المتهم العاجز عن الدفاع عن نفسه دونما جريمة ارتكباها ، ولأنهم كانوا ضحايا ردود أفعال عنصرية ومتعصبة من حضارة تزعم أنها تنادى بالتسامح بعدما جرى فى ذلك اليوم من سبتمبر، فإنهم استخدموا فى أدبياتهم مصطلح «التسامح» ضمن مفردات أخرى فى خطابهم الذى اتسم بالعجز والضعف .

وقد أريق كميات هائلة من الحبر، وسويت أطنان من الورق، وعقدت ندوات وحوارات، وجرت مناظرات ومقابلات فى شتى صنوف وسائل الإعلام العربية والإسلامية حول موضوعات «الحوار» و«الآخر» ، و«التسامح» ... وما إلى ذلك فى السنوات الأخيرة . وكانت كلها تستجدى الحوار والتسامح والفهم من الغرب عامة ومن الولايات المتحدة على نحو

خاص ، وتسايقت الحكومات في غسل أيديها من أية علاقة بجماعات الإسلام السياسي، وسادت أجهزة الإعلام الحكومية نغمة ساذجة تدعو إلى «التسامح» والحوار مع الغرب الغاضب المتريص ...

بيد أن هناك مفارقة تدعو إلى الأسى بشأن التسامح والحوار الذي تسعى إليه «الحكومات» العربية والإسلامية، ذلك إن هذه الحكومات نفسها لا «تسامح» على الإطلاق إزاء القوى السياسية «الأخرى» داخل بلادها كما أنها تتكرر ببساطة وجود «الأخر» داخل بلادها ؛ سواء على المستوى السياسي أو الثقافي، وتعامله معاملة الخونة والمجرمين. ويمكن تفسير ذلك، بطبيعة الحال، من خلال الحقائق التي تحكم علاقات هذه الحكومات بشعوبها من ناحية، وعلاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية والغرب من ناحية أخرى.

ومن خلال ما عرضناه في الصفحات السابقة نجد أنفسنا أمام موقف فكري صعب . ذلك أننا وجدنا في السطور السابقة أن معنى مصطلح «التسامح» كان عرضة لتقلبات عدة ناتجة عن السياقات التي جاء فيها عبر العصور التاريخية سواء في الغرب أو في البلاد الإسلامية. وهكذا ، نجد أنفسنا أمام مصطلح يصعب التعامل معه من منظور أحادي: فالتسامح ليس مصطلحاً دالاً على المفاهيم الدينية وحدها ، كما أنه ليس مصطلحاً قاصراً على الممارسة السياسية دون غيرها ، فضلاً عن أنه ليس محصوراً في نطاق الحوار الثقافي أو التفاعل الاجتماعي فقط، إنه مصطلح محير ومربك شأنه في ذلك شأن العلاقات الإنسانية التي يتناولها في مستوياتها المختلفة . ولستنا هنا بصدد البحث عن تعريف «جامع مانع»

- على رأى أهل الفلسفة- وإنما تحاول رصد أهم ما يحمله هذا المصطلح من دلالات ومفاهيم . هذا الموقف من جانبنا يستمد شرعيته العلمية من حقيقتين :

أولاهما : إنه من العبث إضاعة الجهد والوقت لنحت تعريف جامع مانع لمصطلح كانت نشأته الأصلية فى سياق ثقافة مختلفة وظروف تاريخية مياينة، ولأسباب اجتماعية وثقافية لم تمر بها كل المجتمعات الإنسانية، وتم نقله إلى مناطق ثقافية مغايرة حكمتها ظروف تاريخية مختلفة، كما أن هذا المصطلح لا يحمل المعنى نفسه بالنسبة لكل المجتمعات الإنسانية . وعلى الرغم من أن المصطلح : «التسامح» قد دخل الثقافات الأخرى ، ومن بينها المناطق الثقافية العربية والإسلامية ، فإنه حمل دلالات جديدة فرضتها الممارسات الفكرية المختلفة . وهو ما يعنى ، بعبارة أخرى، أن المصطلح يحمل دلالات ومفاهيم متعددة بحسب تعدد الجماعات أو المجتمعات الإنسانية التى تستخدمه ، وبحسب تنوع الأهداف والغايات التى يتغياها من يستخدمون هذا المصطلح .

ثانيهما : إن محاولة فهم السياق الثقافي الذى يستخدم فيه مصطلح «التسامح»، بعيداً عن محاولة صياغة التعريف الجامع المانع، يمكن أن يؤدي بنا إلى فهم المزيد من حقائق العلاقات بين المناطق الثقافية المختلفة بشكل تاريخى موضوعى دون الانزلاق فى مهاوى النظريات والانحيازات المسبقة.

وهذا هو موضوع الفصل التالى

(٢)

الأنا والآخر... أو «نحن» و«هم»

«التسامح» موقف من الآخر . وهذا يستدعى بالضرورة محاولة تحديد «نحن» في مقابل «هم» فهل يمكن الوصول إلى تحديد وتحديد «هم» ؟ إن مشكلة الوصول إلى تحديد واضح لـ «نحن» و «هم» تتجسد في حقيقة أن فكرة «الأنا» و«نحن» ، الثقافية الاجتماعية ، أو الدينية ، أو الحرفية ، أو السياسية ، هي في ذاتها التي تنتج فكرة «الآخر» و «هم» على نفس الأصعدة والمستويات . إذ إن الحديث عن «نحن» يستدعى بالضرورة الحديث عن «هم» لأن «نحن» توجب دائماً وجود «هم».

إن فكرة «التسامح» ترتبط بشكل عضوي بكيفية فهمنا لـ «نحن» و«هم» ؛ للذات والآخر. كيف نرى أنفسنا ؟ وكيف نرى علاقتنا بالكون وبالبشر وبالأشياء داخل هذا الكون ؟ كيف نرى دورنا في تاريخ البشرية ؟ وهل نرى تكليفاً إلهياً لنا في هذا الكون لصالح البشرية جمعاء أم أننا مختارون لنسمو فوق بقية البشر؟ هل نرى البشر سواء أم نرى فروقاً يصنعها العرق ، أو اللون، أو الدين ؟ وإذا ما نجحنا في الإجابة على بعض هذه الأسئلة الحيوية التي تتعلق بـ «نحن» فهل يمكن أن نجيب على

الأسئلة التي تتعلق بـ «هم» ؟ ألا يتوقف هذا على نوع الإجابات المرتبطة بـ «نحن» ؟

لأن «نحن» حاضرون ومعروفون وموجودون (أو هكذا يظن من يطرحون هذه الأسئلة باعتبارهم «نحن» على الأقل)، فإن «هم» بالضرورة غائبون ومجهولون وغير مفهومين (أو هكذا يكون الافتراض الأولى على الأقل) . فهل يمكن تعريف الأنا أو «نحن» وهل يمكن بالتالي تعريف «الآخر» أو «هم» ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل المركب مركبة أيضاً . إذ إن «نحن» يمكن أن تكون مطاطة ونسبية إلى أبعد درجة يمكن تخيلها ، كما يمكن أن تنكمش إلى حدود جماعة عرقية، أو مهنية، أو وطنية ، أو دينية . ويمكن تحديد «نحن» على أساس أن تكون «نحن» مجرد أسرة أو عائلة . كما يمكن للحقائق التاريخية والحدود الجغرافية أن تسهم في تحديد «نحن» .

ويقدر ما يتسع نطاق «نحن» بقدر ما تتنوع وتتعدد العناصر التي تتרכب فيها هذه الـ «نحن» ، ومن ناحية أخرى، فإن من يمكن اعتبارهم «هم» عند مستوى ما من مستويات «نحن» يدخلون بالضرورة داخل دائرة «نحن» على مستوى آخر أعلى أو أكثر اتساعاً؛ فهل يمكن أن نقول «نحن» المسلمين دون أن يكون هناك وجود آخر داخل هذا النطاق الأعلى لـ «نحن» المصريين و«نحن» القاهريين . وهل جراً ؟

وهل تكفى «نحن» اندالة على المسلمين للدلالة على كل الشعوب الإسلامية دون أن تضم داخلها عدداً من «نحن» و «هم» في مستويات أدنى ؟ وبعبارة أخرى، هل تغنى «نحن» المسلمين عن وجود «نحن» العرب

و«هم» غير العرب؟ وهل تلغى «نحن العرب» وجود «نحن» المثقفين و«هم» الحرفيين أو الفلاحين مثلاً ؟

هذه الأسئلة ، وما يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة فرعية أخرى، تبدو أسئلة بلانهاية ، كما أنها تبدو نوعاً من النسبية العبثية المركزة على الذات ، ولكنها ضرورية للوصول إلى حقيقة مكونات الأنا والآخر من ناحية ، ويكشف علاقة هذا بموضوع التسامع من ناحية أخرى. كما أن هذه الأسئلة التي تبدو أسئلة لانهاية تصلح أيضاً لمعالجة موضوع «الآخر» أو «هم» .

إن المكونات والعناصر التي تشكل «نحن» ، أو «هم» كثيرة متعددة من جهة، كما أنها متشابهة ومتداخلة من جهة أخرى. فهناك عناصر ثقافية (اللغة والدين والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد) ، وهناك عناصر اجتماعية (الطبقة ، وعلاقات القربى، والجوار ، والمشاركة) ، كما أن هناك عناصر اقتصادية (الحرفة أو المهنة أو المستوى الاقتصادي أو علاقات العمل) . ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن وجود «نحن» و «هم» نوع من الكينونة المرنة التي تضيق وتوسع بحسب ما يراد بـ «نحن» أو «هم» . وليست هذه مجرد فذلكة لفظية ، وإنما القصد منها القول بأن البشر جميعاً يمكن أن يدخلوا فى المستوى الأعلى لـ «نحن» حين يكون المقصود بـ «هم» سكان كوكب المريخ أو غيرهم من الكائنات الفضائية مثلاً.

ويستدعى هذا ، بالضرورة ، التخلّى عن فكرة «نحن» المغلقة المتعصبة الاستعلائية ، وطرح الموقف المتشكك فى «هم» لجرد اختلافهم . ويجب هنا محاولة تعميق فكرة «نحن» الإنسانية ؛ نحن البشر. وليست هذه دعوة إلى

عولة الذات والتخلي عن الجنور والتراث والخصائص المشتركة التي تميز أي «نحن» عن أي «هم» . وإنما هي دعوة لإعلاء شأن الإنسان على مصالح دعاة الحرب والصدام خدمة للاستغلال والهيمنة . ومن ناحية أخرى . فإن التمسك بالخصوصية الثقافية ، أو حتى الحضارية ، لايعنى رفض الآخر ، وإنما يعنى أن قبوله والتسليم باختلافه وبعيرته ، يمكن أن يؤدي إلى التعاون والاعتماد المتبادل . وصيغة القبول والاعتراف والحوار هي ما يعنيه البعض بمصطلح «التسامح» .

هذا الموقف الثقافي / الاجتماعي الذي يقبل «الآخر» ، ويقر بحقه في الوجود وفي الاختلاف والتمايز ، والذي يرفض الصدام مع هذا «الآخر» على أرضية الاختلاف ، نشأ عن التطورات التاريخية ، والتقدم العلمي والتكنولوجي ، وتحسن وسائل المواصلات والاتصال والمعلومات ، بحيث صار أهل كوكب الأرض يعرفون عن بعضهم بعضاً - مهما بعدت المسافات - أكثر مما كان سكان المناطق المختلفة في بلد بعينه يعرفونه عن بعضهم بعضاً منذ نصف قرن مضى . وهذا التقارب هو الذي خفف من حدة الفروق بين «نحن» و«هم» . هذا التواصل هو الذي جعل «الآخر» لايبعد بالضبط لأن الناس يكتشفون بشكل مطرد أن عوامل التقارب والاشتراك بينهم أقوى كثيراً وأبقى من عوامل الفرقة والشك . وهنا يكون «التسامح» بين الأنا و«الآخر» قد تخلص عن مكانه لتتبع من المشاركة الإنسانية التي تهتم بمصير الإنسانية جمعاء .

إن الانقسام الذي حدث في الغرب الأوربي والأمريكي بشأن العدوان الأمريكي البريطاني على العراق يكشف عن أن «نحن» لم تعد في مواجهة

«هم» بشكل حاد وقاطع ، وعلى أسس جغرافية أو عرقية كما كانت دائما . فقد رأى كثيرون في أوروبا وأمريكا ممن ضمتهم تلك المظاهرات الرهيبة غير المسبوقة في تلك البلدان أن العدوان الأمريكي - البريطاني على العراق ليس صراعاً بين «نحن» أمريكية أوروبية ، و «هم» عرب مسلمين بقدر ما هو عدوان من «هم» أقتصار الحرب وأقطاب الرأسمالية العالمية وأصحاب الشركات عابرة الجنسيات على «نحن» البشر المدنيين الذين لا يريدون سوى العيش في سلام . إن التداخل والتواصل والاتصال بين «نحن» و «هم» جعل الموقف الأحادي المنطلق تجاه الآخر مسألة عبثية لا قيمة لها . فهل يمكن أن نسمى هذا الموقف النابع من وحدة «نحن» الإنسانية «تسامحاً» ؟ وهل كانت الجماهير الغاضبة من فجاجة العدوان والكذب الحكومي تتسامح مع العراق الآخر ثم كانت تضامناً مع نحن البشر؟

في تقديري أن اللبس في مفهوم مصطلح «التسامح» والدلالات التي يحملها إنما نتج أصلاً عن إساعة ترجمة اللفظ عن اللغات الأوربية ، لا سيما الإنجليزية والفرنسية . وقد أدى هذا الموقف إلى اختيار أحد معاني اللفظ الأوربي اللغوية دون الاهتمام بمدلوله الاصطلاحي الذي يكتسب قيمته من الظروف التاريخية التي ظهر في إطارها .

ففي اللغة العربية تشتق كلمة «تسامح» من الجذع الثلاثي «سمح» الذي يعنى الجود والعطاء ، «والسماح» و«السماحة» هي المساهلة ، وتسامحوا بمعنى تنازلوا و«السماحة» بمعنى الكرم والتساهل ... وهكذا ، فإن المعنى الأصلي يعنى الكرم والجود كما يعنى التساهل . أما الكلمة الأوربية فهي Tolerance , Toleration المشتقة من فعل Tolerate بمعنى يحتمل، أو

يقبل ، أو يصبر على ، أو يجيز . والكلمة هنا تجمع بين الاحتمال على مضض والتسامح والقبول على كره ، والتحمل ... وهو ما يشي بالتساهل إزاء شئ لا يمكن قبوله عادة . وبذلك كان استخدام اللفظ في السياق الثقافي / الاجتماعي الأوربي يقصد شيئاً ، على حين أدت الترجمة العربية إلى شئ آخر مختلف .

بيد أن لفظ «التسامح» دخل اللغة العربية ليكتسي مفاهيم ومدلولات إضافية سرعان ما صارت هي المفاهيم والمدلولات الجوهرية بسبب السياق الثقافي / الاجتماعي الذي تم استخدامه فيه من ناحية ، وبسبب تأثيرات الموروث الثقافي العربي من ناحية أخرى . فقد تخطى اللفظ تماماً عن معناه الأوربي وصار له معنى يكاد يكون مضاداً لمعنى الكلمة الأوربية ، فقد تخطى عن معاني «التحمل» و«الصبر على» و«القبول بـ» إلى معنى واحد هو القبول بالآخر ، وعدم إنكار حقه في أن يكون «مختلفاً» وأن يمارس الاختلاف . وربما يكون هذا هو السبب في أنه استخدم كثيراً في سياق الحديث عن الحريات الدينية - وهو المعنى الأساسي لكلمة Toleration Tolerance على أية حال - على الرغم من أنه ينبغي أن يستخدم في مجالات التعددية السياسية والحوار الثقافي ، والتنوع الاجتماعي .

على أية حال ، يبقى السؤال مطروحاً : هل يمكن أن تستمر صيغة «الأنا» و«الآخر» ، أو «نحن» و«هم» لتكون هي الصيغة الحاكمة في حياتنا الثقافية / الاجتماعية ؟ وهل تصلح هذه الصيغة في علاقات البشر داخل المجتمع الواحد وعلى مستوى البشرية كلها ؟ إن صيغة «نحن» و«هم» هي التي تستوجب «التسامح» بالمعنى الغربي ، ولكن الإدراك المتزايد لأخوة بني

البشر في أوساط الشعوب ، يمكن أن تقسم العالم إلى «نحن» و «هم»
 قسمة جديدة لاتقوم على الحدود الجغرافية، أو العرق، أو الروابط الوطنية،
 أو الخصائص الثقافية ، وإنما قسمة تقوم على «نحن» (الشعوب التي تريد
 أن تحيا في سلام وتنبذ الحرب) و«هم» أصحاب المصالح الرأسمالية الذين
 يشعلون الحروب لبيع منتجات الأسلحة التي تنتجها مصانعهم ، أو
 الاستيلاء على موارد الطاقة اللازمة لصناعاتهم، أو السيطرة على الأسواق
 لحسابهم . هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» أخذت تتشكل وتتصاعد
 وتعبير عن نفسها بأشكال مختلفة : فالمظاهرات ضد العولمة، واجتماعات
 منظمة التجارة العالمية ومنتدى دافوس ... وغيرها من أشكال عولمة
 السيطرة الرأسمالية ، هي الدليل الواضح على أن هذه القسمة الجديدة قد
 أخذت تتشكل بشكل متسارع . إذ إن هذه المظاهرات المعادية للعولمة
 (بمعنى سيطرة القوى الرأسمالية على العالم) قد اندلعت في معظم أركان
 العالم، وحتى داخل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية نفسها، تعبيراً عن
 رفض «نحن» الناس العاديين لسيطرة «هم» الذين يمثلون الاحتكارات
 الرأسمالية.

ومن المثير أن هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» لا تنادى
 «بالتسامح» وإنما هي تطالب «بحقوق» . والناظر في حصاد السنوات
 والمؤتمرات والحوارات والكتابات التي دارت في السنوات الأخيرة من
 القرن العشرين ، والسنوات الأولى من القرن الصادي والعشرين ، حول
 موضوع «نحن» و«هم» أو حوار الحضارات ، أو صدام الحضارات ، أو
 «العولمة، أو مناهضة العولمة... وما إلى ذلك ، سوف يكتشف بسهولة أن

قسمة جديدة أخذت تتشكل في العالم بين «نحن» و«هم» بين «الأنا» و «الآخر» وأن هذه القسمة الجديدة الأخذة في التشكل لاتطلب «التسامح» بمعناه الأوربي، ولا حتى بمعناه العربي، وإنما تطالب بحق «نحن» في مواجهة عدوانية «هم» وإذ يبدو هذا كلاماً غامضاً ، فإنه ينبغي توضيحه قدر الإمكان.

لم تعد «نحن» أو «الأنا» جزئية، محلية، إقليمية ، أو حتى ثقافية، في مواجهة «هم» على نفس المستويات الجزئية أو المحلية والإقليمية والثقافية . ومن ناحية أخرى، لم تعد للجغرافيا والتاريخ والموروث الثقافي نفس قوتها الرادعة التي تمنع «نحن» من أن تنقسم على نفسها إزاء «هم» أجنبية . فمن الممكن أن جزءاً من «نحن» يشكل «نحن» أخرى في مواجهة «هم» مختلفة، فقد كان جزءاً من الغرب الأوربي والأمريكي يناصر جزءاً من العالم العربي المسلم في العراق وفلسطين أي أن جزءاً من «هم» انضم إلى جزء من «نحن»، وعلى الجانب الآخر كان هناك جزء من «نحن» يقف مع «هم» بحكم مصالحه السياسية وارتباطاته الرأس مالية.

إن قسمة «صراع الحضارات» بين «نحن» و«هم» تحدت بشكل عدائي صارخ بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م حين قال الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش إن من ليس معهم سيكون عدوهم ! لكن الأمريكيين العاديين ليسوا جميعاً داخلين في هذه القسمة، ذلك أن قطاعات يعتد بها لاترى نفسها داخلة في نطاق «نحن» التي يتحدث عنها الرئيس الأمريكي . كما أن عدداً كبيراً من الحكام الذين وضعوا أنفسهم داخل «نحن» التي قصدها الرئيس الأمريكي، لم يكونوا يعبرون عن رأى شعوبهم، أو قطاعات كبيرة منها على الأقل، وقد أدى هذا إلى مفارقة واضحة ، إذ انبثقت

تلقائياً عن قسمة صراع الحضارات ، والحرب ، قسمة مقابلة ترى العالم موزعاً بين الشعوب التي تريد السلام وتتعرض للحرب والعدوان من ناحية ، وبين الحكام الذين يمثلون المطامع الرأسمالية للشركات العابرة للجنسيات من ناحية أخرى .

وعلى صعيد المنطقة العربية ، وفي داخل كل بلد عربي على حدة، نجد القسمة واضحة بين «نحن» و«هم» . إذ إن إنكار التعددية السياسية على مدى السنوات التي تغطي النصف الثاني من القرن العشرين، نقول إن هذا، وكثيراً غيره ، خلق نوعاً من الثقافة السياسية المرائية المنافقة من ناحية، كما خلق نوعاً من القسمة السياسية العدائية من ناحية ثانية.

وعلى المستوى الثقافي / الاجتماعي توارث التعددية الثقافية التي تقوم أساساً على الإيمان بالحوار ، وبحق الآخر في الوجود والاعتقاد والتعبير والممارسة . لقد اختفى «الحوار» في العالم العربي، أو كاد، وانتقل التجريم السياسي «للآخر» المختلف والمعارض إلى الأوساط الثقافية . وزادت بشكل مخيف حوادث التلفيق والتزوير والتشهير في الأوساط الثقافية . ونتيجة لهذا انحسر مفهوم «التسامح» في نطاق الحديث عن الجوانب الدينية، أما فكرة وجود «نحن» و«هم» على أساس من الاعتراف والتعاون المتبادل ، فلاتزال بمثابة الأمل الغائب على الصعيد السياسي والثقافي والاجتماعي في بلادنا العربية عامة.

فهل يمكن أن نتطلع إلى إقناع «الآخر» خارج حدودنا بأن «يتسامح» معنا على أساس فكرة الحوار والقبول بالآخر ، ونحن لانؤمن بهذه الفكرة ولا نمارس الحوار والقبول بالآخر داخل بلادنا؟!!!

(٣)

في تاريخ عدم التسامح

تعود جذور «التسامح» الأوربي إلى نزعة «عدم التسامح» التي ميزت الحضارة الأوربية الكاثوليكية منذ بدايتها الأولى. ويتفق الباحثون والمؤرخون على أن حضارة أوروبا في الفترة التي تعرف باسم العصور الوسطى، والتي كانت أساساً لحضارة أوروبا وثقافتها الحديثة والمعاصرة، قد قامت على دعائم ثلاث أساسية، أولها التراث الكلاسيكي الذي احتوى على ما خلفته الحضارة الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية. والدعامة الثانية هي المسيحية وما جاءت به من مفاهيم وأفكار، وما أنتجته من مؤسسات قادت أوروبا خلال تلك الفترة، وثالثة هذه الدعائم هي الغزوات الجرمانية التي جلبت قبائل وشعوب شبه جزيرة اسكنديناو في هجرات جماعية إلى كافة المناطق الأوربية لتختلط بشعوب أوروبا القديمة مكونة الشعوب الأوربية المعروفة الآن.

في تصوري أن بذور عدم التسامح تجاه «الآخر» المختلف ترجع إلى موقف الحضارة الكلاسيكية (بشقيها الإغريقي والروماني) من «الآخر» فقد استخدم الإغريق القدماء كلمة «البرابرة» barbari ومفردتها barbar-us للدلالة على الأجنبي، أي بالتحديد للدلالة على من هو مختلف باعتباره أدنى في مستواه الحضاري من الرجل اليوناني. وقد ورث الرومان هذه

الكلمة عن الإغريق القدماء، بيد أنهم استخدموا كلمة «البرابرة» يمدلول الأزياء والتحقيق للدلالة على الشعوب الأخرى، ومنهم الجرمان الذين وفدت قبائلهم لتعيش في مناطق الحدود الرومانية على امتداد نهر الراين ونهر الدانوب .

لقد اعتبر الإغريق والرومان «الأخر» من البرابرة طالما أنه يختلف عنهم في اللغة والعادات والتقاليد والشكل الجسدي، وهي نظرة استعلائية لا تحتمل اختلاف «الأخر» وغيروته، ولا تقبل به أيضاً ، وقد ظل أبناء كل البلاد التي غزاها الرومان وحولوها إلى ولايات تتكون منها الإمبراطورية الرومانية في وضع اجتماعي/ سياسي أدنى من الرومان الذين احتكروا حقوق المواطنة حتى عصر الإمبراطور كاركلا (٢١١-٢١٧م) الذي منح حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية.

هذه النظرة التي بررتها مواد القانون الروماني الشهير، وساندتها الفرق العسكرية الرومانية، والاستعلاء الذي ميز الممارسات الرومانية، تسببت في أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن سوى تجميع سطحي لمجموعات حضارية وعرقية ولغوية متباينة ، ولم تتمكن من إذابة هذه العناصر في بوتقة واحدة بسبب الموقف الروماني من «الأخر» . وعدم التسامح إزاء اختلافه وغيروته . وقد كان هذا السبب من أهم أسباب سقوط الإمبراطورية فيما بعد. وقد ورثت الثقافة الأوربية في العصور الوسطى ، والعصور التي تلتها ، هذه العنصرية «غير المتسامحة» إزاء الآخر، وقد أسهمت المسيحية الكاثوليكية ، التي رأت نفسها وريثة «الشعب الله المختار» في ترسيخ هذه النظرة، فكيف كان ذلك ؟

على الرغم من أن المسيحية نفسها فى حقيقتها ديانة محبة وسلام، على نحو ما يتضح من تصوص الأناجيل الأربعة المعتمدة ، فإن النزعة العنصرية وفكرة شعب الله المختار التى شكلت الثقافة الأوربية المسيحية كانت سبباً قوياً من أسباب ترسيخ رؤية الذات الأوربية لنفسها باعتبارها الذات التى تملك الحقيقة وتتفرد بها !!

لقد أطلق المسيحيون الأوائل على أنفسهم فى رفقة الدين الجديد اسم إكليزيا ecclesia (وهى الكلمة التى استخدمتها الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) . وتعنى هذه الكلمة «شعب الله المختار من بنى اسرائيل» (لأن اليهود رفضوا المسيح وأمن به عدد منهم ، فصار المؤمنون هم الإكليسيا أى أنهم شعب الله المختار الجديد لأن اليهود فقدوا هذه الصفة برفضهم المسيح) . ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة «الكنيسة» . وفيما بعد تم تفسير الكلمة على أنها تعنى جميع المسيحيين فى كل مكان ؛ ولذلك فإن كلمة الكنيسة تحمل مستويين من المعنى ؛ المستوى المادى أى المبنى الذى يمارس فيه المسيحيون عبادتهم ، والمستوى المعنوي الذى يشير إلى كافة المؤمنين بالمسيحية.

وقد بلورت الكنيسة الغربية موقفاً متعالياً على سائر الكنائس الأخرى انطلاقاً من هذا القدر من الوعي بالذات ، وعدم الوعي بالآخر. فقد أصبحت الكنيسة الكاثوليكية الغربية على أن تكون تعاليمها كاثوليكية، أى عالمية تتسم بالاتساق والتوافق فى كل مكان . وقد أدى ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى اعتبار الكنائس الأخرى، التى لا تسير حسب التعاليم الكاثوليكية ، كنائس هرطقية أى منشقة وخارجة عن صحيح الدين . هذا الموقف، بدوره،

أدى إلى خلافات مذهبية كثيرة من ناحية، وإلى ترسيخ نزعة العنصرية وعدم التسامح فى الثقافة والممارسات الأوربية طوال العصور الوسطى من ناحية أخرى.

وربما كانت التطورات التاريخية التى مرت بها الكنيسة المسيحية عمومًا ، والكنيسة الغربية الكاثوليكية بشكل خاص ، وراء الطابع العنصرى «غير المتسامح» الذى ميز مواقف البابوية والكنيسة الكاثوليكية طوال العصور الوسطى.

فعندما ظهرت المسيحية لم يعرفها الحكام الرومان اهتماماً كبيراً حتى القرن الثالث الميلادى، وقد بالغت الأساطير اللاحقة كثيراً فى أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين يجرى على نطاق محلى وقليل الحوادث . وكانت الإمبراطورية الرومانية «متسامحة» ولم تعترف بالمسيحية ديانة مشروعة ، كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون ممارسة طقوس عبادة الإمبراطور التى كانت «ديانة دولة» تتطلب أداء يمين الولاء للإمبراطور وإقامة الشعائر الإمبراطورية، وعلى الرغم من هذا لم يتدخل الأباطرة فى الشؤون المسيحية إلا قليلاً .

ولكن هذا الموقف تغير بشكل جذرى فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى، ذلك أن تدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية فى العالم الرومانى أدى إلى موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين فى شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية المثقلة بالمشكلات . وحين حاول الإمبراطور دقلديانوس ترميم الإمبراطورية وإجراء إصلاحات شاملة بها حرضه أعضاء بلاطه على الكنيسة باعتبارها دولة داخل الدولة بسبب تنظيمها

الجيد ومؤسساتها القوية . وعلى مدى عشر سنوات كانت تجرى محاولات منظمة لتنفيذ مراسيم الإمبراطور دقلديانوس للقضاء على الكنيسة المسيحية . وكان ولاية الولايات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية ، لاسيما حكام مصر وبلاد الشام ، من أشد المتحمسين لتنفيذ الإجراءات العقابية ضد المسيحيين . وكان نصيب الأقباط في مصر كبيراً من هذه المعاناة ، إذ سقط منهم عدد كبير ضحايا أعمال القتل الجماعي كما لاقوا من العذاب صنوفاً وألواناً ، فقد كانت تقطع أيديهم وأرجلهم ويعلقون في جنوع النخيل حتى الموت ، كما كانوا يلقون إلى الأسود الجائعة وليس بيد أحد منهم سوى إبرة طويلة لقتال الأسود . وجرت عليهم كوارث ومصائب منها : مصادرة أموالهم وممتلكاتهم ومطاردتهم . وقد بلغت الاضطهادات الرومانية ضد المسيحيين في عهد الإمبراطور دقلديانوس حداً جعل الكنيسة القبطية تبدأ تقويمها (أي حساب السنين والشهور القبطية المعروف الآن) ، والذي عرف باسم «تقويم الشهداء» في سنة بدء حكم الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤م . بيد أن كثيراً من حكام الولايات الرومانية الأخرى لم ينفذوا تعليمات الإمبراطور بنفس الدقة التي نفذها بها حكام ولايات مصر والشام على مصر والشام .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعة المسيحية في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية كبيرة ، وربما وصلت إلى عشرين بالمائة من السكان في هذه الأقاليم التي كانت أرقى حضارياً وثقافياً ، وأكثر ثراء من الغرب الأوربي الذي كان ما يزال ريفياً في مجمله ، ولم تكن نسبة المسيحيين فيه تزيد عن ٥ إلى ١٠ بالمائة . بل إن روما ، العاصمة القليلة . كانت ما تزال

هى معقل الوثنية، وربما كان هذا هو السبب فى عدم التوافق المذهبى بين أوروبا والشرق على الرغم من أنهما أمتا بالديانة المسيحية ، وقد كشف الصراع المذهبى- فيما بعد- عن أن الموروث الثقافى لعب دوراً مهماً فى فهم كل من الجانبين للعقيدة المسيحية.

وعلى المستوى السياسى اعتزل دقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٢٠٦م لأسباب تتعلق بمفاهيمه السياسية وإجراءاته الإدارية، واشتعلت حرب أهلية استمرت عدة سنوات . وفى تلك الأثناء بات كل الأطراف يدركون أنه من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية ، وأنه من الأفضل «التسامح» معها . وإن لم تستطع الإمبراطورية القضاء على الكنيسة، تعين عليها أن تتعايش معها، وفى سنة ٣١٣م أعلن إمبراطور الشرق والغرب مبدأ «حرية العقيدة» فيما عرف باسم «مرسوم ميلانو» . فقد طلب الإمبراطور قنسطنطين الكبير وشريكه ليكيانيوس من حاكم الشرق، فى خطاب مشترك ، أن يكف عن مطاردة المسيحيين ، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم المصادرة ... وما إلى ذلك .

وأيا كانت الأسباب التى جعلت قنسطنطين يتخذ هذا الموقف فالثابت أنه هو الذى جعل المسيحية تنتصر ثم تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فى غضون عقود قليلة (سنة ٣٩٥هـ) فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير.

هذه التطورات أدت إلى نتائج أخرى غاية فى الأهمية بالنسبة لموضوع الدراسة أى «التسامح» فقد عانى المسيحيون من «عدم التسامح» على نحو ما ذكرنا، ولكن هذه المعاناة لم تخلق تراثاً مشتركاً بين المسيحيين

الشرقيين والمسيحيين الأوربيين (الذين لم يكن أكثرهم قد دخل في الديانة الجديدة حتى ذلك الحين) لأن وطأة الاضطهاد في الشرق كانت أعنف منها في الغرب، ولأن الموروث الثقافي لمناطق الحوض الشرقي للبحر المتوسط كان يختلف بالضرورة عن الموروث الثقافي للغرب الريفي الذي ظل على وثنيته حتى ذلك الحين تقريباً (فكلمة وثني مشتقة من كلمة ريفي - Pag-anus). وحين صارت المسيحية ديانة كل الأوربيين لم يكن المسيحيون الجدد قد شاركوا المسيحيين القدامى تراث الاضطهاد . ومن ناحية أخرى ، فإن توقف الثالوث المقدس (الأب والابن والروح القدس)، وطبيعة المسيح الذي يعتقد المسيحيون أنه «إله» تجسد بشراً بإرادته، ورضى لنفسه بالصلب لكي يخلص البشر من ذنوبهم وأثامهم . وبدأت الآراء المختلفة حول هذا الموضوع تثير المنازعات النيقية التي باتت تهدد بتعزيق وحدة الكنيسة . إذ لم تكن هناك سلطة كنسية عليا يمكنها أن تحدد ملامح العقيدة حتى ذلك الحين. وكان كل أسقف يقرر هذه المسائل بالشكل الذي يتوافق مع مصلحة أسقفيته . وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور الحاجة إلى مجلس كبير يضم كل أساقفة الإمبراطورية لمناقشة هذه الأمور ووضع ما يناسبها من حلول . وكان مجمع نيقية الذي تم عقده سنة ٣٢٥م أول المجامع الكنسية العامة برئاسة الإمبراطور ، وقد نجح بشكل مؤقت في فرض معادلة مذهبية، حول طبيعة المسيح والعلاقة بين أطراف الثالوث المقدس تخضع لها كل الفرق الدينية المذهبية .

وكان اشتراك الغرب الأوربي في هذه المناقشات محدوداً ومحكوماً بحقائق التاريخ الأوربي آنذاك. فقد كان الغرب أمياً وجاهلاً إلى حد بعيد

بعد أن قضت الكنيسة على بقايا العلم الكلاسيكي في غرب أوروبا . ويدا
 الأمر في نظر أبناء الغرب الأوربي المسيحيين كما لو أن المسيحيين
 الشرقيين كانوا يحاولون أن يحددوا شيئاً لا يمكن تحديده ، أى ثالوث الأب
 والابن والروح القدس . وبدلاً من هذا ركز المسيحيون الغربيون اهتمامهم
 على المشكلات العملية، مثل زعامة المجتمع وإدارة الكنيسة ، ودور البابوية
 في العلاقة بين الرب والإنسان .

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب تتدهور في القرن
 الخامس الميلادي، بدأ اهتمام الناس في الغرب الأوربي يتحول بالتدريج
 صوب المؤسسة الوحيدة التي كان يمكنها أن توفر لهم قدرأ من الوحدة
 وتتولى القيادة في الشؤون الدينية وفي مجال التعليم، أى كنيسة روما
 حيث كان أسقفها يملأ الفراغ السياسي الناجم عن سقوط السلطة
 الإمبراطورية في الغرب سنة ٤٧٦م. ثم تحول لقب أسقف روما إلى البابا
 في أوائل العصور الوسطى. وكان البابا ليو الكبير (٤٤٠-٤٦١م) هو
 صاحب النظرية التي قامت عليها البابوية في العصور الوسطى، وتقوم
 هذه النظرية على ما يسمى «المذهب البطررسي» نسبة إلى بطرس الذي
 ينسب الكاثوليك إليه تأسيس كنيسة روما، ويقوم المذهب البطررسي على
 أساس التفسير الكاثوليكي للكلمات المنسوبة إلى المسيح هو يخاطب
 حواريه حسبما وردت في إنجيل متى (١٦ : ١٥-١٩) :

«قال لهم، وأنتم من تقولون إني أنا ، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت
 هو المسيح، ابن الله الحي، فأجاب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمعان بن
 يونا ، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبى الذي في السموات، وأنا أقول

لك أيضاً أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماء».

وتختلف تفسيرات هذا النص بين المذاهب المسيحية اختلافاً كبيراً، لكن المذهب البطرسي ، الذي قامت عليه النظرية البابوية في أوروبا الكاثوليكية، يزعم أن المسيح كان يقصد أن يكون بطرس، ومن يخلفه على كرسي أسقفية روما، رئيساً للكنيسة بأسرها ، أي لكل المسيحيين، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذي يمتلك مفاتيح ملكوت السموات والأرض ، وهو وحده نائب المسيح على الأرض. وهو ما يؤدي بالضرورة إلى رفض كل المذاهب الأخرى ، وإدانة كافة الكنائس التي لا تنصاع لهذه الزعامة القسرية . وطالما أن كنيسة روما تتحدث باسم الرب، وطالما أن أسقفها (أي البابا) هو نائب المسيح على الأرض، فإن الحقيقة والحق معه. وكل من لا يدين له بالطاعة مهطلق ، أي منشق وخارج على صحيح الإيمان!

ولا يمكن لمثل هذه النظرية أن تفسح مجالاً للتسامح . وكان «عدم التسامح» هو الذي ميز سياسة الكنيسة الكاثوليكية وتصرفاتها طوال فترة العصور الوسطى. وإذا وجدت الكنيسة الغربية في المذهب البطرسي والنظرية البابوية المثل الأعلى الذي يحفزها إلى أن تحل محل الإمبراطورية التي سقطت في الغرب فإن البابوية سارعت إلى سد الفراغ السياسي، وصارت هي المؤسسة التي تركزت حولها الحضارة الغربية . وكانت روح الاستعلاء والعنصرية من أهم أسباب روح «عدم التسامح»، والاعتراف

بالأخر التي ميزت أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد أكدت ظروف أوروبا التاريخية هذه الزعامة الكنسية، إذ لم يكن ممكناً أن تأتي القيادات التي كان المجتمع الغربي، بما اتسم به من القوضى والاضطراب في القرن السادس، في أشد الحاجة إليها إلا من داخل الكنيسة. فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية هي التي تضم جميع الرجال المتعلمين في أوروبا آنذاك، كما كانت هي أقوى مؤسسات العصر. ويرى كثير من المؤرخين أن الفضل في بقاء الكنيسة الكاثوليكية، والحضارة الغربية، إنما يرجع إلى الرهبان والبايوية، فمنهما خرجت قيادات المجتمع الأوربي التي تولت أمور التعليم والتنظيم والتطور الاجتماعي، ومنهما خرجت القيادات الإدارية والسياسية التي عملت في بلاط الملوك وفي البلاط البابوي على حد سواء.

ولا يمكن أن نتوقع، كما أنه لا يجب أن نتوقع، أن يبدي أولئك الرهبان أى قدر من «التسامح» إزاء من يختلف معهم في الرأي والرؤية، فما بالنا بموقفهم من «الأخر» الذي يختلف دينياً، أو عرقياً، أو ينتمي لمنطقة ثقافية أخرى!!

لقد تمثلت نتيجة هذا في عدة صراعات خاضتها البايوية والكنيسة الكاثوليكية ضد الآخر، سواء خارج نطاق أوروبا الكاثوليكية أو داخلها: وكان أول نزاع من هذا النوع هو النزاع الذي خاضته ضد الإمبراطورية البيزنطية بسبب مشكلة الأيقونات، فقد حرم الإمبراطور البيزنطي «ليو الأيسوري» (٧١٧-٧٤٧م) استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية (التي تعرف بالأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام في الكنائس.

واستمر الصراع حول هذه المسألة قرابة قرنين من الزمان، وقد رفض البابا الروماني قبول هذا الأمر، باعتباره صاحب الحق الأبعد في هذه المسائل .

وفي القرن العاشر كان التداخل بين الكنيسة ecclesia والعالم mun-
 dus قد بلغ مداه، ولكن التمايز بينهما كان يدفع الأمور صوب نزاع آخر
 أشد ضراوة . فمنذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متصاعد لدى الكتاب
 الكنسيين لاعتبار الكنيسة مؤسسة تحقّض العالم، وفي القرن الحادي
 عشر باتت هذه النظرية هي القاسم المشترك في كتابات رجال الكنيسة،
 ومن ثم كانوا يرون أن الممالك والإمبراطوريات ليست كيانات خارج عن
 نطاق الكنيسة الكاثوليكية ، وإنما هي داخل في حدودها العالمية. هذه
 النظرية القائلة باستيعاب المملكة النيوية داخل المملكة الروحية كانت
 استلزاماً للعلاقة القائمة بين الكنيسة والدولة في القرن العاشر والتصف
 الأول من القرن الحادي عشر فعلا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت
 تأكيداً على روح الاستعلاء وعدم التسامح التي حكمت ثقافة أوروبا طوال
 تلك العصور.

وقد أدى هذا الموقف إلى اندلاع المواجهة التي استمرت طويلاً بين
 الكنيسة والدولة في أوروبا ، ففي سنة ١٠٧٥م كان الإمبراطور الألماني هو
 أقوى حاكم في أوروبا، ومع هذا فإن البابا «جريجوري السابع» - الذي
 عرف باسم «الشيطان المقدس» - لم يتورع عن الصدام معه حول مسألة
 «السمو البابوي» ، أي أن البابا هو الذي يسمو فوق جميع الحكام. وعرف

هذا النزاع الذي استمر حوالى خمسين سنة هدد المؤرخين باسم «النزاع على التقليد العلماني». ومهما كانت نتائج هذا الصراع ، فإنه كان تعبيراً ساخناً عن روح «عدم التسامح» تجاه «الأخر» ومحاولة سحقه . ويبدو أن الحرب الطويلة والمتنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة قد خلقت نوعاً من الكراهية ضد الآخر ، كما أنها أتاحت الفرصة لظهور تيارات ثقافية جديدة حققت قدراً هائلاً من التقدم في الفلسفة والقانون والأدب والقرن في كل من فرنسا وإيطاليا ، وكان على الكنيسة أن تواجه هذا التحدي الجديد.

وكانت الحروب الصليبية ، التي دعت إليها الكنيسة وقادتها في آخريات القرن الحادي عشر، أكبر تعبير عن كراهية «الأخر» و«عدم التسامح» إزاءه ، في تاريخ الحضارة الغربية الكاثوليكية (مثلما كانت حركة الاستعمار القديم، والجديد، تعبيراً عن الروح نفسها في العصور الحديثة وفي أيامنا هذه). فقد كانت الحروب الصليبية مشروعاً كنسياً وبابوياً على الرغم من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الكبرى التي أدت إلى شتت هذه الحروب ، إذ كانت البابوية ترى في الحملة الصليبية أداة لتوحيد العالم المسيحي تحت راية الكنيسة الكاثوليكية ، وأنها ستزيد من هيبة البابوية والكنيسة في مواجهة الإمبراطورية، فضلاً عن أن الحملة الصليبية يمكن أن تنهى ذلك الانشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية لصالح الأخيرة. ولكن «الحملة الصليبية» كانت أولاً وأخيراً أهم الأسلحة في ترسانة «عدم التسامح» البابوية، إذ لم يقتصر استخدام هذا السلاح ضد المسلمين ، وإنما استخدم ضد الكاثوليك ، وضد غيرهم من المسيحيين الرافضين لسيطرة الكنيسة في أوروبا .

وقد أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب إلى أن الحروب الصليبية كانت نتاجاً للهياج الهيستيرى ضد الآخر الخارجى ، كما أنها استخدمت ضد الآخر الداخلى بقدر كبير من الضراوة والوحشية مثلما ظهر فى الصليبية الألبيجنسية وغيرها .

لقد أدت قيادة الكنيسة الكاثوليكية لأوروبا إلى احتكار التعليم والفكر حتى القرن الثانى عشر على أقل تقدير، كما أدت إلى سيادة المفاهيم الضيقة التى أنكرت حق الاختلاف، وحاربت كل ما لم يكن متسقاً مع كلمات الكتاب المقدس ، أو تفسيراته الضيقة التى قال بها رجال الكنيسة . ومن ناحية أخرى ، أدى تسلط البابوية وعدم تسامحها إلى تملل القوى الاجتماعية فى أوروبا من سيطرة الكنيسة. وظهرت أنماط من «التدين الشعبى» الرافض لسلطة الكنيسة ورجالها ، وتجلت ذلك فى فزعة معاداة رجال الدين التى لم تلبث أن تحولت إلى تيار معاد للكنيسة نفسها، وبعد نهاية القرن الحادى عشر كان الاتجاه المتصاعد فى المجتمع الأوروبى هو الاستغناء عن الخدمات التعليمية والسياسية، بل والدينية ، التى كان الرهبان يقدمونها للمجتمع. ومن ناحية أخرى، كان العداء ضد رجال الكنيسة الكاثوليكية ومعاداة السلطة الكنسية يهددان مركز الكنيسة التقليدى فى المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، مما أجبر الكنيسة على خوض صراع يائس فى القرن الثالث عشر لاستعادة زعامتها. ومع كل عقد كان يمضى من القرن الثانى عشر، كان النقد ينهال بضراوة على ممارسات الكنيسة. وفى أواخر

هذا القرن شاع بين الشعراء، وطلبة الجامعات الناشئة، وكتاب البلاط الملكي، تأليف الهجائيات التي تدين رجال الكنيسة الكاثوليكية بالطمع والفساد. أما قصص بوكاشيو Boccaccio (١٣١٢ - ١٣٧٥م)، التي ذاعت في القرن الرابع عشر، فقد صورت القسيس في صورة الرجل العبيط، الجاهل، الشهواني، الخليع.

كذلك، وقفت البورجوازية الناشئة في أوروبا موقفًا عدائيًا من الكنيسة؛ فقد كان التاجر، أو الحرفي في القرن الثاني عشر، يشعر بمهنته أو حرفته شعورًا قويًا بالضرورة. فقد كان يعرف أن عليه أن يجتهد لتحقيق ما يجنبه الفقر والتعاسة، وهو الأمر الذي كان يجعله يشعر بالغيرة إزاء النبلاء ورجال الكنيسة الذين لم يكونوا مضطرين إلى الاعتماد على جهودهم الذاتية ويعيشون على جهد الفلاحين في إقطاعاتهم. لقد كان هذا البورجوازي في العصور الوسطى لا يعرف «التسامح» مشافيًا، كما كان يميل إلى الحكم على الآخرين بمقاييس حياته هو. وكان من رأيه أنه يجلس على رجل الكنيسة أن يعمل من أجل كسب عيشه، وأنه لا يجب أن يتمتع القسيس بسلطة المنصب الكنسي وامتيازاته ما لم يكن جديرًا حقًا بهذا المنصب من حيث صفاته الأخلاقية وسلوكه تجاه المجتمع. وكان هذا من أسباب سخط البورجوازية على الكنيسة.

وكانت غلطة البابوية في القرن الثاني عشر أنها لم تكيف نفسها بالسرعة والحيوية اللازمة مع النتائج بعيدة المدى التي أفرزها التغيير الاجتماعي. بل إنها ظلت متمسكة بموقف عدم التسامح على نحو ما ظهر

منها تجاه حركة دينية ظهرت في جنوب شرق فرنسا وهي الحركة المعروفة باسم الألبيجسية فقد دعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد هذه الحركة أدت في النهاية إلى تدمير الجنوب الفرنسي. بسبب الوحشية والضرارة التي تصرف بها الصليبيون في هذا الإقليم الذي كان مزدهرا وراقيا .

لقد تولت الكنيسة الكاثوليكية زمام الأمور في أوروبا الغربية منذ القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر، وعصر النهضة الأوربية على أقل تقدير ، إذ تعين على أساقفة روما أن يملأوا الفراغ السياسي الناجم عن انهيار السلطة الدنيوية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في روما سنة ٤٧٦م. وعلى الرغم من قيام عدة ممالك جرمانية على بقاع شتى في أوروبا الغربية ، فإن البابوية ظلت تمارس حق تنصيب الملوك ومسحهم بالزيت المقدس، كما ظل البابوات، على الرغم من فسادهم ، يزعمون أنهم نواب الرب على الأرض. وقد استمر هذا الوضع حتى انفجر الصراع السياسي على زعامة أوروبا بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع ، على نحو ما أشرنا في الصفحات السابقة.

ونخلص من هذا العرض الذي اهتم بالخطوط العريضة للتطورات التاريخية التي جرت على الصعيد الاجتماعى والثقافى إلى أن «عدم التسامح» كان هو الموقف الذى ميز الصراع بين الكنيسة والدولة فى أوروبا العصور الوسطى. وكان سلاح «الحرمان البابوى» الذى استخدمه البابا جريجورى السابع بنجاح فى صراع على السيادة ضد هنرى الرابع هو أقوى الأسلحة فى الترسانة البابوية . وقد رفضت الكنيسة ، باستعلاء

واضح وخطرة ملموسة، أى اختلاف معها سواء على المستوى السياسى أو الفكرى. وقد أدى هذا الموقف - بطبيعة الحال - إلى ردود فعل معاكسة على الجانب الآخر ، فانتشرت المذاهب المعادية لسلطة رجال الكنيسة والتي تحولت بسرعة إلى معاداة للكنيسة نفسها حسبما أشرنا من قبل. وانتشرت موجات التدين الشعبى النزق الذى يهتم بالمظهر دون أن يهتم بجوهر الأمور، وصار التعصب ورفض «الآخر» أريج الحياة فى المجتمعات الأوربية.

ومن ناحية أخرى ، شهدت أوربا منذ القرن الثانى عشر فصاعداً، نوعاً من القلق الفكرى والثقافى نجم عن اكتشاف الأوربيين أنهم يعيشون فى منطقة متخلفة قياساً إلى النولة البيزنطية التى كانت هى القوة المسيحية الكبرى فى شرق أوربا، وقياساً إلى المسلمين الذين كانوا هم الجار المتقدم، القوى الخيف لأوربا . وقد كان احتكاك أوربا بأولئك وهؤلاء عن طريق التجارة ، والحروب الصليبية ، والتفاعل الثقافى، وبدأت تتسرب إلى أوربا موجات من الفكر الأرسطى عبر الترجمات العربية والشروح والتعليقات والإضافات التى وضعها الفلاسفة المسلمون وعلى رأسهم ابن رشد . وتميزت الثقافة الأوربية منذ القرن الثانى عشر بالتقاؤل والإقدام الذى تجلى فى محاولة حل المشكلات التى يواجهها المجتمع الأوربى على أسس عقلانية، كذلك خرج التعليم والفكر الراقى فى أوربا من نطاق الاهتمام الضيق باللاهوت والآداب إلى رحابة الاهتمام بتحسين البنيان الاجتماعى والسياسى آنذاك.

ويطول سنة ١٢٠٠م كانت زعامة الكنيسة الكاثوليكية للمجتمع الغربى فى مجالات التعليم والتدين والسلطة، تتعرض للتحدى من جانب قوى كثيرة فى المجتمع الأوربى؛ وهى المجالات التى نمت وتقدمت فيها التيارات المناهضة للكنيسة خلال القرن الثانى عشر نفسه، وتمثل هذا التحدى للزعامة الكنسية فى مجالات الفلسفة والعلم الأرسطى أكثر من غيره بيد أن الكنيسة لم تقف ساكنة إزاء هذا التحدى، كما أنها لم تحاول أن تفهم مواقف القوى المناهضة لها إزاء الوضع الجديد فى أوربا وظلت سادرة فى موقفها القائم على «عدم التسامح».

وتمثلت النتيجة فى مزيد من التدهور فى السلطة الكنسية، فقد بدأ تطوير مؤسسات وسلطات جديدة كانت تمثل تحدياً قوياً لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، ومع نهاية السنوات العشر الأولى من القرن الخامس عشر الميلادى كانت سلطة الكنيسة قد انحسرت تماماً فى كل من إنجلترا وفرنسا بحيث وقفت البابوية عاجزة عن فعل أى شئ إزاء هذه التطورات، وأخفقت فى وقفها . كما أن الفضائح والإخفاقات التى حاقت بالقيادة الكنسية فى ذلك الحين، خلقت الفرصة لموجة جارفة من موجات العداء لرجال الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما تحولت إلى حركة لمعاداة سلطة الكنيسة مثلما حدث فى القرن الثانى عشر قبل قرنين من الزمان ، بيد أن الانشقاق على الكنيسة (الهرطقة) فى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وجد أقدر من يدافع عنه من أفضل المفكرين فى الجامعات الأوربية.

وتفكك عالم العصور الوسطى فى أوربا بسبب «عدم التسامح» الذى

رسته البابوية والكنيسة الكاثوليكية إزاء «الآخر» ، وتم تشجيع الفردية الدينية بفضل ذلك المذهب الخطير القائل بأن السلطة الدينية ينبغي أن تكون داخل الضمير الفردى لكل إنسان . وكان هذا فى الواقع هدمًا للكنيسة الكاثوليكية من ناحية، وتمهيداً لظهور البروتستانت من ناحية أخرى، وكان جون ويكلف (١٣٢٠-١٣٨٤م) الذى كان أستاذًا بارزًا من أساتذة اللاهوت فى أوكسفورد من أهم من روجوا لهذه الفكرة . وقد كانت أفكار ويكلف هى الأفكار التى طرحها مارتن لوتر فى القرن السادس عشر. وقد قامت ثورة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر لنتهى لاحتكار رجال الدين الكاوليك للزعامة الدينية، مثلما أنهت الدولة زعامتهم السياسية، وأنهت الجامعات زعامتهم الفكرية.

وعند بداية القرن السادس عشر كان هناك شعور واسع النطاق بأن النظام الاجتماعى يتطلب خضوع كافة الطبقات والطوائف ، والهيئات لسيادة القانون المطلقة. ومن ناحية أخرى سادت قيم جديدة ذات طبيعة دنيوية فى الأوساط الاجتماعية، فقد كان الفرد يقوم بواجباته الدينية دون أن يرتبط ذلك بالمؤسسة الدينية وكان معيار انتساب المرء إلى الصفوة هو تعليمه وسلوكه وأسلوبه . وكان ظهور هذه الأخلاقيات الدنيوية مؤشراً على تدهور الزعامة البابوية ، وكان هذا يعنى فى التحليل الأخير «ذبول» موقف «عدم التسامح» الذى ميز العصور الوسطى، وصار «التسامح» آلية اجتماعية / ثقافية ضرورية لبقاء المجتمعات الأوروبية وتطورها منذ عصر النهضة.

(٤)

النموذج المصرى

هناك أدلة عديدة تشير إلى أن مصر، بسبب ظروفها الجغرافية وطبيعة التطورات التاريخية التى جرت عليها، كانت أرضاً للتسامح . والتسامح هنا بمعنى قبول «الأخر» على الأرض المصرية واستيعابه داخل التسيج الاجتماعى والثقافى المصرى المتجانس . إذ إن هؤلاء الزراع الذين شادوا حضارة من أقدم حضارات الإنسان ، قد أدركوا أن التعاون والاعتماد المتبادل هو الصيغة المثلى للحياة فى مجتمع ينشد لنفسه ، مكاناً متميزاً بين المجتمعات الإنسانية ؛ فد قرض نهر النيل مصير الحياة الأساسى فى مصر، نوعاً من ضبط الناس فى صيغة تعاونية تتطلبها الحياة فى الشطر المصرى من وادى النيل الذى كانت الزراعة قوامها وأساسها . وتتسم الطبيعة المصرية بقدر كبير من الاتساق والوحدة تركت تأثيراتها الواضحة على كل من سكن هذا البلد . طوال عصوره التاريخية.

فالحياة المصرية تقوم ، بالضرورة ، على التناغم والانسجام والتوافق بين سكان وادى النيل الذى يشبه فى شطره المصرى، من أسوان إلى سواحل البحر المتوسط ، شارعاً ممتداً تتوفر فيه أسباب الحياة من خلال نهر النيل الذى يشق هذا الشارع المتخيل بطوله من الجنوب إلى الشمال ،

ولم يكن ممكناً أن ينفصل سكان جزء من هذا الشارع المتخيل عن بقية سكانه. ومن هنا جاءت المركزية السياسية التي تجسدت في أقدم حكومة في العالم ، وانعكست على المجتمع في نوع من الوحدة الاجتماعية والثقافية لانجد لها مثيلاً في أى بقعة أخرى من كوكب الأرض، وبهذا كان قبول «الآخر» أول درس حضارى تعلمه المصريون . وقد أدى هذا ، من ناحية أخرى ، إلى أن يذوب كل القادمين إلى مصر في هذا المجتمع ويصيروا جزءاً من الكل المصرى بعد جيل أو جيلين .

ولم تستطع القوى الخارجية التي لحت على مصر عبر عصور تاريخها الطويل أن تفعل شيئاً أكثر من السيطرة السطحية على البلاد، ولم تتمكن من اختراق النسيج الاجتماعى والثقافى المصرى. فالحكسوس ، ثم البطالمة والرومان، ظلوا يعيشون بعيداً عن الحياة المصرية بمستوياتها المختلفة . بيد أن كل من جاء إلى مصر مهاجراً أو مقيماً لقى هذا النوع من «التسامح» الذى اشتهر به المصريون تجاه الآخر . ومن ناحية أخرى استوعبت الثقافة المصرية كل العناصر الثقافية الصالحة الوافدة إليها من المنطقة العربية ، أو من أفريقيا ، أو من عالم البحر المتوسط فى الشمال، ومزجتها فى بوتقة الثقافة المصرية وتيارها العام.

وبعد الفتح الإسلامى لمصر فى القرن السابع الميلادى، تجلى هذا التسامح بصورة واضحة وبشكل مطرد ، إذ كان المصريون يعانون بشدة من جراء الاضطهادات المذهبية التى مارستها ضدهم السلطات البيزنطية. ومن الثابت تاريخياً ، أن الفاتحين لم يتعرضوا لأهل مصر، الذين كانت

غالبيتهم من المسيحيين ، وكانت بينهم أقلية يهودية بشى من القيود على حرياتهم الدينية، ولما عرف «بنيامين» بطريك الأقباط أنذاك بقدوم المسلمين استبشر بزوال الحكم البيزنطى وطلب من الأقباط أن يساعدوا المسلمين. وبالفعل أسهم الأقباط فى بناء الجسور والطرق وإقامة الأسواق لجيش الفتح الإسلامى، بل إن بعضهم أسهم فى عمليات القتال ضد البيزنطيين لاسيما فى المعارك النهرية التى جرت فوق مياه نهر النيل. وبعد الانتصار النهائى للمسلمين استقدم «عمرو بن العاص» الأنبا بنيامين وأمنه ، فأخذ هذا البطريك، الذى قضى الشطر الأكبر من حياته هارباً من اضطهاد البيزنطيين، يعيد بناء الأديرة والكنائس التى هدمها البيزنطيون ، أو كانوا قد صادروها لحساب أتباع مذهبهم .

على الجانب الآخر بدأ المصريون يتجهون تدريجياً نحو الإسلام واللغة العربية . وقد تم تعريب مصر بصورة أسرع من انتشار الإسلام بها . إذ إن المسلمين لم يصيروا أغلبية فى مصر سوى بعد منتصف القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادى ، ولكن اللغة العربية صارت لغة الإدارة والثقافة والحياة اليومية، بالنسبة لغالبية المصريين فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لأسباب كثيرة : أهمها أن اللغة المصرية واللغة العربية لم تكونا فى حقيقة الأمر سوى لهجتين فى شجرة اللغات السامية / الحامية تطورنا مع الزمن لتصبح كل منهما لغة مستقلة (وينبغى أن نتذكر هنا أن اللغة العربية الحالية ، والتى نزل بها القرآن كريم هى فى الأصل لهجة قريش إحدى اللهجات العربية) . ويعتبر القرن الثالث الهجرى / التاسع

الميلادى أهم القرون فى تاريخ الثقافة المصرية العربية بوجه خاص . فقد شهد هذا القرن اكتمال التفاعلات بين الموروثات الثقافية للبلاد التى دخلت تحت راية الإسلام ، وما جاء به الدين الإسلامى واللغة العربية. وفى داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية وجدت ثقافات محلية متنافسة فى مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربى، وبلاد المشرق الإسلامى، وفى الأندلس وشرق أسيا . وقامت فى كل من هذه البلدان مراكز علمية وثقافية متنافسة ومتعاونة فيما بينها. وكانت حركة الترجمة المنظمة ، والتى أشرفت عليها الدولة، قد أتت أكلها وبدأ الإسهام العربى الإسلامى الخالص فى تاريخ العلوم رحلته المعروفة.

كانت أهم سمات هذه المرحلة فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، أنها قبلت «الأخر» على أساس حقه فى الوجود والتعبير الفكرى والإسهام الثقافى والإفادة من إنجازات هذا «الأخر» . ولم تكن حركة الترجمة لنقل علوم القدماء من الهنود والصينيين والفرس والسوريان والمصريين واليونان والرومان سوى نوع من «التسامح» الذى يقبل «الأخر» . وكان هذا موقفاً مناقضاً تماماً لما حدث بعد انتصار المسيحية فى أوروبا حينما خاصم «آباء الكنيسة» التراث الكلاسيكى باعتباره «تراثاً وثنيّاً». وتمثلت نتيجة هذا الموقف «التسامح» فى نمو الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، ولعت أسماء كثير من اليهود والمسيحيين الذين كرسوا مواهبهم وعبقريتهم فى خدمة الحضارة التى لم تنبذهم وتعتبرهم منهم. لقد تعاملت الجماعة العربية المسلمة مع «الأخر» المختلف نينياً على أنه جزء

من «الذات الثقافية» ، ولم يكن اليهود والنصارى وغيرهم ممن عاشوا فى رحاب «دار الإسلام» يعتبرون «هم» سوى من الناحية الدينية، ولكنهم كانوا «نحن» من حيث انتمائهم إلى الحضارة العربية الإسلامية .

ومن المهم أن نشير إلى أن هذا الموقف لم يكن موقفاً مبنياً على فكرة «التسامح» إذ لم يكن ثمة خطأ ينسب إلى هؤلاء الذين يختلفون دينياً عن المسلمين، وإنما كان هذا موقفاً قائماً على أساس من الحقوق والواجبات التى حددها الفقهاء المسلمون فى إطار ما عرف فى الشريعة الإسلامية بعقد الذمة، وهو موضوع يخرج عن نطاق اهتمام هذه الدراسة إلى حد ما .

ولم تكن مصر استثناء فى ذلك بطبيعة الحال، إذ إن المجتمع المصرى ظل على تجانسه على الرغم من أن بعض المصريين كانوا يعنقون ديانة تختلف عن ديانة البعض الآخر. ومن الناحية الاجتماعية تركت المسائل الداخلية فى أوساط اليهود والمسيحيين للرؤساء القانونيين لكل منهما حسب ظروف كل من هاتين الجماعتين وفيما هذا ذلك أسهم المسيحيون واليهود، بقدر أو يَخر فى المجرى العام للحياة الاجتماعية فى البلاد. وعلى الرغم من أن السلطات الحاكمة سمحت للأقباط باستخدام لغتهم القبطية لأول مرة فى الوثائق القانونية، وهو ما لم تسمح به الحكومة البيزنطية، كما تدل الشواهد سوى فى أواخر العصر البيزنطى وفى نطاق ضيق للغاية هو القانون الخاص فقط. ولاشك فى أن تعريب الإدارة الحكومية فى مصر، منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، قد نفعت الكثيرين من المسيحيين

المصريين واليهود إلى تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم الاحتفاظ بوظائفهم-
نقول إنه على الرغم من هذا، فإن الأقباط تخلوا عن لغتهم منذ أواخر
القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

فمنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر مؤلفات كتبها المسيحيون المصريون باللغة
العربية في الموضوعات الدينية وفي التاريخ... وما إلى ذلك. فقد كتب
«سعيد بن البطريق» كتابه المعروف فى التاريخ باللغة العربية، وهو من
أقدم كتب التاريخ التى كتبها مؤرخون مسيحيون ، كما أنه ألف عدة كتب
للرد على أتباع المذهب النسطورى المسيحى، ولرد على الأقباط اليعاقبة
(أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) . كذلك كتب معاصره «ساويرس بن
المقفع» ، أسقف الأشمونين، تاريخه المعروف بعنوان «سير البيعة المقدسة»
أو «سير الأباء البطارقة» باللغة العربية . ولهذا الرجل عدة مؤلفات أخرى
باللغة العربية منها كتب فى الرد على سعيد بن البطريق دفاعاً عن مذهب
الأقباط ومؤلفات دينية أخرى فضلاً عن مؤلفاته التاريخية، أما اليهود، فقد
استخدموا اللغة العربية فى حياتهم اليومية وفى معظم إنتاجهم الأدبى، بل
إنهم استخدموا اللغة العربية فى شروح التوراة والتعليق على التلمود .
وظلت العبرية قاصرة على التراث الدينى اليهودى فقط.

ومن ناحية أخرى ، حظيت الأقليات الدينية فى مصر آنذاك بضمنان
حرية العقيدة بجانب حرية العمل وكسب العيش وتأمين الأرواح والأغراض
والممتلكات . وتمثلت نتيجة ذلك فى أن العلاقات الاجتماعية بينهم وبين
المسلمين قد اتسمت بالود والتسامح . وبرزت من بين اليهود والمسيحيين

المصريين أسماء أفراد تميزوا في بعض المهن ذات المكانة الاجتماعية الراقية، مثل الطب والإدارة والمالية. .. وغيرها . وقد ظل المسيحيون واليهود المصريون يواصلون حياتهم داخل المجتمع المصري باعتبارهم جزءاً من الكل المصري، وكان المسلمون يشاركونهم الاحتفال بأعيادهم التي اكتسب بعضها طابعاً مصرياً عاماً، كما تركت تأثيراتها على عادات المصريين وتقاليدهم ، مثل عيد الغطاس المسيحي وقد عرف العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٤ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) في أوساط المؤرخين عمومًا بأنه العصر الذهبي لليهود والمسيحيين المصريين. وقد وصل بعضهم إلى أرقى المناصب المالية والإدارية في الدولة، ولعل أشهرهم قاطبة هو اليهودي يعقوب بن كلس ، الذي أعلن إسلامه في أيام كافور الإخشيدي، ثم كان أعلى سلطة إدارية ومالية في مصر تحت حكم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، وصار أول وزير للدولة الفاطمية في مصر في عهد الخليفة العزيز بالله ، ولم يكن هذا الرجل استثناء في ذلك ، فقد برزت أسماء «منشأ اليهودي» ، و«ابن نسطورس المسيحي» ، و«الأفرم» المسيحي الذي استخدمه الخافض لدين الله أميراً للدواوين .

وهي المستوى الاجتماعي مارس اليهود والتصارى المصريون حياتهم الاجتماعية داخل السياق الاجتماعي المصري بفضل روح «التسامح» المصرية. فقد استمرت احتفالاتهم بأعيادهم ومواسمهم وشاركهم سائر المصريين الاحتفال بعيد الغطاس، وخميس العهد (الذي كان المصريون يطلقون عليه اسم خميس العدس)، وعيد النيروز الذي كان احتفالاً مصرياً قديماً بموسم الربيع واستمر طوال تلك العصور.

وربما يكون مفيداً أن نقتبس كلام المؤرخ ابن إياس في وصفه للاحتفالات بعيد الغطاس الذي كان يشارك فيه المسيحيون والمسلمون على السواء، إذ كانت الخيام تقام على ضفتي نهر النيل ، وتكتسي صفحة النهر بالعديد من الزوارق والمراكب التي تتلألأ بالمشاعل والألوان ليلاً... وكان يشعل على الشطوط في تلك الليلة أكثر من ألف مشعل وفانوس... ولا يخلق في تلك الليلة نكان، ولا نرب، ولا سوق... ويتبادل المسلمون والمسيحيون الهدايا من أصناف الطعام والحلوى.

ولم يشهد العصر الأيوبي - الذي اتسم بالانضال المتواصل ضد الفرنج الصليبيين الذين احتلوا القدس سنة ١٠٩٩م، وأقاموا مملكة ومدة إمارات على الأرض العربية في فلسطين وبلاد الشام وحتى اقتلعهم المماليك وقضوا على وجودهم بعد حوالي قرنين من الزمان - أي اختلاف في الأحوال الاجتماعية لليهود والمسيحيين المصريين . وقد عاش اليهود والمسيحيون المصريون حياتهم العادية.

وفي عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) شارك اليهود والمسيحيون في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية مشاركة إيجابية في معظم الأحيان باعتبارهم جزءاً عضوياً من الكل المصري. ولم يكن الاختلاف في الدين بينهم وبين المسلمين يحول دون قبولهم . ولم يكن هذا تابعاً من موقف «التسامح» إزاعهم باعتبارهم «الأخر»، وإنما كان إقراراً بحقوقهم وواجباتهم باعتبارهم جزءاً من الذات الحضارية المصرية . فقد كانت الثقافة المصرية، ببعدها العربي والإسلامي

، تراهم جزءاً من «نحن» المصريين على مستوى البلاد المصرية، وجزءاً من «نحن» الحضارة العربية الإسلامية.

خضع المسيحيون واليهود المصريون ، بطبيعة الحال، للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية نفسها التي خضع لها المجتمع المصري كله والتي شكلت ملامح الحياة في ذلك العصر من ناحية، كما أنهم تركوا بصماتهم وتأثيراتهم - مثل بقية المصريين- في مجريات الحياة المصرية ، وفي عادات المجتمع المصري وتقاليد من ناحية أخرى ، فقد شارك المسيحيون واليهود في المناسبات السياسية بحسب ما جرت عليه الممارسات السياسية آنذاك . كما أنهم كانوا عنصراً مهماً لاغني عنه في عصر لم تكن فيه مدارس أو معاهد أو جامعات تتخصص في تدريب الهيئات المالية والإدارية اللازمة للدولة، وإنما كانت العائلات المسيحية تتوارث هذه الخبرات في ميادين الحساب والمساحة والضرائب والإدارة المالية عموماً. وقد مارس اليهود والنصارى كافة أنواع النشاط الاقتصادي في مصر في ذلك العصر على نحو ما تشير إليه الوثائق وتؤكد المصادر التاريخية الأخرى، كما أنهم تملكوا العقارات في سائر أنحاء البلاد ومارسوا كافة الحرف والمهن وأسسوا الشركات فيما بينهم أو مع مواطنيهم المسلمين.

ومن الحقائق المهمة في هذا المقام ، أن اليهود والمسيحيين المصريين أسهموا إسهاماً إيجابياً في أنشطة المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، وقد شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيادهم بالشكل الذي

يؤكد أن هذا الموقف كان قائماً على أرضية من الاعتراف بحق أبناء هذه الطوائف في اختيار دينهم وحقوقهم في ممارسة حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في سياق ثقافة لاتنفي حق الاختلاف، ولا تجعل من هذا الاختلاف ذريعة للتعالي، ومن ثم فليست هنا ضرورة «التسامح» بالمفهوم الذي أقرته الحضارة الأوروبية الكاثوليكية على النحو الذي ناقشناه في الفصل السابق.

وقد تميز بعض اليهود والنصارى في مجالات الثقافة والعلم المختلفة. وذاعت شهرة كثير منهم في ميادين الطب والأدب والحساب والفلك... وما إلى ذلك - ولو أنهم اعتبروا «آخر» - على نحو ما حدث في أوربا العصور الوسطى - لما أمكن لهم أن يسهموا بمواهبهم في خدمة بلادهم ومجتمعاتهم والدليل على ذلك أن أوربا العصور الوسطى لم تسمح بظهور متميز لأي من اليهود الذين عاشوا في سائر أقطابها.

فهل كانت التجربة المصرية إزاء قبول التنوع والاختلاف والتعدد شذوذاً على مجريات الأمور في سائر أقطاب العالم الإسلامي أثناء فترات القوة والسيادة العربية الإسلامية؟

إن خصوصية التجربة المصرية لاتنفي الأساس الذي قامت عليه، وهي النظرية السياسية للدولة الإسلامية التي لم تضع عقبات أمام رعاياها من غير المسلمين، إذ أتاحت الدولة الإسلامية، بمفهومها الديني، لرعاياها من اليهود ومن المسيحيين قدراً كبيراً من الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية يساوى ما كان متاحاً للرعايا المسلمين بحكم أن الدولة

ونظامها السياسى قائمان على أساس الشريعة الإسلامية من ناحية، وأن المسلمين كانوا هم غالبية رعايا هذه الدولة الإسلامية من ناحية أخرى. وإذا أخذنا فى اعتبارنا ظروف تلك العصور، التى كان الدين قوام الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فيها، وإذا أخذنا فى اعتبارنا أيضاً أنه لايجب إسقاط المفاهيم السياسية المعاصرة على عصور تاريخية كانت تحكمها مفاهيم سياسية مختلفة. فإن الأمر يصبح أكثر وضوحاً وقابلية للفهم. كذلك فإن الحقيقة القائلة بأن الحضارة الأوربية الكاثوليكية فى العصور الوسطى لم تكن تقبل بوجود الآخر، أو «تتسامح» مع اختلافه وغيابته، على نحو ما تكشف عنه مواقفها ضد المسيحيين الذين يخالفونها فى المذهب ، أو اليهود الذين عاشوا فى مجتمعات الغرب الأوربي آنذاك ، أو المسلمين، هذه الحقيقة تكشف عن حقيقة مضادة تتعلق بالحضارة العربية الإسلامية.

فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة «متسامحة» بالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للكلمة، وكانت هى الحضارة التى «تسمح» بوجود الآخر داخل أراضيتها ، وتقبل اختلافه وغيابته، وتسمح له أن يكون جزءاً عضوياً من مجتمعاتها وتمكنه من أن يستخدم مواهبه فى خدمتها ، باختصار لم تكن تعتبر «الآخر» الدينى «آخر» على المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، وإنما كانت تعتبره جزءاً من الذات الحضارية العربية الإسلامية، ولم تكن مصر لتتشذ عن هذه القاعدة الأساسية من قواعد هذه الحضارة.

بيد أن التجربة المصرية تحمل فوق هذا نوعاً من الخصوصية التي فرضتها حقائق التاريخ المصرى، وطبيعة الجغرافيا المصرية. فمنذ البداية، منذ فجر التاريخ المصرى، كان على الإنسان فى مصر أن يتفاعل مع توجهات الجغرافيا المصرية، إذ إن الناظر إلى جغرافية مصر سيكتشف بسهولة أن هذه البلاد أشبه ما تكون بالواحة الفيضية التي كونها الفيضان السنوى لنهر النيل على أبواب أفريقيا الشمالية الشرقية. ولأن النيل يكاد يكون هو مصدر الحياة الوحيد، كان على المصريين أن يعملوا سوياً منذ بداية وجودهم لتطويع النهر وتطويع الأرض . وقد أدى هذا، فى مسار التاريخ المصرى إلى اندماج كل العناصر التي تعيش على حافتي النهر فى شطره المصرى فى نسيج اجتماع واحد، يفرض وحدة الذات الحضارية ، ويشكل ثقافة المجتمع ، ويزيد من قدرته على هضم واستيعاب كل العناصر البشرية والثقافية الوافدة، وهذا هو السبب فى أن المجتمع المصرى لا ينتظر إلى المختلف على أنه «الآخر» ما دام يعيش فى رحاب هذا المجتمع، ويرى «الآخر» خارج الحدود . فإذا كان «الآخر» عدواً عامله بما يستحقه ، أما إذا كان صديقاً أو جاراً قبل اختلافه وتعامل مع هذا الاختلاف على أساس من القبول والاعتماد المتبادل .

ومن الطبيعى أن يكون هذا المجتمع «المتسامح» مع الآخر عبر الحدود أكثر تسامحاً فى تعامله مع الفئات التي يتكون منها الداخل ، ودليلنا على ذلك هو موقفه من المماليك، فقد كانت مشاعر المصريين، مسلمين وغير مسلمين، تجاه الحكام المماليك مزيجاً من الولاء السياسى والدينى ،

والكراهية الاجتماعية والثقافية . فقد كانت مؤسسة الحكم المملوكية حريصة على تأكيد عزلتها عن المجتمع المصرى من خلال تلك الأعداد المتزايدة من المماليك الذين يجلبهم تجار الرقيق من الخارج ، ولكن السلاطين اكتسبوا شرعية صورية بإحياء الخلافة العباسية والواجهة الدينية التى تستروا وراءها . فقد كانوا يحكمون بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة، كما أعلنوا حمايتهم على المقدسات الإسلامية فى الحجاز وفلسطين . ولكن عزلتهم وممارساتهم القظة جعلت الناس يكرهونهم، بيد أن هذا الموقف لم ينسحب على أولاد هؤلاء المماليك . وقد عرف أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر ، ونشأوا على ترابها ، ولم يمسه الرق، باسم «أولاد الناس» فى مصطلح ذلك العصر. وقد كانت لهم مكانة اجتماعية وسياسية أقل من مكانة المماليك، وغالباً ما كان «أولاد الناس» هؤلاء ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التى يحيا أبائهم فى ظلها ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والإنتاج الحضارى التى يعيشها سائر المصريين وربما أسهم بعضهم فى النشاط العام للمجتمع المصرى، ولاسيما الجانب الثقافى والعلمى من هذا النشاط. وقد برز عدد كبير من المؤرخين اللامعين فى تاريخ الكتابة التاريخية وفى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، تذكر منهم على سبيل المثال «ابن أبيك الدوادار» و«خليل بن شاهين الظاهري» و«صارم الدين بن دقماق» ، و«ابن إياس»... وغيرهم . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى الذى عرفه المصريون وألفوه، إذ إن وجودهم فى المجتمع المصرى

كان هامشياً ، ولم يكن قائماً على أساس الأسرة بوصفها خلية أولية في البناء الاجتماعي، وإنما اعتمد على القوة العسكرية التي يحوزها الأمراء الكبار، ممثلة في ممالك كل منهم الذين كانوا سنداً وعدته في الصراع المرتقب، على السلطة ، ضد غيره من الأمراء . ومن ثم ، كان السلاطين والأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لماليتهم ، وهكذا لم يكن لديهم ما يكفي لرعاية أبنائهم الذين تركوهم لكي يتشأوا في «حجر الحريم» على حد تعبير ذلك العصر .

كان هذا هو السبب الأساسي في اندماج «أولاد الناس» في النشاط العام للمجتمع المصري. وقد تقبلهم هذا المجتمع وامتصهم بحيث كانت الأجيال الثانية أو الثالثة منهم يتحولون إلى مصريين حقيقيين . وربما يكون مفيداً أن نشير إلى أنهم فقدوا امتيازاتهم الطبقية بمرور الزمن، كما تعرضوا لما تعرض له سائر المصريين لاسيما في سنوات التدهور الذي عانت منه الدولة والمجتمع في القرن الأخير من ذلك العصر المثير.

هكذا، كان «التسامح» بمعناه اللغوي والاصطلاحي سمة الحياة المصرية عبر التاريخ المصري، وقد ساعد على هذا ورسخه أن عامة المصريين لم يكونوا على اتصال مباشر بالسلطات الحاكمة ، فقد كان لكل طائفة من طوائفهم من يمثلهم أمام السلطات . وكان من الممكن للفرد المصري أن يعيش حياته كلها، من مولده إلى وفاته، دون أن يضطر إلى التعامل مع الدولة.

وقد استمر هذا الموقف طوال العصر العثماني ، ولم يبدأ في التغير سوى في زمن الحملة الفرنسية التي حاولت سلطاتها التدخل في الشؤون

الخاصة للناس، ولكن وجودها القصير على الأرض المصرية حال دون ذلك. وتكرر الأمر بشكل نسبي في عهد محمد علي بسبب مشروعاته لتحديث البولة المصرية، والتجنيد الإجباري الذي عرفه المصريون لأول مرة في تاريخهم، ومحاولات حصر المواليد والموتيات. بيد أن الانفصال بين الحاكم والمحكوم ظل قائماً بشكل ما حتى بدأ العمل بنظام البطاقات الشخصية والعائلية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

لقد ظل «التسامح» من خصائص المجتمع المصري حتى جرى ما جرى في سبعينيات القرن العشرين. وبرزت لأول مرة مشكلة «الطائفية» و«عدم التسامح» في حياة المصريين، ولم يكن ذلك لأسباب اجتماعية وثقافية بقدر ما كان ناتجاً عن أسباب سياسية : داخلية وخارجية . ولم تتوقف حدود هذه «الطائفية» الطارئة عند الحدود النينية، وإنما تعدتها إلى نمط من «الطائفية السياسية» ونوع من الطائفية الاجتماعية ، ثم صورة من «الطائفية الثقافية» .

ذلك أن عدم الإيمان بالتعددية السياسية في السبعينيات أدى بالضرورة إلى انتشار عدوى التسلط، والاستعلاء، وعدم الاعتراف بالآخر «السياسي» إلى الجوانب الأخرى من جوانب الحياة المصرية. كما أن الفكر السلفي البدوي ، الذي هبت علينا رياحه الفاسدة من مناطق عربية امتلكت الثروة، وظنت أن من حقها قيادة الأمة العربية والإسلامية ، ينكر حق «الآخر» في الاختلاف وفي الوجود، ومن ناحية أخرى ، كانت هناك أنماط أصولية مسيحية تنتشر في العالم وتترك بصماتها على بعض

المسيحيين المصريين . وكانت نتيجة ذلك كله مريجة من «عدم التسامح» إزاء الآخر المختلف.

لكن على الرغم من كل ما حدث وما يحدث فلا بد أن نعترف أن «الطائفية الدينية» قد حوصرت في مهدها بفضل التراث التاريخي الطويل لمصر والمصريين في التسامح والاعتراف بأهمية الاعتقاد المتبادل بين المصريين جميعا .

تأملات وملاحظات ختامية

يشير سؤال «التسامح» بالضرورة ، أسئلة أخرى تتعلق بحياتنا السياسية والثقافية الراهنة . فلاشك في أننا نعيش أزمة ذات وهوية ، عنيفة في طبيعتها، عميقة في مداها . ولاشك أيضاً في أن هذه الأزمة لم تهبط علينا من السماء مع المطر الذي لا يهطل كثيراً على بلادنا . قد أسهمنا بجهد غير منكور وغير مشكور في صنع هذه الأزمة التي ازدادت وطأتها في زمن توالى فيه ضربات الأعداء واتهاماتهم ، وتكاثرت علينا نواب لاتعرف «التسامح» .

فهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نفتقر إلى الحوار والتسامح في داخل مجتمعاتنا .

وهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية وقد رضينا لأنفسنا دور التابع المهزوم سياسياً وفكرياً، بعد أن تخلينا عن دورنا في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها ؟

وهل نرفض دعاوى «العولة» خوفاً من الهيمنة؟ أم نحاول أن نكسب من العولة التي ليست شراً كلها ؟ وهل نملك القدرة على هذه التفرقة والفرز في ضوء ظروفنا الراهنة؟

وأخيراً هل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نستهلك ما ينتجه «الآخر» من إنتاج مادي ومن إنتاج فكري على السواء؟ أم ترانا بحاجة

إلى أن تنتج ما يجعلنا شركاء «لآخر» في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها حتى يتسنى لنا أن نطالب «الآخر» بالحوار «والتسامح» ؟ فما الذى يدفع «الآخر» على أن يرفع قومه ارتضوا لأنفسهم دور والتابع والمستهلك والمهزوم إلى مكانة الشريك والمنتج والند ؟

لقد فرضت التطورات التاريخية مفهوم «التسامح» على الثقافة الأوربية حين استطاعت القوى السياسية والاجتماعية والفكرية أن تقوض الزعامة الكنسية على أوروبا، كما كان «التسامح» من سمات الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت قوية ومنتجة وذات إرادة فاعلة.

إن طبيعة الإجابة على الأسئلة السابقة هي التي سوف تحدد موقفنا من الآخر، وموقف «الآخر» منا، تسامح واعتماد متبادل أم «عدم تسامح» وإنكار وعداوة !!

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية :

- * ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد :
- الكامل في التاريخ (القاهرة ١٢٩٠هـ) .
- * ابن الأثير (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٣٧هـ) :
- معالم القرية في أحكام الحسبة (نشره ليفي كمبرج ١٩٣٧م).
- * أسامة بن منقذ :
- كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى .
- * ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى المصرى، ت ٩٢٠هـ):
- بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق د. محمد مصطفى
جمعية المستشرقين الألمان القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٣م) .
- * ابن بطريق ، أفيتشوريوس المكتى سعيد بن بطريق :
- التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق (بيروت ١٩٠٩م) .
- * ابن تيمية، تقي الدين أو العباس أحمد بن عبد الحليم الحلبي :
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ٤ أجزاء (القاهرة
١٣٢٣هـ) .
- * ابن جبير :
- رحلة ابن جبير (نشر وتحقيق د. حسين نصار) .

* ابن الحاج (محمد بن محمد العبدري الفاسي - ت ٧٣٧هـ):

- المدخل إلى الشرح الشريف (٤ أجزاء - القاهرة ١٣٤٨هـ).

* ابن الراهب ، أبوشاكر بطرس بن أبي الكرم المذهب :

- تاريخ ابن الراهب (نشره لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٣م) .

* رينهرت نوزي :

- المسلمون في الأندلس ، ج ١ : المسيحيون والمولدون . (ترجمة

وتعليق د. حسن حبشي ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة

١٩٩٨م).

* ابن زين (أبو محمد عبدالله بن أحمد القاضي / ق ٩ هـ) :

- شروط النصاري (مخطوط بدار الكتب ١٢٠٩ تيمور) .

* الطاهر أحمد مكي :

- ملحمة السيد - دراسة مقارنة (ط. ثانية دار المعارف ١٩٧٩م).

* ابن شداد :

- النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق جمال الدين

الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م)

* الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :

- تاريخ الرُسل والملوك (ط. ثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م).

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله :

- فتوح مصر وأخبارها (نشره تشارلز توري، ليدين ١٩٣٠م).

* عبد اللطيف حمزة :

- الحركة الفكرية في مصر في العصورين الأيوبي والمملوكي الأول،
(دار الفكر العربي ١٩٦٨م).

* ابن العبري (أبو الفرج جريجوريوس بن أهارون الملقب ٦٨٥هـ) :

- تاريخ مختصر الدول (دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م).

* ابن العديم :

- زبدة الطلب من تاريخ حلب. (تحقيق سامي الدهان، دمشق،
١٩٥١م).

* العماد الكاتب الأصفهاني :

- الفتح القسي في الفتح القدسي (تحقيق محمد محمود صبيح،
القاهرة ١٩٦٥م).

* ابن العميد، المكين جرجس :

- تاريخ الأيوبيين ، (نشرة كلود كاهن C. Cahen).

Bulletin d' étude Orientales, tom . 1995-57, Damas
(1958)

* ابن فضل الله العمري (شهاب الدين ت ٧٤٩هـ) :

- التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢هـ).

* قاسم عبده قاسم:

- الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق ، (دار عين للدراسات
والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٢م).

- ماهية الحروب الصليبية ، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤م) .
- الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية ، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٩م) .
- أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٣م).
- «صورة المقاتل الصليبي في المصادر التاريخية العربية» ، (المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٧ ، سنة ١٩٨٠م)
- الشعر والتاريخ- دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية» ، (المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٨ ، ٢٩ سنة ١٩٨١م، وسنة ١٩٨٢م)
- «الحروب الصليبية في ألف ليلة وليلة» ، (مجلة المأثورات الشعبية الصادرة عن مجلس التعاون لدول الخليج السنة الثانية، العدد السادس، أبريل ١٩٨٧م) .
- عصر سلاطين المماليك : التاريخ السياسي والاجتماعي ، (دار عين للدراسات) .
- * **ابن المقلاعي** ، أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، (بيروت ١٩٠٨م) .
- * **القلقشندي**، شهاب الدين أحمد بن علي: صيغ الأمشا في صناعة الإنشاء ، (طبعة دار الكتاب المصرية بداية من سنة ١٩١٣م) .
- * **ابن قيم الجوزية** (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ) :

- أحكام أهل الذمة (نشره صبحى الصالح دمشق ١٩٦١م) .

* محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، (لجنة النشر للجامعيين ، مصر سنة ١٩٤٩م) .

* الفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والنثر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، (نشره وترجمه إلى الفرنسية بلوشيه

E. Blouchet Patrologia Orientalis , toms XII , XIV , XXII
, Paris 1919).

* الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى: الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) .

* المقرئى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور دار الكتب المصرية حتى سنة ١٩٧٣م) .

* أين المقفع ، ساويرس أسقف الأشمونين:

- تاريخ بطاركة الاسكندرية (نشره يسى عبد المسيح وأسولد برمستد، القاهرة ١٩٤٣م) .

* لويس شيخو :

- شعراء النصرانية بعد الإسلام ، (بيروت ١٩٢٤) .

* ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣هـ) :

- المذمة فى استعمال أهل الذمة (مخطوط بدار الكتب المصرية-
٣٩٥٢ تاريخ).

*** نورمان كانتور :**

- التاريخ الوسيط : قصة حضارة - البداية والنهاية، (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة).

*** النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٨٣٣هـ) :**

- نهاية الأرب فى فنون الأدب (١٨ جزءا طبعة دار الكتب المصرية والباقي مخطوط ٥٤٩) .

*** الواقدي :**

- فتوح الشام .

*** يحيى بن سعيد الأنطاكي:**

- تكملة تاريخ سعيد بن بطريق (بيروت ١٩٠٩م) .

*** يوحنا النقيوسى :**

- تاريخ يوحنا النقيوسى ، (ترجمة ودراسة عمر صابر عبد الجليل، دار عين ٢٠٠٢م) .

*** أليف ليلة وليلة (طبعة محمد صبيح ، القاهرة د.ت) .**

*** سيرة الظاهر بيبرس: تاريخ الملك المعادل صاحب الفتوحات المشهورة . (نشر عبد الحميد أحمد حتفى، القاهرة د.ت).**

المراجع الأجنبية

* Anna Comnena :

- The Alexiade ,(translated form the Greek by : E.R.A. Sewter , Penguin 1970).

* Anne wolff :

- How Many Miles to Babylon ? Travels and Adventures to Egypt and beyond : form 1300- 1640, (Liverpool University press, 2003)

* Anonymous :

- The Chronicle of 754 in Conquerors and Chroicles of Early Medieval Spain, trans. K.B. Wolf (Liver pool 1995).

* Atiya , A.S. :

- The Crusades in the Later Middle Ages , (London 1938).

* Anonymous :

- Gesta Francorum : The Deeds of the Franks and Other Pilgrims to Jerusalem , (Edited by Rosalind Hill , (New York . 1962)

* Bede :

- A History of The English Church and People , (Trans-

lated with an Introduction by : Leo Sherely - Price ,
Penguin 1979) .

* Brundage, J.A., (ed),

- The Crusades Motives and Achievements, (Boston
1964).

* Dionisius A. Agius and Richard Hitchcock (eds.) :

- The Arab Influence in Medieval Europe , (Ithaca Press,
U.K. 1997) .

* Edward Peters :

- The First Crusade , the Chronicle of Fulcher of Charter
and other Source Materials , (the University of Penn-
sylvania press , 1971) .

* Einhard and Notker the Stammerer :

- Two Lives of Charlemagne , (Translated with an Intro-
duction by : Levis Thorpe , Penguin , 1974) .

* Fredegar :

- The Fourth Book with its Continuation, trans. J. M.
Wallace - Hadrill (London 1960) .

* Fulcher of Charter :

- a History of the Expedition to Jerusalem 1099- 1127
(translated with an introduction and edited by Harold
S. Fink , Konuxville , 1969) .

* Gaston Paris :

- " Un poeme latin contemporain sur Saladin ," Archives de l' Orient Latin , tom I , (Paris 1889).

* Hugh Kennedy :

- The Great Arab Conquests - How the Spread of Islam Changed the World we Live in (Weidenfeld and Nicolson , London 2007).

* Joseph Bediér et Pierre Aubry :

- les Chansons des Croisades avec leurs melodies , (Paris 1959 ; Hitkine Reprints 1974).

* Gregoire le Prêtre , RHC , Doc. Arm., I.

* Joinville and Villehardouin :

- Chronicles of the Crusades , (translated with an introduction by : M.R.B. Shaw , Penguin 1973).

* Lewis A.M. Sumberg :

- La Chanson d' Antioche : Étude Historique et Littraire , (Paris 1968).

* Matthiew d' Edesse . in RHC , Doc . Arm ., I .

* Michel le Syrien:

- Chronicle, Traduite par I.B. Chabot, 4 toms. (Paris

1899-1924).

* Michael Routledge :

- " Songs " in Jonathan Riley - Smith (ed.) , the Oxford Illustrated History of the Crusades, (Oxford University Press 1995) .

* Norman Daniel :

- The Arabs and Medieval Europe . (2 nd ed ., Longman, London and New York . 1979).

* Norman F.Cantor :

- Medieval History ; the Life and Death of a Civilization, (2nd ed . Macmillan , New York 1969).

* Ronald C. Finucane :

- Soldiers of the Faith ; Crusaders and Moslems at War , (New York , 1983) .

* R.W. Southern :

- Western Views of Islam in the Middle Ages (Harvard University Press , 1962) .

* Paul Meyer :

- " Fragment d' une Chanson d' Antioche en Provinciale " , Archives de l' Orient Latin , tom . I , (Paris 1884).

* Sebeos :

- The Armenian History, trans . R.W. Thomson 2. vols.
(Liverpool 1990).

* Sebeos L' évêque :

- Histoire d' Eracles , (Traduit de l' Armenien et an-
notée par : Frédéric Macler , Paris 1904) .

* Theophanes :

- The Chronicle of Theophanes, transl. C. Mango and R.
Scott (Oxford 1997).

* Theophanis :

- Chronographia , vol . I , in : Corpus Scriptorum His-
toriae Byzantinae , (Bonnae 1839).

* Walter E. Kaegi :

- Byzantium and Early Islamic Conquests (Combridge
University Press 1992) .

* Zonaras :

- Epitomae Historiarum libri , T. 3 in : Corpus Scriptor-
um Historiae Byzantinae , (Bonnae 1897) .

محتويات الكتاب

٣ مقدمة
---	-------------

القسم الأول

المسيحيون والفتوح الإسلامية

(بيزنطة وشرق المتوسط)

٧	١- المشهد المسيحي قبيل الفتوح الإسلامية
٢٢	٢- الهيزنطيون
٣٥	٣- السُريان
٤٩	٤- النسطوريون
٥٢	٥- الأرمن
٥٦	٦- الأقباط
٦٤	٧- الخاتمة

القسم الثاني

أوروبا والعالم الإسلامي

٧١ مدخل
٧٦	١- تأثير حركة الفتوح الإسلامية
٨٩	٢- المشكلة المعرفية
١٠٠	٣- التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق التاريخية
١١٣	٤- التطورات التاريخية قبيل الحروب الصليبية

١١٩	٥- صورة المسلمين في كتابات الدعاية الصليبية
١٤١	٦- الموقف في العالم المسلم
١٥١	٧- ما بعد الحروب الصليبية
١٦٢	خاتمة

القسم الثالث

مفهوم التسامح بين ثقافتين : أوروبا والعالم الإسلامي

١٧١	مقدمة
١٧٣	١- في معنى التسامح
١٨٢	٢- الأنا والآخر ... أو «نحن» و «هم»
١٩١	٣- في تاريخ عدم التسامح
٢٠٩	٤- النموذج المصري
٢٢٥	تأملات وملاحظات ختامية
٢٢٧	قائمة المصادر والمراجع

رقم الإيداع ٧١٤٣ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي 5- 236 - 322 - 977 L.S.B.N.

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٩٦٧٨ - ١٠١٠٠



مكتبة دار الكتب والوثائق القومية

المسلمون و أوروبا

الكتاب المقدس في القرآن الكريم



Bibliotheca Alexandrina



0672962



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES